

الأخلاق الإسلامية

في سيرة العرب

تأليف

محمد كرد علي

طبع على نفقة صاحبة العصمة قوت القلوب هامة الدمرداشية

الطبعة

مطبعة مطهرية ١٠ شارع نوري (سابقا شارع الذواوي)

١٩٣٤

الْإِذَارَةُ، الْأَسِيَّةُ فِي سِحْرِ الْعَرَبِ

تَأَلَّفَ
مُحَمَّدُ كَرْد عَلِي

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةِ صَاحِبَةِ الْعِصْمَةِ قُوَّةِ الْقُلُوبِ هَافِزِ الدِّمْدِشِيَّةِ

(الْقِسْمَانِ)

مُطْبَعَةُ نَجَافِ ١٠ طَبْعَ فَرْغَانِ (سَاقِطُ طَبْعِ الدُّرُودِ)

١٩٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه محاضرات ثمان في الادارة الاسلامية على عهد عز العرب
حاضرت بها في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية تحت إشراف كلية الآداب
من فروع الجامعة المصرية - جمهوراً من الطبقة المستنيرة في القاهرة
في شهر رمضان سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) . وكان ممن حضر هذه
المسامرات من أولها إلى آخرها صاحبة العصمة السيدة المهذبة قوت
القلوب هانم الدمرداشية من ربات البيوتات المصرية الشريفة وسليمة
البيت الكريم بيت أبي عبد الله المحمدى الشهير، فراقها أسلوبها في
البحث . وبالاتفاق مع عميد كلية الآداب العلامة الدكتور منصور
فهمى بك رأت طبع هذه المحاضرات على نفقتها لتعم فائدتها العالم
الاسلامى . فكان عمل هذه العقيلة النبيلة برهاناً آخر على نهضة المرأة
المصرية المسلمة، وحرصها على مساهمة الرجال في الأخذ بمذاهب الثقافة
العربية ، فأضافت مكرمة أخرى الى مكارم أهلها . جزاها الله عن عملها
الصالح أفضل الجزاء .

محمد كرد على

القاهرة في ٢١ شوال سنة ١٣٥٢ و ٦ فبراير سنة ١٩٣٤ م

الإدارة الإسلامية

نظر في الموضوع

كثيراً ما حاول بعض الباحثين في شؤون الإسلام على عهده الأول أن يصوروا العرب في غير صورتهم ذهاباً مع أهواء النفوس ، وإن يستنتجوا استنتاجات ناقصة في أحكامهم على الرسول عليه الصلاة والسلام ويقضوا من بعض أمجابه وينحوا انحاء شديداً على للدنية الإسلامية زاعمين أن العرب حتى في الإسلام لم يعملوا عملاً يذكر في باب التمدن وأنهم مقلدون في جميع أعمالهم ما زادوا على ما تعلموه من الروم والفرس من أساليب الحضارة . ولو صح ما قالوا لكانت قوانين فارس والروم صالحة للبقاء وافية بالغرض ، ولما استطاع العرب أن ينزعوا سلطان تينك الأمتين العظيمتين عن أجل أصقاع الأرض ويحكموها وينظموها على مثال مبتكر لم تكده تشهد البلاد مثله .

وستثبت في سلسلة هذه المحاضرات في الإدارة الإسلامية على عهد التفوق أن الإسلام ابتكر وأبدع في الحرب والإدارة والسياسة كما اخترع وأبدع في العلم والتشريع وأسباب المدنية على نحو ما يتجلى في صفحات التاريخ الإسلامي ، ونأني بالبراهين التي لا يسع منصفاً عارفاً أنسكارها . ونكتفي الآن بأن نقول إن من أهم المعجزات المحمدية بعد القرآن هذه الطبقة العالية من الصحابة الكرام الذين خرجوا من تلك البوقة الطاهرة ذهاباً ابريزاً وكانوا من أجل أدوات الإبداع فأبانوا في كل مواقفهم عن عقول مثقفة ونفوس شريفة وبعد نظر في إدارة الشعوب والممالك .

ولقد قضى هذا الضعيف الواقف بينكم زمناً طويلاً يتأمل ما كتب في تراجم الصحابة وتاريخ أعمالهم وتعليقها وحلها فما رأى، علم الله، بعد طول النظر واستعمال العقل النقاد إلا ما يجب منه . وإذا كانت هناك بعض هتات قليلة نسبت لبعضهم فإنها ناشئة من خطأ في الاجتهاد . ومن اللبس أن يحاب عنها لأن الصحابة كانوا بشراً أيضاً ، وحب الدنيا قد لا يخلو منه أمثل الناس أخلاقاً . بيد أن التربية التي ورثها الصحابة من الشارع الأعظم قد هيأتهم لممارسة الأعمال العظيمة ، لما أخرجهم بهديه من الظلمات إلى النور ، فكانوا عظاماً في كل مظاهرهم حتى أدهشوا الأمم بمجمل صنعهم، وانشأوا في نحو مائة سنة مملكة عظيمة لم يسبق لأمة قبلهم أن دأبوا فيها على أيديهم .

أو كان يقوم كل هذا لولا أن الصحابة كانوا على اعتماد فطري تام لتلقى فضائل صاحب هذا الوحي العظيم فارادوا بسيرته وعملوا بشريعته في كل أرض وطشها أقدامهم وارتفعت على ربوعها أعلامهم . إن ما نقله العرب عن غيرهم من ترايب الممالك معروف ومعترف به ، والإنصاف يقضى أن يسجل لهم قسطهم من الأعمال النابتة مباشرة من قرائحهم للزينة بأخلاق عالية ما عهد فيها نظن مثلها كثير في الأمم السالفة ولا الخالفة .

وما نحن أولاء، نبدأ اللبلة في الكلام على الإدارة في عهد الرسول وعهدتنا فيما تقتبس كتب الثقات والأمثات للعترة، وخطتنا أن نتعاضد بالاستفتاح بالمقاييس الواسع إذا كانت الوثائق التي لدينا غير كافية . ومن الصعب على من يتوخى العدل أن يحكم على الشبهة ويحسم الصغير ، وإذا فعل يكون الحق في واد وهو في واد آخر . وهذا مما لا يليق بباحث غرضه الوصول إلى النور وإيصاله إلى من يهمهم أن يتصبخوا به في موضوعات يشق على كل إنسان خوض عابها .

ادارة الرسول .

دعا الرسول الى الاسلام لأول مبعثه ثلاث سنين سرّاً ، ولما اضطهد للشركون من قريش أصحابه أرادهم على التفرق في البلاد ، وأشار اليهم بالهجرة مع نسائهم إلى أرض الحبشة ، علماً منه بأن صاحبها يحسن جوارهم ولا يظلمهم ويعتصمهم ، ثم دعا المسلمين الى الهجرة الثانية فراراً بدينهم من أذى قريش الذين اشتدوا عليهم ، ومن جملة هذا الأذى أنهم كانوا يلْبِسُون المستضعفين من المؤمنين برسالة الرسول أذراع الحديد ثم يصهرونهم في الشمس ، فبلغ منهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ من حرّ الحديد والشمس . وكانوا يلصقون ظهر بعضهم بالترصّف^(١) حتى ذهب لحم متته . وعن ابن عباس « والله إن كان للشركوت ليضربون أخدامهم ويجمعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يتوى جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ماسألوه من الفتنة وحتى يقولوا له آلات والعزى إلهك من دون الله فيقول نعم » . فكان الأمر بالهجرة أولاً وثانياً أول تدبير إداري من الرسول ، اتقذ به أصحابه من عنت المشركين ، ربّما تستحكم قواه فيعود على أعدائه يعرفهم أقدارهم ، ويناقشهم أوزارهم .

ومححو حديث « لا هجرة بعد الفتح » وقالوا إن الهجرة^(٢) كانت واجبة في أول الاسلام على ما دل عليها الحديث ، ثم صارت مندوباً إليها غير مفروضة ، وذلك قوله تعالى : (ومن يهاجر في سبيل الله فيجد في الأرض مراً غماً^(٣) كثيراً وسعة) نزلت حين اشتد أذى المشركين على المسلمين عند انتقال رسول الله الى المدينة ، وأُمرُوا

(١) الرصف بالحجارة المحاة (٢) الاختيار في الناسخ والمنسوخ من الآثار للحازمي (٣) مهاجراً

بالانتقال الى حضرته ليكنونوا معه ، فيتعاونوا ويتظاهروا ان حُرِّبهم أمر ، وليتعلّموا من أمر دينهم ويتفقهوا فيه ، وكان أعظم الخوف في ذلك الزمان من قریش وهم أهل مكة ، وكان جميع من لحق بأرض الحبشة من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صفاراً أو ولدوا بها نيفاً وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة . وقال الرسول : أنا برىء من كل مسلم مع مشرك قيل لم يارسول الله؟ قال : لا تراى ناراهما ، أى يلزم السلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل للمشرك ، ولا ينزل بالموضع الذى أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار للمشرك اذا أوقدها في منزله . ولكن ينزل مع المسلمين في دارهم . وانما كره مجاورة المشركين لأنهم لاعد لهم ولا أمان وحت المسلمين على الهجرة .

ولما ظهر الاسلام على الشرك طفق الرسول يدعو الى دينه جهره وأخذ يرسل أمثله من دخلوا في الاسلام من الرجال لتلقين العرب الدين وأخذ الصدقات منهم . واذا وفد عليه وافد يعهد اليه أن يعلم قومه دينهم و« إمام كل قبيلة منها لنفوس طبايع العرب أن يتقدم على القبيلة أحد من غير أهلها » وإذا كان الوافد من رؤوس قبيلة يؤسّد اليه جباية النىء . ويأمره أن يبشر الناس بالخير ويعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ، ويوصيه أن يلين للناس في الحق ، ويستد عليهم في الظلم ، وأن ينههم إذا كان بين الناس هيّج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، ليكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له ، وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين في الصدقة ، وأن من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصاً من نفسه ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين ، له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن^(١) عنها . وبعث معاذاً إلى الحبشة^(٢) فقال له : إنك تقسم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوم اليه عبادة الله تعالى فإذا عرفوا الله

(١) قتل الرجل في دينه مال عنه (٢) تيسير الوصول لابن الدبع

تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوقّ كرائم أموالهم ، واتفق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب . وكتب الى عمرو بن حريث عامله على نجران الفرائض والسنن والصدقات والديات . واكتفى الرسول باخذ الجزية من أهل نجران وأيلة وهم نصارى من العرب ، ومن أهل دومة الجندل وهم نصارى وأكثروهم عرب . ^(١) وبلغ أناساً من المشركين ممن لا عهد لهم قدّموا على الرسول ليجددوا حلفاً فلم يصالحهم الرسول إلا على الاسلام واقام الصلاة وابتاء الزكاة فأبوا فغلب سبيلهم حتى بلغوا مأمئهم ، وكانوا نصارى من قيس بن ثعلبة فلاحقوا بالبيعة ، حتى أسلم الناس ، فمنهم من أسلم ومنهم من أقام على نصرانيته .

ولما كان الهدف الأسمى نزاع الشرك من نفوس العرب أولاً ، رأينا الشارع إلى الرفق بأهل الكتاب لا يباديهم الشر إلا إذا قاوموه . وقد أحسن معاملة نصارى نجران ، وفدوا عليه ستين راكباً فيهم العاقب أمير القوم وذورائهم وصاحب مشورتهم ، والذي يصدر عن رأيهم وأمره ، وفيه نالهم وصاحب رحلتهم ومعهم أسقفهم وجبرهم وإمامهم وصاحب مديرتهم ^(٢) فاهدوه على أداء الجزية . وقال الرسول : من ظلم معاهداً أو انتفضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجُه يوم القيامة . وقال : من قتل قتيلاً من أهل النعمة لم يَرَحْ راحة الجنة . وقال : من قتل نفساً معاهدة بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشمّها . وجعل دية المعاهد كدية للسلم ^(٣) ألف دينار ، وعن مالك بن الوليد قال : أوصاني الرسول

(١) أضحية رسول الله لقرطبي (٢) العاقب الذي يخلف السيد وهو ثانيه في الرتبة ومنه جاء السيد والعاقب والقال الفيات الذي يقوم بأمر قومه والمدارس البيت الذي يدرسون فيه (٣) كتاب الديارات الضعفاك الشيباني

أن لا أخطو إلى إمارة خطوة ، ولا أصيب من معاهد إبرة فما فوقها ، ولا أبص على إمام بالسوء .

ولم يحارب الرسول اليهود في خير وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده وأرادوا قتله وكشفوا ستر سيدة من الأنصار . ويهود بنى النضير^(١) وبني وائل هم الذين حاربوا الأحزاب عليه ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعومهم إلى حربه ، وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقطع نخل بنى النضير ثم صالحهم وحرّق على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أوطانهم ، ويسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بغيراً وسقاه على أن لم ما أقلت الإبل إلا الحلقة^(٢) ، وطاوله يهود خير وما كسوه^(٣) ثم صالحوه على حقن دماءهم وترك القرية ، على أن يجلوا ويحلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبرزة إلا ما كان منها على الأجساد ، وأن لا يكتموه شيئاً ، ثم قالوا للرسول إن لنا بالعبارة والقيام على النخل علماً فأقرنا فأقرهم . وفي بنى النضير نزلت سورة الحشر . وأبى بنو قريظة لنقضهم العهد ومظاهرتهم للشركيين على الرسول . فأمر بقتل مقبالتهم وسبي ذراريهم واستفاده^(٤) أموالهم .

ووضع الرسول على المسلمين وغيرهم وعلى الأرضين والثمار والماشية أموالاً بين الكتاب العزيز أصنافها في عدة آيات وبين حكم اتفاقها فقال : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة^(٥) بين الأغنياء منكم) (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (يأتونك عن

(١) هبة بن هشام (٢) الفرج وقيل السلاح كله (٣) ما كسوه شاكسوه والمأكسة المفاضة وطلب الخط من الثمن (٤) استأله المال أخذه فيأ ولقنه لفنية (٥) المولة في المال أن يداره الأغنياء فيكون مرة لدار مرة لذلك

الأشغال قل الأفعال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها وللؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .

فالله يخرج يؤخذ من أرض العنوة ^(١) والخراج ما يؤخذ من أرض الصلح ^(٢) ومما فتح عنوة وأكثر أهلها عليه ، والجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والمشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها كأرض العرب وما أسلم عليه أهلها أو فتح عنوة وقسم بين الفزاة . وما كانت الجزية تقبل من غير الكتابيين في الأرض العربية ، ^(٣) ولا يقبل من المشركين عبدة الأصنام إلا الاسلام . ومن الأرض ما صولح أهلها على النصف من ثمارهم كأهل فدك ، وجعل النبي فدك له خاصة ، لأنه لم يوجف ^(٤) عليها للسلون بحيل ولا ركاب . والأفضل الفنائم في القتال ، والصدقة أنواع هي الزكاة وهي عشر الغلات التي تأتي من الأرض التي خلت من سكانها أو كانت مواتاً فأحيوها ، وصدقات للأنسية هي زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلولة والصدقات عروض التجارة . قال ابن جبيب: ^(٥) أول ما بعث الله نبيه بالدعوة بمش غير قتال ولا جزية ، فأقام على ذلك عشر سنين بمكة بعد نبوته يؤمر بالكف عنهم ثم أنزل الله عليه : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) الآية ، وأمره بقتال من قاتله والكف عمن لم يقاتله وقال الله عز وجل : (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وأتوا اليكم السلم فاجعل الله لكم عليهم سبيلاً) ثم نزلت براءة لثمان سنين من الهجرة فأمره بقتال جميع من لم يسلم من العرب من قاتله أو

(١) العنوة القهر وضع البلد عنوة أى قسراً (٢) مفاصل العلوم للخوازمي (٣) الخراج لابن يوسف (٤) أوجب الفرس أعداء والراد تجهيز جيش لفتح البلد (٥) تيسير الوصول لابن أبيهيج

كف عنه إلا من عاهد ولم ينتقض من عهده شيئاً فقال : (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم أن الله غفور رحيم) . وكل ذلك كان يؤخذ ممن اهتدوا إلى الدين الجديد ومن بقوا على دينهم من اليهود والنصارى ببدل لا شطط فيه يدفعه للمؤمن والمعاهدون طيبة نفوسهم ولم يتبرم به أحد .^(١)

شكا يهود خيبر^(٢) - وكانت قرية الحجاز ريفاً ومنعةً ورجالاً وكان فيها عشرون ألف مقاتل^(٣) - عبد الله بن رَوَاحَة . وكان الرسول يبعثه كل عام يَخْرُصُ^(٤) عليهم تحرم ثم يقول : إن شئتم فلکم وإث شئتم فلي ، فكانوا يضمنونه فشكوا إلى الرسول شدة خرصه^(٥) وأرادوا أن يرشوه جلاؤله حلياً من حلي نساءهم فقالوا : هذا لك وخفف عنا وتجاوز في القسم . فقال عبد الله : يا معشر اليهود إنكم لمن أبغض خلق الله تعالى إلى وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم وأما ما عرضتم على من الرشوة فانها السحت وإنا لا نأكلها . فقالوا : هذا قامت السموات^(٦) والأرض .

ولقد كان الرسول يتخير عماله من صالحى أهله وأولى دينه وأولى علمه ، ويختارهم على الأغلب من المنظور اليهم في العرب ليوقروا في الصدور ، ويكون لهم سلطان على المؤمنين وغيرهم ، يحسنون العمل فيما يتولون ويُسِرُّون قلوب من ينزلون عليهم الإيمان ، ويكشف أبدأ عملهم أى يقتسم ، ويسمع ما ينقل اليه من أخبارهم . وقد عزل العلاء بن الحضرمي عامله على البحرين لأن وفد عبد القيس شكاه وولى أبان بن سعيد وقال له : استوص بعبد القيس خيراً وأكرم سراهم^(٧)

(١) الشر والحراج في الحلافة العربية لمصطفى الشهابي (مجلة الجمع العلمى العربي ١٢)
 (٢) المعارف لابن قتيبة (٣) الحراج لأبي يوسف (٤) يفسد (٥) تاريخ دمشق لابن عساکر (٦) تيسير الوصول لابن الدبيع (٧) طبقات ابن سعد

وكان يستوفى الحساب على العمال^(١) بحاسبهم على المستخرج والصروف ، وقد استعمل مرة رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال : هذا لكم وهذا اهدى إلى . فقال النبي : ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا اهدى إلى ، أفلا قم في بيت أبيه وأمه فنظر أبيه إلى أم لا . وقال : من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو علول^(٢) .

وما اتك الرسول من استشارة أهل الرأي والبصيرة ومن شهد لهم بالعقل والفضل ، وأبأنوا عن قوة إيمان ، وتفاان في بث دعوة الاسلام . وم سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، منهم حمزة وجعفر وابو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وسليمان وعمار وحذيفة وابو ذر والمقداد وبلال . وسموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول إسلام قومهم ، والنقيب الضمين . وكان له عرفاء أي رؤساء جند . ويكتب له بعض جلة الصحابة من الكلمة^(٣) ، والكلمة في الجاهلية وأول الاسلام هم الذين كانوا يكتبون بالعربية ويحسنون العموم والرمي .

كان كاتب اليهود إذا عاهد والصلح إذا صالح علي بن أبي طالب . وعن كتب له أبو بكر وعمر وعثمان والزبير ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص وحفظه الأسدي والملاء بن الحضرمي وخالد بن الوليد وعبد الله بن رواحة وعبد بن ملحمة وعبد الله بن أبي سؤل والمغيرة بن شعبة وعمر بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتب فيما بينه وبين العرب وجهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنّة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وبلغ كتاب الرسول اثنين وأربعين رجلاً وكان صاحب سره حذيفة بن اليمان . وكان الحارث بن عوف للري على خاتمه ، وخاتمه من حديد ملون عليه فضة نقش ثلاثة أسطر محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر . ويضع خاتمه أيضاً

(١) الحبة في الانلام لابن تيمية (٢) خيابة (٣) طبقات ابن سعد

عند حنظلة بن الربيع بن صيفي بن أخى أكنم ، ويكون خليفة كل كاتب من كتاب النبي غاب عن عمله ، فقلب عليه اسم الكاتب ، وكان مُعْتَقِبُ بن أبي فاطمة يكتب مقام الرسول ، وكذلك كعب بن عمرو بن زيد الانصارى كان يقال له صاحب المقام ، وحذيفة بن اليمان يكتب خرص تمر الحجاز ، والعلاء بن عتبة وعبد الله بن الأرقم يكتبان بين الناس في قبائلهم ومياهم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء . وكان عبد الله بن الأرقم يحجب للوك عن الرسول ، والزبير بن العوام وجهم بن الصلت يكتبان أموال الصدقات ، والغيرة بن شعبة والحسين بن غير يكتبان للدائيات وللعاملات ، وشرحبيل بن حسنة يكتب التوقيعات إلى للوك . ومن شعرائه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك انتدبهم لهجو للمشركين ، وخطيبه ثابت بن قيس . وكان زيد بن ثابت ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية واليهودية . وناجية الطقاوى ونافع بن ظريب النوفلى يكتبان الصحاف وشفاء أم سليمان بن أبي حنيفة تعلم النساء الكتابة وعبادة بن الصامت يعلم أهل الصفة القرآن ، وكانت دار محرومة بن نوفل بالمدينة تدعى دار القرآن . وأول قاضٍ في المدينة عبد الله بن نوفل ومقرىء المدينة مصعب بن الزبير وأول لواء عقد في الإسلام لواء عبد الله بن جحش ، وعقد لسعد بن مالك الأزدى راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض وكان لواءه أبيض أو أصفر أو أعبروله راية تدعى العقاب من صوف أسود مكتوب على رايته : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأول مضمٍ قسم في الإسلام مضمٍ عبد الله بن جحش . ومن عماله أبو دُجَانة الساعدي وسباع بن عُرْطَلة عامله على المدينة ، وكان ثلاثة أرباع عماله من بنى أمية لأنه إنما طلب للأعمال ^(١) أهل الجزاء من اللعين والفناء ، ولم يطلب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها كما قال معاوية . واستعمل الرسول أبا سفيان بن

حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب ، ووجه راشد بن عبد الله أميراً على القضاء والمظالم .

وكان الرسول كثيراً ما يقول أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدّهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياءً عثمان ، وأقضاهم علي ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبي بن كعب ، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وقال : خذوا القرآن من أربعة ؛ من عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وجمع القرآن أي حفظه جميعه من الأنصار أبي ومعاذ وزيد بن ثابت وأبو قيس بن السكن ، هؤلاء أم رجال الإدارة والقضاء والفقه والقرآن . وهناك طبقة أخرى تتولى الأعمال مثل عتّاب ابن أسيد الذي استعمله والياً على مكة ، ورزقه كل يوم درهما فقام يخطب ويقول : أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله درهما كل يوم ، غلبت بي حاجة الى أحد . وهذا الراتب من أول ما وضع من الرواتب للعالم . وقد يكون رزقهم ما يطعمون منه على نحو ما أجرى على قيس بن مالك الأرحبي من همدان لما استعمله على قومه عربهم وحمورهم^(١) ومواليهم فأقطعه من ذرة رنار مائتي صاع ومن زبيب خيوان^(٢) مائتي صاع جار له ذلك ولعقبه من بعده أبداً أبداً أبداً . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون ما يتبلغون به من الفنائم وغيرها ، ومنهم من كان غنياً في الجاهلية والاسلام فجهز من ماله جنوداً في سبيل الله ، بل منهم من أنفق كل ماله في هذا الغرض وهو راض مقتبط .

ولقد آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار بأخوة الاسلام والايمان ولطالما أنقطع القطائع^(٣) ، وكان يتألف على الاسلام ، ويعطى من الصدقات من يريد

(١) لعل سوايه حرماً جمع احرأى الاعام (٢) غلاف في اليمن وفتنار جبل في حمى ضربة

(٣) القطيعة من الارضى طائفة من ارض الحراج

تأليف قلوبهم ، فدعى من يأخذون ذلك « للؤلفة قلوبهم » وهم أحد وثلاثون رجلا من سادة العرب ، تألفهم وتألف بهم قومهم ، ليرغبوهم في الاسلام ، ولثلاث^(١) تحملهم الحمية مع ضعف نيّاتهم على أن يكونوا إلّاب مع الكفار على المسلمين ، وما منهم الا الشريف المسودّد والعالم والخطيب والشاعر والهاهية الباقية ، وكل منهم سيد في قومه مطاع فيهم ، قال صفوان بن امية : لقد أعطاني رسول الله يوم حنين وإنه لمن أبفض الناس إلىّ ، فما زال يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إلىّ . وقال الرسول : إني لأعطي قوماً أتألف ظلمهم^(٢) وجزعهم وأكل قوماً إلى ماجل الله في قلوبهم من الخير والفضي . وكان يعامل للمسلمين بقواعد المساواة التامة ، ويفضل مثلاً من الأزد الأنصار وهم الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو بن عامر وهم أعز الناس نفساً وأشرفهم ، وهم لم يؤدوا أتاوة قط إلى أحد من الملوك

كانت الحكمة في تأليف من قضت المصلحة بتأليفهم ، وأعطى كل واحد من المؤلفة قلوبهم في إحدى غزواته مئة من الإبل ومقداراً من الفضة ، فلما دخل الناس في الدين أفواجاً ، وظهر المسلمون على جميع أهل الملل بطل العطاء للمؤلفة قلوبهم ، ودخل بعضهم في خدمة الدولة وتولوا العائلات وقيادة الجيوش ، ولم يبق عربي بعد واقعة حنين والطائف^(٣) الا أسلم ، ومنهم من قديم على الرسول ومنهم من لم يقدّم ، وقنع بما أتاه به وأفد قومه من الدين . ولما فتحت مكة دانت العرب لقريش وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته ، فدخلوا في دينه وقلّ أن دخل فيه إلا من اعتقد صدق صاحبه ، وقد جاء قيس بن نُسْبة السَلَمي فأسلم ورجع إلى قومه فقال : يا بني سليم ، قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأسفار الرهاب والسكّهان ومقاول^(٤) حمير ، وما كان كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم . وقال ابو سفيان

(١) تاج العروس للزبيدي (٢) الطلح العيب (٣) أسد الغابة لابن الأثير (٤) مقاول ج

مقاول وهو قتيل ابن الملك الصغير بلفة الجين

ابن حرب : مارأيت أحداً يحب أحداً من الناس كحب أصحاب محمد محمداً ^(١) .
 وكثرت الوفود في السنة التاسعة للهجرة حتى سمي عام الوفود ، وبعث
 رسله الى ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام ، وفي سنة سبع بعث دحية الكلبي
 بكتاب الى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى الى هرقل ليدفعه الى قيصر ، وبعث
 عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ، وعمرو بن أمية الى النجاشي وحاطب بن أبي
 بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية والملاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى ملك
 البحرين وشجاع بن وهب الأسدي الى الحارث بن أبي شمر الغساني ، وللهاجر بن
 أبي أمية الى الحارث ملك اليمن . وجاءت وفود العرب من كل وجه ، وكانت
 الرسول يكرمهم ويفضل عليهم بعطائه ، ومنهم من يضيفه عشرة أيام كوفد عبد
 القيس ، ومنهم من يبالغ في إكرامه كلوك اليمن ، وإنما سموها ملوكاً ^(٢) لأنه كان
 لكل واحد منهم واد يملكه بما فيه . وكانت كتبه الى ملوك الأطراف خارج
 الجزيرة بلغة مضر وفصيح ألفاظها وكلها موجزة ، واستعمل ألفاظاً في بعض كتبه
 الى أهل اليمن وغيرهم غير معروفة للعرب كافة إلا في قبيل واحد ، وذلك إرادة
 إنباهم القوم ومحاطبتهم بألوفهم من المبارات ^(٣) . قال عليُّ للرسول وقد سمعه يخاطب
 وفد بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لانفهم
 أكثره . فقال : أدبني ربي فأحسن تأديبي ، ودينت في بني سعد . فكانت
 يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمون .

ولم يكن للرسول بيت مال ، وكان يحجاً الأموال في بيته وبيوت أصحابه ،
 وفي الغالب أن النبي يقسم من يومه ، خصوصاً إذا كان من الناطق كالابل والشيء
 والخيل والبغال . والرسول يعطى الأهل ^(٤) من النبي . حظين والعزب حظاً ^(٥) .

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٢) طبقات ابن سعد (٣) العقد الفرید لابن عبد الوہد — کتاب
 الجہانۃ فی الوفود (٤) الأهل المزوج (٥) تيسير الوصول لابن الدريغ
 محاضرات م — ٢

وما كانت تأخذه بالمشرّكين هوادة لاسيّما بعد أن فتحت مكة ، وأطاعت الحجاز
واليمن واليمامة وغيرها من أصقاع الجزيرة ، وما كان هوى من رسخ الاسلام في
قلوبهم في شيء . من حطام الدنيا ، فقد بلغ من تبادل الثقة ^(١) والحب بين المسلمين
في صدر الاسلام أنهم كانوا خطاء بالمال ، يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا
لقوله تعالى : (و موثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . ولقد أُهديت لعبادة
ابن الصامت ^(٢) هدية وإن معه في الدار اثني عشر من أهل بيته فقال عبادة :
اذهبوا بهذه الى آل فلان فهو أحوج اليها منا . قال الوليد بن عبادة فأخذتها
فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها الى آل فلان فهم أحوج منا
إليها ، حتى رجعت الهدية الى عبادة قبل الصبح . وأسلم عبد الله بن جعفر الزبير
ابن العوام الف الف درهم فلما قتل الزبير قال ابنه عبد الله لعبد الله بن جعفر إني
وجدت في كتب أبي أن له عليك الف الف درهم فقال : هو صادق فاقبضها إذا
شئت ثم لقيه فقال : يا أبا جعفر وهمتُ للمال لك عليه فهو له قال : لا أريد ذاك .
قال : فاختار ان شئت فهو له وإن كرهت ذلك فله فيه نظيره ما شئت ، وإن لم
ترد ذلك فبعضي من ماله ما شئت .

مثال آخر من هذا الإيتار . كان بالمدينة في زمن النبي شاب يقال له مالك
بن ثعلبة الأنصاري ولم يكن بالمدينة شاب أغنى منه ، فرأى بالنبي والنبي يتلو هذه
الآية (والذين يكتزون الى قوله فذوقوا ما كنتم تكفرون) فغشى على الشاب فلما
أفاق دخل على النبي فقال : بأبي أنت وأمي هذه الآية لمن كثر الذهب والفضة .
فقال له النبي : نعم يا مالك . قال : والذي بمثلك بالحق ليمسك مالك ولا يملك دينارا
ولا درهما . قال : فتصدق بماله كله . وما كان أصحاب رسول الله بالمتفرقين ^(٣)

(١) الاحياء للقرن الثاني (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣) التفرق السريع

ولا للتأوتين^(١) يتناشدون الأشعار ، ويحلسون في مجالسهم ، ويدكرون جاهليتهم فإن أريد إنسان منهم على شيء من أمر دينه دارت عيناه فترى حاليتها^(٢) غضباً . بل كان منهم من إذا ارتكب كبيرة يعاقب عليها الاسلام يأتي الرسول يطلب إقامة الحد الشرعي عليه ، أو يسمع منه ما ينقلب به إلى أهله مسروراً ، يأخذ حكمة تلجج بها نفسه ، ويمتد أنه تحلل من ذنبه واستغفر له الرسول .

وأراد النبي مرة إحصاء للمسلمين فقال : اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس ، فكتبوا له ألفاً وخمسمائة رجل . وما كان يجمع المسلمين في أول أمرهم كتاب حافظ أي ديوان مكتوب^(٣) . وكان إذا نودي للزحف وتحلف عنه أحدهم لعذر أو شبه عذر ، يلومه الرسول وأصحابه ، وإذا تبين أنه تعدأف يكون مع المتخلفين عن القتال ياتَّب ، ويقاطمه الجماعة ويحتنبونه لا يكلمه أحد . ولما أمر الرسول بالتهيؤ لغزو الروم في اليرموك ، تناقل المسلمون عنها وأعظموا غزوهم ، فوافق من نأفق من المناققين ، حين دعوا إلى ما دعوا إليه من الجهاد ، وكان « ذلك في زمن عسرة^(٤) » من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في عمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه » وجاء المتخلفون عن هذه الغزاة وكانوا ثمانين رجلاً فقبل الرسول منهم علانيتهم وأيمانهم ، واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله . وفي هذه الغزوة حضَّ الرسول أهل الفنى على النفقة والحلان في سبيل الله فحمل رجال من أهل الفنى واحسبوا ، وكان من أفضل القربات أن يجهز أبواب اليسار أناساً للغزو يشكفون بطماهم وإطعام ذويهم ، ويُعطونهم السلاح والكرع واللباس ليَتَزَوَّا

(١) تمارت أظهر من نفسه التخافت والتضاعف من العباداة والرهبة والصوم (٢) الخلاق باطن
الاجنان المحر إذا ظلمت الكحل بدت حررتها وقيل الخلاق ما غلب الجفن من يابض المقة (٣) سيرة ابن هشام
(٤) سيرة ابن هشام

ويرابطوا^(١) . وكان المسلمون كلهم جنداً يقاتلون للدين وكان لا يزال فيهم أبدأ من يبذل شطراً صالحاً من ماله في وجوه البر والتقرب لا يريدون على إسلامهم ونصرهم للرسول جزاء . وجميع ما غزا الرسول بنفسه سبع وعشرون غزوة وكانت بموته وسراياه ثمانياً وثلاثين بين بخت وسرية ، وكان يورى بفزواته ، وقل أن يعين لأصحابه الوجهة التي يقصدها في غزاته ، وكتب مرة لأحدهم كتاباً وأمره أن لا يقرأ حتى يبلغ مكان كذا وكذا . ولا يستكره من أصحابه أحداً أى يندبهم للعمل قسراً ، وذلك ليترصد بذلك قريشاً ويعلم له من أخبارهم .

ولم يكن للمسلمين سلاح جاهز . وسلاحهم القوس والنبل والحرية والسيوف والدرع ثم اتخذ أنواع السلاح التي كانت موجودة إذ ذاك عند الأمم . واستعار الرسول يوم هوازن^(٢) مئة درع بما يكفيها من السلاح من صفوان بن أمية ليلقي بها العدو على أن تكون عارية مضمونة حتى يؤديها إليه . ورأى الرسول أن اتساع الفتوح يقضى بأن يتعلم بعض أصحابه صنعة الدبابات والحجائيق والضبور^(٣) أى صنائع القتال فأرسل إلى جُرَشَ بْنِ أُنَيْنٍ من أصحابه يتعلمانها . وكان أهل الطائف أول من رُمى بالمنجنيق . وأخذ المسلمون بُعِيدَ ذلك يمدون لأعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، لأنهم قادمون على فتح الشام والعراق على ما بشرهم به الرسول فقال لعدى بن حاتم : لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذ ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عددهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بغيرها تزور هذا البيت

(١) الرابطة أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثمره وكل مستعد للقاء صاحبه فكانوا يربطون أى يقيمون على جهاد عدوم بالحرب ومرابطات المسلمين مواضع خيلهم المرابطة والمرابطة هم الجماعة يربطوا (٢) سيرة ابن هشام (٣) الضبور جلود تنشى خشباً فيها رجال وقالوا هي الدبابات تقرب الحصون لتقب من تحتها الواحدة ضربة .

لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . وقال مرة : أبشروا وأتلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها فتهلككم كما أهلكهم .

رأينا الرسول في طور ضعفه ، ثم في طور قوته ، يحرص على رجاله حرصه على أعز نبي لديه . ولما دخل عمر في الإسلام اعتز به وترك به المسلمون الثقة في دينهم ، بل إنه كان إذا سقط في يده أحد أذكىء المشركين أتقى عليه ، مهما كان من إيدائه للمسلمين أو له خاصة ، عل في حياته ما يستفيد منه الإسلام إذا أسلم . أما من قتلوا النفس التي حرم الله فهؤلاء لا تأخذهم بهم رحمة ؛ قدم عليه نفر ^(١) من العرب قد ماتوا هزلاً فأسلموا واجتروا المدينة فأمرهم الرسول أن يأتوا إبل الصدقة يشربوا من ألبانها ففعلوا وصحوا وسمتوا فارتدوا وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل فبعث في آثارهم فما ترجل ^(٢) النهار حتى جىء بهم وأوقع عليهم أشد العقوبة الشرعية .

وكان يحسن معاملة النساء عامة كما يحسن معاملة أزواجه خاصة فيؤثرن أي تأثير في الرجال ، ويحمل منهن أدوات صالحة له بيت بواسطتهن دعوته ، ويرعى مصالح المسلمين ، وقد أوصى بهن أجمل وصاة في خطبته يوم حجة الوداع . وهذا غاية في حسن الإدارة والسياسة لأن حل المسائل بدون مشا كل ، أنفع من حلها بطرق جافة . والنساء في هذا المعنى من أفعال أسباب الدعوة ، خصوصاً إذا كن كالحمايات يأخذن بمجامع القلوب بحميل عاطفتهن وجمال بلاغتهن . وكان يسمح باستخدام النساء في حروبه وغزواته يخدمن الجرحى ويأخذن من العطاء ويتولين من الرجال ما يصلحن له كالطعام والاسقاء ، ويحسن من يحتاج الى تحميس

(١) أفضى رسول الله لقرطبي (٢) ترجلت القميص ارتفعت واجتروا استوبأوا

وجعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة يقال لها ربيعة في مسجده كانت تدأوى الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان فيه ضيقة من المسلمين . وكذلك كانت أخت ربيعة واسمها كعبه بنت سعيد الأسلمية . ومنهن من كنَّ يخطن القرب . فالنساء في حكومته ممرضات طاهيات ساقيات خياطات محسسات داعيات . وأمر الرسول أن لا يقتل النساء في الحرب . فكان بذلك يستفيد من كل قوة في بلده يستعين بها على الظهور على الشركين .

ومن خطبه الادارية ما ورد في التفات أنه قد علم على أمير له وأخذ إنسان بخطامه أو بزمامه فقال : أى يوم هذا . قال من حضر : فكتنا حتى ظننا أنه سيسمي بنير اسمه . فقال : أليس يوم النحر . قلنا : بلى . قال : فأى شهر هذا . قال : فكتنا حتى ظننا أنه سيسمي بنير اسمه . فقال : أليس بذى الحجة . قالوا : بلى . قال : فأى بلد هذا . قال : فأمسكنا حتى ظننا أنه سيسمي بنير اسمه . فقال : أليس بالبلد الحرام . قلنا : بلى . قال : فان دماءكم وأعراضكم (وفي رواية وأموالكم) بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا يبلغ الشاهد الغائب .

هذا جملة ما يقال في تدبير الرسول في الإدارة من بث دعوة ، وجهاد عدو ، وأخذ غنائم وصدقات وجزى وعشور ، وقسمتها بين المجاهدين وأهل البلاد . من للهاجرين والأنصار ، ثم على فقراء المسلمين ، وما كان من توزيعه العمل بين عماله ومعاملته لهم ولوفود والنساء الى غير ذلك من أسباب القوة واتخاذ الجند والمحاربين ، واشتداده في الحق ولينه إذا دعت الحال الى اللين ، واغضائه أحياناً لما يلحق به من الأذى ، يرتقب الفرص لمن يكيد للمسلمين .

وما يصح التمثل به في باب اللين أنه رضى يوم الحديبية أن يدخل وأصحابه مكة ثلاثة أيام فقط على أن يكونوا بُجُلْبَانٍ ^(١) السلاح وصالح سهيلاً بن عمرو أخا بني

(١) الجلبان أوعية السلاح بما فيها القند والليف فيه والكثافة والصلابة فيها

عامر بن لوئى فدعا عليا بن أبى طالب . فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم .
فقال سهيل لأعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله : اكتب
باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلا
بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . ولكن اكتب
اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله
سهيلا بن عمرو اصطلاحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن
الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بنير إذن وليه
رده عليهم ومن جاء قريشاً بمن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن ينفنا عيبة مكفوفة
وأنه لا إسلال ولا إغلal^(١) وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل
فيه . ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه إلخ . فاستاء المسلمون
من هذا العهد بعد أن فازوا على أعدائهم ؛ وأحب الرسول حقن الدماء فقبل من
خصمه هذا العنت ، وكانت العاقبة له ولقومه .

ادارة الخلفاء الراشدين .

سار أبو بكر بسيرة الرسول فى الإدارة الاسلامية واحتفظ بالعمال الذين
استعملهم صاحب الشريعة ، والأمراء الذين أمرهم ، ومن العمال من أبى أن يعمل
لغير رسول الله فاعتزل العمل ولما وسدت الخلافة إلى الصديق قال له أبو عبيدة :
أنا أكنفك للسال . وقال عمر : وأنا أكنفك القضاء . فكث عمر سنة لا يأتية
رجلان ، ولم يخاصم إليه أحد . وذلك لأن الناس كانوا أول ظهور الإسلام يرون
من الطبيعى أن يعطى الإنسان الحق ويأخذ الحق ، ويقف عند حدود الله

(١) الاسلال الحياة والاعلال السرة . والية فى الرجل موضع سره أى يتنا ويمنهم فى هذا الصلح
صدر مفعول على الوفاء بما فى الكتاب تقى من القتل والقندر والخذاع

لا يقارف منكرآ ولا يسرف على نفسه ، ويمعد عن الزور وأ كل أموال الناس بالباطل ، ويجمل رائده الصدق في أقواله وأفعاله .

كان إذا نزل بالصدىقى أمرىد فىه مشاورة أهل الرأى وأهل الفقه ، ودعا رجلاً من المهاجرين والأنصار ، دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكل هؤلاء كان يفتى فى خلافة أبى بكر ، وإنما تصير فتوى الناس إلى هؤلاء . على أن أبى بكر كان جده عالم بالشريعة وأخبار الناس وأيامهم وأنسابهم وسياساتهم ، إلى ما رزق من صدر رجب يطلب من كل صاحب إدارة . واختار من القضاة ما اختاره الولاية غالباً ، وكان ولاية للدينة^(١) هم الذين يختارون القضاة ويولونهم ، ويكتب لأبى بكر على بن أبى طالب وزيد بن ثابت . ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان^(٢) ويكتب له من حضر^(٣) ومن عماله عتاب بن أسيد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبى العاص وللمهاجر بن أبى أمية وزيد بن عبيد الله الأنصارى ويعلى بن منية وأبو موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل والعلاء بن الحضرمى وجريز بن عبد الله وعبد الله بن ثور وعياض بن غنم وأبو عبيدة بن الجراح وشُرَجْبِيل بن حَسَنَة وزيد بن أبى سفيان وخالد بن الوليد .

ما تجاوزت رقعة لللك الأسلامى فى أيام أبى بكر أكثر من جزيرة العرب قسمت إلى ولايات أو عمالات وهى مكة وللدينة والطائف ومنعاء وحضرموت وخولان وزُيَيد وريَمَ والجَنَد ونجران وجُرَش والبحرين ، أما القواد الآخذون بفتح الشام والعراق فيولون عمالاً من عندهم فى الأرض التى يفتحونها . بمعنى أن الحجاز قسم إلى ثلاث ولايات ، واليمن إلى ثمان ، والبحرين وما إليها ولاية .

ولما ولي أبو بكر قال: قد علم قومي أن حرفتي لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلي ، وقد شغلت بأمر المسلمين وسأحترف للمسلمين في مالهم وسيأكل آل أبي بكر من هذا المال ، فجلسوا له الفين وفي رواية ثلاثة دراهم كل يوم من بيت المال^(١) . ثم قال : زيدوني فإن لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة . ولما مات ابنه في خلافته ترك سبعة^(٢) ذنانير فاستكثرها أبو بكر . ولم يفرض أبو بكر ولا الرسول من قبل عطاء مقررًا للجند^(٣) وكانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قورته الشريعة لهم ، وإذا ورد المدينة مال من بعض البلاد أحضر إلى مسجد الرسول وفرق فيهم يصيب منه الأنصار والمهاجرون وكل مسلم بحسب غنائه في نصرة الدين . جرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبي بكر . وكان لأبي بكر^(٤) بيت مال بالشنخ من ضواحي المدينة إلى أن انتقل إلى المدينة فقليل له ألا تجعل عليه من يحرسه ، قالوا فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى منه شيء . ولما قضى نحبه ذهب عمر في نفر من الصحابة لاستلام بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً .

وجرى أبو بكر على كشف أحوال العمال ، وكان كصاحبه يختار أكرمهم علماً وعملاً . ولما عزل خالد بن سعيد أوصى به شرحبيل بن حسنة وكان أحد الأمراء فقال : انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرف لك من الحق عليه لو خرج والياً عليك ، وقد عرفت مكانه من الإسلام وأن رسول الله (ص) توفي وهو له وال ، وقد كنت وليته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيراً له في دينه ما أغبط أحداً بالامارة . وقد خبرتني في أمراء الأجناد فاختارك على غيرك ، اختارك على ابن عمه ، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأي النبي الناصح ، فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن

(١) تاريخ يعقوبي (٢) طبقات ابن سعد (٣) الفخري لابن المقفعي (٤) الكامل لابن الأثير

جيل ، وليكُ خالد بن سعيد ثالثاً . فإنك واجد عندهم نصحاً وخيراً . وإياك واستبداد الرأي عنهم أو تطوى عنهم بعض الخبر .

وشغل أبو بكر بقتال أهل الردة فوطد دعائم الدولة باظهار قوة المسلمين لمن خالفهم ، فجمع التمثل الذي كان يخشى من ابتئاته ، وبدا منه حزم عجيب وإدارة شديدة رشيدة ، وخالف جميع أصحابه في قتال من أخلوا بشروط الاسلام فأصر على قتالهم . ولقد قال عمر إن العرب لما ارتدت^(١) ومنعت شاتها وبيرها أجمع رأينا كلنا أصحاب محمد أن قلنا لأبي بكر إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحي ولللائكة يمد الله بهم ، وقد انقطع ذلك فالزم بيتك ومسجدك ، فانه لا طاعة لك بقتال العرب . فخالفهم كلهم أبو بكر وأعلن هذه الحرب على المرتدين حتى أذعنت العرب بالحق . استبد أبو بكر برأيه فكان رأيه الصواب ، وقضى بصادق عزيمته وبميد نظره قضاء مبرماً على آخر أثر من آثار الوثنية في الأرض العربية ، ولما أرسل الصديق الأمراء لقتال أهل الردة أوصاهم أن يقتصدوا بالمسلمين ، ويرفقوا بهم في السير والنزل ، ويتفقدوم ويتوصوا بهم في حسن الصحبة ولين القول ، وأمر قواده في المرتدين أن لا يقاتلوا أحداً ولا يقتلوه حتى يدعوه إلى الله ، فمن استجاب لهم وأقرّ وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعين عليه ، ومن أبى يقاتل على ذلك ، ولا يبقون على أحد منهم قدروا عليه ، وأن يحرقوه بالنار ويقتلوهم كل قتلة ، ويسبوا النساء والنراى ، ولا يقبل من أحد إلا الاسلام .

ومن وصايا أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام « إذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً من الحملة فإن لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه . واحترس من البيات فإن في العرب غرة ،^(٢) وأقلل من الكلام فإنك ما وعى عنك ، وإذا أتاك كتابي فاقفه

(١) الكامل للبرد (٢) بيت العدو أرفع بهم ليلا من دون أن يعلوا والفرقة النفقة

فإنما أعمل على حسب إيتاده . وإذا قدمت عليك وفود العجم فأنهم معظم عسكرك وأسبغ عليهم النفقة ، وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا تلحن في عقوبة فإن أذناها وجع ، ولا تسرعن إليها وأنت تكنتي بغيرها ، واقل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سرائرهم ، ولا تجسس عسكرك فتفضحه ولا تهمله فتفسده .

ولم يحدث أبو بكر في أيامه أحداثاً جديدة ، والفتوح لم تقف مع حروب الردة ووجه وجهته نحو الشام وكان آخر جيش جهزه جيش اليرموك ، جهزه بكل حكمة وبذل في تنظيمه أقصى الجهد ، وجعل فيه قاصياً وجعل أبا سفيان بن حرب قاصاً يسير في الجماعة ويقول : الله الله عباد الله انصروا الله ينصركم ، اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ، يا نصر الله اقترب يا نصر الله اقترب . وقصاص الجند يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسة ليقروا قلوبهم ، وقيل إن تيمم الداربي كان أول من قص في مسجد الرسول في عهد عمر ، كان يذكر المسلمين بالله ويقص عليهم قصصاً وأحاديث عن الأمم لللاضية وأساطير وحكايات .



كانت أول خطبة خطبها عمر بن الخطاب لما ولي الخلافة : أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ له الحق ، ولا أضعف عندي من القوى حتى آخذ الحق منه ، وما كان عمر ممن أولع بإلقاء الخطب كثيراً على بلاغة فيه مستحكمة وعلم غزير ، ولا يرتقى المنبر إلا إذا قضت الضرورة وأراد بيان أمر ذهب فيه نزوات النفوس مذهباً لا يرضاه . وكثيراً ما قال إن هذا الأمر لا يصلح فيه إلا الهين في غير ضعف ، والقوى في غير عنف . وكذلك كان عمر يجمع بين اللين والشدّة ، وهو إلى هذه ولا سيما على عماله أقرب . وإذا كان أكبر رجال الإدارة نحى عليهم عشرات من الأغلاط فإن عمر لا يستطيع أكبر الناقدين أن

يحصى عليه غلطين أو ثلاثا ، وقد يجاب عليها بأف ذلك محض اجتهاد منه ، والمجتهد قد يصيب ويخطئ . والحكم الآن على مسائل لم تتجلى كل التجلى بما نقله الناقلون ، وما أحاط بها من أحوال دقيقة غير مرتبة ، يدعوننا إلى أن نمسك عن إرسال القول في النقد ، ولا سيما قد رجل عقت أم كثيرة أن تنيف أفضل منه وأعظم .

وطريقة عمر في الإدارة طريقة أبي بكر وصاحبه من قبل ؛ اطلاق الحرية للعامل في الشؤون الموضعية ، وتقييده في المسائل العامة ، ومراقبته في خلوته وجلوته . « وكان ^(١) علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته ، كله بمن بات معه في مهاده واحد وعلى وساد واحد ، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا أمير حيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ما وجدته ، فكانت ألفاظ من بالشرق والغرب عنده في كل مُشْنَى ومُصْبَح . وأنت ترى ذلك في كتبه إلى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصم به » وكان كما قال للغيرة بن شعبة أفضل من أن يخدع وأقفل من أن يُخدع .

كان إذا استعمل المال خرج معهم بشيعهم ^(٢) فيقول إني لم استعملكم على أمة محمد على أشعارهم ولا على أبنائهم وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا دينهم بالحق ، وتقموا بينهم بالعدل ، لا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجبروها ^(٣) فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتجرموها ، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم . وكان يقص من عماله ، وإذا شكى إليه عامل جمع بينه وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه . وكان إذا بشت أمراء الجيوش يوصيهم بتقوى الله وأن لا يعتدوا ولا يجبنوا عند اللقاء ولا يمثلوا عند

(١) نتائج النسوب للجاحظ (٢) تاريخ الطبرى (٣) لا تجبروها في دار الحرب

القدرة ولا يسرفوا عند الظهور ولا يقتلوا هراً ولا امرأة ولا وليداً وأن يتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات وفي شن الغارات وأن لا يضلوا عند الفنائم وينزهوا الجهاد عن عَرْض الدنيا .

وكان عمال عمر عرضة لكشف أحوالهم مهما بلغ من منزلتهم ، وكان إذا سُكِيَ^(١) إليه عامل أرسل محمد بن مسلمة يكشف الحال ، وله عدة طرق في كشف سيرة عماله ، منها أن يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إني لم أبعت عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فينكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم ، فما قام إلا رجل واحد فقال : إن عاملك فلاناً ضربني مائة سوط ، قال فمضرت به ؟ قم فاقتص منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سُنَّة يأخذ بها من بعدك . فقال : أنا^(٢) لا أقيد . وقد رأيت رسول الله يعيد من نفسه قال : فدعنا فلنرضه قال : دونكم فارصوه ، فاقتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين . وقال من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه . فقيل له : أرايت إن أدب أمير رجلاً من رعيته أقصه منه فقال : ومالي لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه .

وكان يستدعي عماله ليطلع على مطاوى نفوسهم ويكشف بنفسه إن كانوا أخذوا أنفسهم بأسباب النعم لأن عمر يؤثر الخشونة^(٣) ويريد عماله أن يتبعوه في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه فكان كل يتشبه به من غلب أو حضر ، وهو يلبس الحجة الصوف الرقعة بالأديم وغيره ، ويشتمل بالعباءة ويحمل القرية على كتفه مع هيبة قدر رُفِّها ، وكذلك كان عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٢) أناد القتاتل بالقتيل قتله به (٣) مروج الذهب للسعدي

الأموال . وكان ينهى عماله عن جيد اللبوس والركوب والمأكول ويلتف في ^(١) كسائه وينام في ناحية للسجد فلما وُرد بالمرزان صاحب تُستر عليه ، جعلوا يسألون عنه فيقال مرّة ههنا آتفا فيصفر في قلب المرزان إذ رآه كبعض الشوكة حتى انتهى إليه وهو قائم في ناحية للسجد فقال المرزان : هذا والله الملك الهنيء ، يقول لا يحتاج إلى حراس ولا عدد فلما جلس عمر امتلاً قلب العليج ^(٢) منه هيبة لما رأى عنده من الجِد والاجتهاد وألبس من هيبة التقوى . قالوا وكان أبا العيال ^(٣) يسلم على أبوابهم ويقول ألكن حاجة وأيتكن تريد أن تشتري شيئاً فيرسله معه بجواجهن ومن ليس عندها شيء اشتري لها من عنده ، وإذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعه بنفسه في منازلهن بكتب أزواجهن ويقول : أزواجكن في سبيل الله وأنتن في بلاد رسول الله ، إذا كان عندكن من يقرأ وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لكن ثم يقول : الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتهن حتى نبعث بكتبكن ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول : هذه دواة وقرطاس فادنين من الأبواب حتى أكتب لكن ويمر إلى اللقيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها إلى أزواجهن .

وكان إذا استعمل عاملاً أوصاه بتقوى الله وإصلاح الرعية وكتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من الأنصار أن لا يركب برّ ذوناً ولا يأكل قتيماً ولا يلبس رقيقاً ولا يفلق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول اللهم اشهد . وكتب إلى عماله : أما بعد فإياكم والمهدايا فإنها من الرُشا . اهتدى إلى عظيم ضرر الهدايا بما بدر من رجل ^(٤) كان يهديه فخذ جزور فخاضع إليه رجلاً فقال : يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاء فصلاً كما يفصل الرجل من سائر الجذور ، قضى عليه عمر ، ثم كتب إلى

(١) الكامل للبدر (٢) العليج الرجل من كفار العم والتوى الضم منهم ج طوج وأعلاج

(٣) مرآة الخواص للطرطوشي (٤) الاشراف لابن أبي الفتح

عماله إن الهدايا هي الرشا . وكان عمر إذا قدم العمال يأمرهم أن يدخلوا نهاراً ولا يدخلوا ليلاً كي لا يحتجبوا شيئاً من الأموال . وكان يسس بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم ، ويتعهد أهل البؤس والفاقة بنفسه .

كتب إلى أبي موسى الأشعري عامله على العراق يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً ، يريد أن يعرف حالتهم بعد أن تبسكوا^(١) في النسيم وعهدت إليهم مصالح الناس ، فأدرك عامل البحرين من بين كثير من العمال أن عمر يرغب في الخسونة وعرف أنه سيدعوم إلى طعامة فتجسس له واتخذ خفين مطارقين^(٢) ولبس جبة صوف ولاث^(٣) عمامته على رأسه فدعاهم عمر إلى خبز وأكار^(٤) بغير فجعلوا يعافونه لأنهم حديث عهد بهم بلين العيش ، وعمر يلحظهم ، واقت عامل البحرين نظر عمر ، وتهافته على تناول الطعام ، فسأله عمر عن عمله ثم عن جملة فأجاب إنه يرزق ألفاً فقال له عمر : إنه كثير ما تضع به ؟ قال : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لي فما فضل عنهم فعل قراء المسلمين . فأمر عمر أبا موسى أن يستبدل بأصحابه ، وأبقى عامل البحرين في عمله لأنه رآه مقلداً متتبعاً لا يخشى أن يسرف في المال . وولى عمر رجلاً بلداً فوجد عليه^(٥) فجأة مذهباً حسن الحال في جسده عليه بردان فقال له عمر : أهكذا وليناك ثم عزله ، ودفع إليه غنيمات يرعاها ثم دعا به بعد مدة فراه بالياً أشمت في ثوبين أطلسين^(٦) وذكر عند عمر بخير فردده إلى عمله وقال : كلوا واشربوا وادهنوا فإنكم تعملون الذي تنهون عنه .

وكان إذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل إليه الضعيف وهل يعود للريض ، فإن قالوا نعم ، حمد الله

(١) تبسكوا تبسكوا (٢) نمل مطرقة ومطارقة غصوفة ونصف العمل أطبق عليها مثلاً وغرهما ماخضف (٣) لاث عمامته على رأسه نصيبها ولقبا (٤) جمع كسر وهو العمل عليه قليل لم (٥) الكامل للبرد (٦) الطلس بكسر الطاء الريح من الثياب والأطلس الثوب الحق

تمالى وإن قالوا لا كتب اليه أقبل . وكان من سنة^(١) عمر وسيرته أن يأخذ عمله بموافاة الحج في كل سنة للسياسة وليحجروهم بذلك عن الرعية وليكون لشكايتهم وقت وغاية يمهونها اليه . كتب إلى أبي موسى الأشعري : أما بعد فإن للناس نفرة فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياه مجهولة ، وضغائن محولة ، أقم الحدود ولوساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا ، فأثر نصيبك من الله فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وأخيفوا الفساق واجلوهم يداً يداً رجلاً ورجلاً ، وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنازتهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أنظلمهم حملاً . وقد بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فأياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة الهيمة مورت بواد خصب فلم يكن لها ثم إلا السمن وإنما حتفها في السمن ، واعلم ان العامل إذا زاع زاعغ رعيته ، وأشقى الناس من شقى الناس به والسلام . وهذا من كتبه الممتعة في الادارة وطريقته فيها .

وبلغ عمر أن أبا عبيدة عامله على الشام يُسبغ على عياله وقد ظهرت شارته فنتقصه من عطائه الذي كان يجري عليه ، ثم سأل عنه فقبل له قد شح لون ، وتغيرت ثيابه ، وساءت حاله ، فقال : يرحم الله أبا عبيدة ما أعف وأصبر . فرد عليه ما كان جيس عنه وأجراه عليه . ودخل عمر منزل أبي عبيدة فلم ير إلا ليلاً وصحفة وسناً ، وسأله طعاماً فأخرج له من جونه^(٢) كسيرات فبكي عمر وقال : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة ، وأرسل اليه أربعين ديناراً ، وسأل من أرسله أن يقف على ما يفعل بها فوزعها أبو عبيدة كلها . وأرسل مثلها إلى معاذ ابن جبل فوزعها إلا أشياء قليلة سأله امرأته إياها لحاجتها . فقال عمر لما أخبر بذلك الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا .

وكان معظم عمال عمر على غرار أبي عبيدة ومعاذ من التقشف والتباعد باليسير ، وكان إذا لم تقنع نفسه بحسن سيرهم على الصورة التي لا يرى غيرها لا يتلصكاً عن عزلم . فقد شكوا أهل حمص عاملهم سعيد بن عامر وسألوه عزله لأنه لا يخرج للناس حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً ليل ، وله في الشهر يوم لا يخرج فيه ، فلما أيقن عمر أن عامله يمتنع كل يوم خبره ويجلس حتى يختمر فيخبره ، ثم يخرج للناس ، وأنه يحمل الليل كله للمباداة ، وأنه يشتغل مرة في الشهر بصل ثيابه ، صت إليه عمر ألف دينار يستعين بها فوزعها على جيش من جيوش المسلمين .

وقدم سعيد بن عامر على عمر بالمدينة فلم ير معه إلا عكازاً وقد حاق قال له عمر : ليس معك إلا ما أرى ، فقال له سعيد : ما أكثر من هذا ، عكاز أحمل عليه زادي وقدح آكل فيه . وكان من عماله عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ ^(١) وفيه يقول عمر : وددت لو أن لي رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين . وعمير هذا هو الذي قال على منبر حمص : « لا يزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل وهذا من أبعاد مراعى الإدارة العادلة إذا أحس أهل عمل من عاملهم العدل لا يحتاج في سياستهم إلى شيء من الشدة . كتب عمر إلى عمير أيام كان عامله على حمص أقبل بما جبيت من فيء المسلمين . فسأله عمر عما عمله قال : بشتى حتى أتيت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوالتهم جباية فيهم ، حتى إذا جمعو وضعته مواضعه ، ولو نالك منه شيء . لأتيتك به . قال فما جئتني بشيء . قال : لا . قال جددوا لصير عهداً . فقال عمير : لا عملت ولا لأحد بمدك ، والله ما سلمت بل لم أسلم . لقد قلت لنصراني أي أخراك الله . فهذا ما عرضتني له يا عمر ، وإن أشقى أيامي يوم خلقت معك يا عمر . وكان إذا استعمل عاملاً كتب عهده ^(٢) : « وقد

(١) طبقت ابن سعد (٢) أسد الغابة لابن الأثير

بنت فلانا وأمرته بكذا » فلما استعمل حذيفة بن اليمان على اللدائن كتب في عهده أن اسمعوا له وأطيعوه وأعطوه ما سألكم . فلما قدم اللدائن استقبله الدهاقين ، فلما قرأ عهده قالوا : سلنا ما شئت . قال أسألك طعاما آكله وعلف حمارى ما دمت فيكم . فأقام فيهم ، ثم كتب اليه ليقدم عليه . فلما بلغ عمر قدومه كن له في الطريق فلما رآه عمر على الحال التى خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخى وأنا أخوك .

فصر إذا لم يختار للأعمال إلا أفاضل الرجال عمت كانوا على سمتهم وزهده . وكان كثيرا ما يستعمل قوما ويدع أفضل منهم لبصرهم بالعمل ويقول : أكره أن أدنس هؤلاء بالعمل . وكان يشاور ^(١) فى كثير من الوقائع حتى قال يوما لأصحابه أشيروا علىّ ودلوني على رجل أستعمله فى أمر قد دهمنى فقولوا ما عندكم ، فإني أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثى فنشير على أمير المؤمنين به ، فأحضره وولاه : فوفق فى عمله ، وقام فيه بما أُرِى على رجاء عمر فيه وزاد على عمله ، فشكر عمر من أشاروا عليه بولاية الربيع .

كتب إلى عامله على البحرين العلاء بن الحضرمى أن سير إلى عتبة بن غزوان فقد وليتك عمله ، واعلم أنك تقدّم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وإني لم أعزله ألا يكون غنياً صليهاً شديد البأس ، ولكن ظننت أنك أغنى عن السليدين فى تلك الناحية فاعرف له حقه . ولما سير عمر عتبة ابن غزوان إلى البصرة ليقاتل من بالأبله من فارس قال له : انطلق أنت ومن معك حتى تأتوا أقصى مملكة العرب وأدنى مملكة العجم ، وأمره أن يشاور عرجة بن هرثة لأنه ذو مجاهدة للعدو وذو مكابدة . وعزل عن بعض ولاية الشام نرحيل

ابن حَسَنَة واستعمل بدلا منه معاوية بن أبي سفيان واعتذر على رؤوس الإِشهاد أنه لم يمزله عن شيء هَجَنَهُ به بل أراد رجلا أقوى من رجل . وبعت المغيرة بن سبعة عاملا على الكوفة لأنه قوى مشدد ، وكان عمر سألَه عن الضعيف والقوى فقال : أما الضعيف للمسلم فضعفه عليك وعلى للمسلمين وفضله له ، وأما القوى للشدد فقوته لك والمسلمين وشداده عليه . وعزل عامله على ميسان النعمان بن عدى لأنه بلغه أنه قال أبياتا في التشبيب تشير إلى أنه يتماطى الراح ، مع أنه عارف بأن ذلك لم يكن وإنما هو قول شاعر . وعزل زياد بن أبي سفيان فقال زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين أم عن خيانة ؟ فقال : لا عت ذاك ولا عن هذا ، ولكني كرهت أن أحمل على العمامة فضل عقلك . وكتب إلى سعد بن أبي وقاص أن شاور طلحة الأسدي وعمر بن معدى كرب في أمر حربك ، ولا تولها من الأمر شيئا ، فإن كل صانع هو أعلم بصنعتة . وكتب إلى النعمان ^(١) بن مقرن أن قبلك رجلين هما فارسا العرب عمرو بن معدى كرب وطلحة بن خويلد فساورهما في الحرب ولا تولهما شيئا من الأمر . وبعت مع أبي عبيد بن مسعود سليط بن قيس لفتح العراق وقال له : لولا عجلة فيك لوليتك ولكن الحرب زبون لا يصلح لها إلا الرجل للكيث .

وسأل عمر عمرو بن معدى كرب عن خبر سعد بن أبي وقاص نفسه فقال : متواضع في حباه ، عري في نمرته ، أسد في تأموره ^(٢) ، يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويعطف علينا عطف الأم البرة ، وينقل البنا حقنا نقل النذرة . ولما شكوا أهل الكوفة سعدا عزله عمر ولم تأخذه به هواة ، لأن الغاية اغناذ العمل النافع للناس على يد أى كان من عماله ، وأن لا يفتح للمسلمين بابا للشكوى . وخير ضرور السياسة أن يكون عمل العاملين فيها أكثر من قول

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢) التأمود عرب الأسد والفرجة الحيرة والجلب جلة عامة بالعرب

القائلين . وسعد هذا هو الذي كان أجمع الصحابة على توسيد حرب العراق اليه فأوصاه عمر بقوله يا سعد سعد بنى وهيب لا يفرنك من الله أن قبل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السىء بالسىء ولكنه يمحو السىء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفيهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت النبي منذ بعث إلى أن فارقتا فالزمه فإنه الأمر . هذه عظمى اليك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين . وذهب سعد بهذه النصيحة فكان على يده فتح العراق .

كان عمر على شدة فيه مع عماله إذا أحسّ باعتداده أو شبه اعتداده وقع على أحدهم يشتد على المعتدين في تلك الناحية ليبقى للعامل هبة توقره في الصدور ؛ ومهابة يلجم بها العامة والخاصة . وقع له مرة أن حصب^(١) أهل العراق إمامهم ، وقد كان عوّضهم إماماً مكان إمام كان قبله فحصبوه ، فغضب وقال لأهل الشام : تجهزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفوّخ ، ودعا عليهم . ذلك لأن شكوى العراقيين عاملهم كانت باطلة ، وهو الذي يتجرى في انتقاء عماله ولا يستسلم لأحد منهم ، بل يحمل بعضهم رقبيا على بعض ، وله عليهم سلطان دونه كل سلطان . شكّا عتبة بن غزوان^(٢) تسلط سعد بن أبي وقاص عليه فسكت عنه عمر ، فأعاد عتبة ذلك مراراً ، فلما أكره على عمر قال : وما عليك يا عتبة أن تقر بالإمرة لرجل من قرش له حجة مع رسول الله وشرف . فقال له عتبة : ألت من قرش والرسول يقول حليف القوم منهم ، ولى حجة مع رسول الله قديعة لا تنكر ولا تدفع . فقال عمر : لا ينكر ذلك من فضلك . قال عتبة : أما إذا صار الأمر إلى هذا فوالله لا أرجع اليها أبداً . فأبى عمر إلا أن يردّه فردّه فات بالطريق . وهذا من تأثير عمر في

(١) حبه وجهه بالحصل . ويستعمل في كل دى مطلقاً (٢) طبقات ابن سعد

عماله ومعاملته لم كما تريد المصلحة لا كما يريدون. مثال آخر يخالف هذا — والإدانة تختلف باختلاف الأزمان والبلدان — خالف معاوية وهو أمير الشام عبادة بن الصامت في شيء أنكره عبادة فأغلظ له معاوية في القول. فقال عبادة لا أسألك بأرض واحدة أبداً ورحل إلى المدينة. فقال عمر: ما أقدمك. فأخبره. فقال: ارجع إلى مكانك يفتح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك. وكتب إلى معاوية لا إمرة لك عليه، ذلك أن عمر لم يكن يستغنى عن خدمة معاوية ولا عن فضل عبادة. كان عمر وهو خليفة لا يميز نفسه عن جمهور الناس بشيء في لباسه ومركبه وحركته، يختلط بالشعب كأنه واحد منهم، ومع هذا كان الناس يخافونه، ولو وقع مثل هذا التواضع أو التبذل من أحد أفراد التمس لجسروا عليه وضعف سلطانه عليهم إن كان من أرباب السلطان. ولقد كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر في أن يلين لهم فإنه قد أخافهم حتى إنه أخاف الأبقار في خدورهم. فقال عمر: إني لا أجد لهم إلا ذلك إنهم لو يعلمون ما لهم عندى لأخذوا ثوبي عن عاتقي. وقال عمر: قد أنالنا وإيل علينا أي ولينا وولى علينا. مضاه قد ولينا فلعنا ما يصلح الوالى، وولى علينا فعنا ما يصلح الرعية.

وما أرانا نبعد عن الصواب إذا حكمتنا أن شطراً عظيماً من وقت عمر في ولايته كان يصرفه في سياسة المال وكشف حالم وانتقاء أصلحهم وتسليكهم في الإدارة والسياسة والقضاء على أسلوب محكم لا تكاد تلحق به في هذا القرن أعرق العول الحديثة في المدينة وأفضلها بنظمها الإدارية والدستورية. ولعل في الناس من يقول إذا عرضنا هنا لمصادرات عمر، وهذا أيضاً من باب الشدة المتناهية والحجر على حرية المال، وادخال الخوف عليهم بالضرب على أيديهم على صورة تحرمهم تمتع الحياة، ولا توليهم منه غير الجفاء والخشونة في المعاملة. نعم هكذا كان عمر، وهكذا وضع أساس للآل الإسلامية؛ هو لا يجوز إغناء أفراد بإفقار أمة، ولا أسعاد فئة

باشقاء مجموع . كان ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الامراء^(١) ، فكان الوالى فى نظره فرداً من الأفراد ، يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس ، فكان حب للساواة لا يبدله شىء فى أخلاقه . اذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكوم منه يُسوَّى بينهم فى الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قتل العامل اقتص منه ان كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله . ومن عادة عمر أن يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذهم منهم . مرة بيناه بينى^(٢) بحجارة وجص فقال : لمن هذا ؟ فذكروا عاملاً له على البحرين فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ! وشاطره ماله . وكان يقول : لى على كل خائن أمينان للماء والطين .

ولقد صادر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص ، لانه فشت له فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوانات لم تكن له حين ولى مصر ، فادعى عمرو أن أرض مصر أرض مزدرة ومتجر وأنها أثمان خيل تنائج وسهام اجتمعت وأنه يصيب فضلاً عما يحتاج اليه لنفقته ومع ذلك قاسمه عمر ماله . وصادر أبا هريرة عامله على البحرين لأنه اجتمعت له عشرة آلاف وقيل عشرون ألفاً وادعى أن خيله تناسلت وسهامه تلاحقت وأنه أنجر فقال له عمر : أنظر رأس مالك ورزقك فخذ ، وأجعل الآخر فى بيت المال . يريد بذلك أن يحصر العامل وكده فى خدمة أهل عمله ، أما الاتجار وتشمير الأموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة ، فإن لهؤلاء ما يتقبلون به من رزق . وكان يرى فى مصادرة العمال وقهرهم ترويضاً لهم على الطاعة وترك التبجح والإدلال على الرعية . ومن شاطرهم أيضاً النعمان بن عدى عامله على ميسان ، ونافع بن عمرو الخزاعى عامله على مكة ، ويعلى بن منية عامله على اليمن ، وسعد بن أبى وقاص عامله على الكوفة ، وخالد بن الوليد عامله فى

(١) تاريخ الأمم الاسلامية لعبد المحضرى (٢) عيون الاغبر لابن قتيبة

الشام ، وأخذ خالد بن الوليد لأنه أمره أن يحبس المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه
ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فأجاز الأشعث لشعره فغضب عمر ، وكان أحد
الشعراء كتب إليه يقول :

نحج إذا حجوا ونفزو إذا غزوا فأنى لم وفر ولسنا بذى وفر
إذا التاجر الهندى جاء بفأرة من المك راحت فى مفارقهم تجرى
فدونك مال الله حيث وجدته سيرضون ان شاطرهم منك بالشطر
فشاطرهم عمر أموالهم وتولى ذلك منهم محمد بن مسلمة لثقتة به^(١) ولم ينتطح فى
عمله عنزان . شاطر عمر سعداً وعمراً وخالداً وهم ممن يفتخر بهم الإسلام ، استكثر
عليهم أن ينعموا وإن كان الأول فاتح العراق والثانى فاتح مصر والثالث فاتح الشام .
وقيل لعمر إن عياض بن غنم ، وهو من كبار الفاسقين ورجال الإدارة فى
حكومته ، يتوسع كثيراً فى إعطاء المال بحيث لا يقل فى هذا المي عن خالد بن
الوليد فقال : إن ذلك من شأن أبى عبيدة ، وعياض من أقرباء أبى عبيدة . وعياض
ابن غنم هذا جلد صاحب دارا حين فتحت فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى
غضب عياض ، ثم مكث ليالى فأتاه هشام فاعتذر إليه ، ثم قال هشام لعياض : ألم
تسمع رسول الله يقول إن من أشد الناس عذاباً أشدهم للناس عذاباً فى الدنيا .
فقال عياض : قد سمعنا ما سمعت ورأينا ما رأيت ، أو لم تسمع رسول الله يقول
من أراد أن ينصح لذى سلطان عامة فلا يُبد له علانية ولكن ليخل به فإن
قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذى عليه . وإنك يا هشام لانت الجرى و إذ
تجرى على سلطان الله فهلا خشيت أن يقتلك السلطان فتكون قتيل سلطان الله .
كان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بالمال^(٢) بعد حبس ما كان يحتاج إليه ،
ولسالى يجيى من أموال الجزية وما يؤخذ من الخراج ، وكانت النصارى واليهود

أقروا على ما في أيديهم من الأرض بعمرونها ويؤدون خراجها ، ووضع في مصر عمر على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً ، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أراذب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم . وأحصى عمرو بن العاص للمسلمين فالزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرناً أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام أو بدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً . واستبطأ عمر في بعض السنين خراج مصر فكتب إلى عمرو : أما بعد فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجداً وقوة في بر وبحر وأنها قد عالجهما القراعة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوم وكفرهم ، فمجتبت من ذلك وأعجب مما عجتب أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذوب إلى آخر ما قال له ، وهز أعصابه بكلمات قاسية فأجابه عمرو : لقد عملت لرسول الله ولبن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً ، والعمل به سيئاً وقال : فامض في عملك فإن الله قد زهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها . فكتب إليه إني لم أقدمك إلى مصر لأجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو في المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون . فأجابه عمرو : إن أهل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غلثهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق خيراً من أن نغرق^(١) بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه .

ومع هذه الميمنة من عمر على عماله نراه يشهد لعمرو بن العاص بحسن السياسة دليلاً على تقديره عامله قدره . وكان من رأى عمرو بن العاص في سياسة مصر أن

(١) خرق بالشوكة ككرم إذا جهه ولم يحسن عمله

الذى يصلح هذه البلاد وينميتها ، ويقر قاطنيتها فيها ، ألا يقبل قول خبيسها في رئيسها ، ولا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها . وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترتيبها . وكان عمر يقول إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وعمرو بن العاص المثل السائر في حسن السياسة بين رجال العرب ، دهش قبط مصر بحيل عمله ، فدخلوا في الاسلام كثيراً . وأدى به التسامح ان رفع رجل نصراني اليه أن غُرُفَة بن الحارث الكندي من أصحاب الرسول الذين سكنوا مصر ضربه فوق أغصان فقال عمرو للصحابي : إنا قد أعطيناك المهد ، كأنه يريد أن يؤاخذ الصحابي بما فعل ، فقال غُرُفَة : معاذ الله أن نمطبهم المهد على أن يظهرنا شتم النبي وإنما أعطيناك المهد على أن نخلي بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم ، وأن لا نحملهم ما لا يطيقون ، وإن أرادهم عدو بسوء قاتلنا دونهم ، وعلى أف نخلي بينهم وبين أحكامهم الا أن يأتونا راضين بأحكامنا فتحكم بينهم وإن غيبوا عنا لم نتعرض لهم . فقال عمرو : صدقت . خطب يوماً في الجابية من حوران فما قاله : ألا وإني ما وجدت صلاح ما ولا نبي الله إلا بثلاث : أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ، ألا وإني ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذ من حق ويعطى في حق ويمنع من باطل . كتب معاوية الى عمر يصف له سوء حال الشام فكتب اليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على منازيلها واتخاذ اللواقيد^(١) لها . جاء عمر الشام مرات أرباعاً يكشف حال عاملها ويعني بقسمة الأرزاق ويسمى الشوائب والصوائف أى غزوات الشتاء والصيف ، ويسد الفروج والسالم^(٢) في كل

(١) المناظر قباب مبنية على رؤوس الجبال العالية بين كل بلد وآخر بحيث يتقارب بعضها ويشرف بعضها على بعض ويقام فيها حراس يوقدون النيران عند ما يرون اقبال العدو من جهتهم فيوقد حراس المناظر الذين يرونهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أو الثغر أو المسلحة في زمن قليل . ويقال لهذه المواقيد المناور أيضاً (التعريف بالمصطلح الشريف) (٢) المسلحة: الثغر والراقب وجمعه مسلح وهي مواضع الخفاة وسماها مسلحة لأنهم يكونون ذوي سلاح أو لأنهم يكتنون المسلحة وهي كالثغر والمراقب يكون فيه أقوام يرقبون العدو ولا يطرقيهم على غرة فاذا رأوهم أعطوا أصحابهم ليأمنوا له . والفروج الثغور أى موضع الخفاة

كورة ويستعمل أناساً على السواحل من كل كورة أو يقسم الموارث بعد طاعون
عمواس ، وكان هلاك فيه من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً . وقيل إن عماله استقبلوه
مرة بأبهة فنزل وأخذ بالحجارة ورمم بها وقال : ما أسرع ما رجعت عن رأيكم إلي
تستقبلون في هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين والله لو فعلتم هذا على رأس المائتين
لاستبدلت بكم غيركم . واعتذر له معاوية عامله في الشام عن اللوكب الثقيل الذي
كان له قائلاً : إنا في بلاد لا تمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم
من هبة السلطان فإن أمرتني بذلك قتت عليه ، وإن نهيتني عنه انتهيت . فلم
يأمره به ولم ينه عنه . فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر : لَحَنَ ما صدر من هذا
الفق عما أوردته فيه فقال : لحسن مصادره وموارده جسمناه ما جسمناه . وقيل إنه
قدم معاوية على عمر من الشام ^(١) وهو أبيض ^(٢) الناس فضرب عمر يده على
عضده فأقلع عن مثل الشراب أو مثل الشراك فقال : هذا والله لتشاغلك بالحمائم
وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حشرات على بابك . وقال عمر : ائن عشت إن شاء
الله لأسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني ، أما هم فلا
يصلون إلي ، وأما عيالهم فلا يرفعونها إلي ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم
أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى
الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .

وخصلة أخرى أيضاً لعمر ، تعد من بدائع إدارته الحسنة ، وهو أنه ما كانت
تقوته مسألة فيها تقوية قلوب الأمة والاعتماد على نفسها خطب مرة فقال : (أعطوا
الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلي فإنه ليس بيني وبين
أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلي صلاحكم ، عزيز على عتبيكم ، وأتم أناس
علمتكم حضر في بلاد ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جا . الله به إليه)

(١) الكامل للبزد (٢) يقال أبيض بض شديد البياض أو رقيق البشرة الذي يؤثر فيه كل شيء.

يريد أن يعلم الناس أن لا يكثرُوا من الرجوع الى الحاكم للفصل بينهم في خصوماتهم ،
ليصرف وقته في التفكير في أمورهم الخطيرة ، وأن يستدوا على أنفسهم لا على
صاحب السلطان ، وأن يرفعهم حالة الحاضر والبادي منهم ، ويعلمهم أن يعملوا ولا
يسرفوا لأنهم فقراء . ولطالما قال لقومه أصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ولقليل في
رفق خير من كثير في عنف . يريد أن يسوق الناس الى اللدنية بتؤدة على صورة
فيها تدريج . وكان يقول من كان له مال فليصلحه ، ومن كانت له أرض فليعمرها
وإنه يوشك أن يحيى من لا يعطى إلا من أحب . ونظر إلى رجل مظهر للنسك
متأوت فحققه بالدرة وقال له : لا تُمِت علينا ديننا أمانك الله . وكان يقول ليس قوم
أكبس من أولاد السراري لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء المعجم .

وكان غرام عمر أبدأ أن يلتقن قومه العمل ويبعد بهم عن حياة الكسل ،
ولطالما قال لكتابه وعمله إن القوة على العمل أن لا تؤخروا عمل اليوم لند فإكم
إذا فعلتم ذلك تذاءبت ^(١) عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبدأوت ولا بأيها
تأخذون . وما كان يرى إبعاد العامة عن المجالس العالية لئلا تفوتهم الفوائد وليتربوا
على أيديهم بما يسمعون وينقلون عنهم . ويوزع الأعمال بين الكفاة وأرباب
التخصص ويقول : أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب ،
ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن
البقية فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فان الله جعلني
له خازناً وقاسماً .

وكتب عمر الناس على قبائلهم أي أحصاء ، ففرض الفروض وأعطى العطايا
على السابقة ، بدأ بالأقرب فالأقرب من الرسول وفرض لأهل بدر ولبن بدم إلى
الحديبية وبيعة رضوان ثم لمن بدم ولأهل القادسية واليرموك وأعطى نساء النبي

وغيرهم ورزق الصبيان والأعمى والمؤذنين وللمعلمين والقضاة والشعراء . وحلف على أيمان ثلاث فقال : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا أحق به من أحد والله ما من للمسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه في الاسلام ، والرجل وقدمه في الاسلام ، والرجل وغناؤه في الاسلام ، والرجل وحاجته ، والله لأن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو برعى مكانه .

جمع عمر للمسلمين لأول عهده وقال ما يحل للوالى من هذا المال فقالوا جميعاً أما لخاصته فقوته وقوت عياله ، لا وكس ولا شطط ، وكسوتهم وكسوته لشتاء والصيف ، ودائبان إلى جهاده وحوائجه وصلاته وحجه وعمرته ، والقسم بالسوية وأن يُعطى أهل البلاء على قدر بلائهم ويرم أمور الناس بعد ، ويتماهدم عند الشدائد والنوازل ، حتى تكشف ويبدأ بأهل النية . وكان عمر إذا احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه فربما عسر فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر ، وربما خرج عطاؤه فقضاه . وطلب من أحد أصحابه أن يقرضه مالا فقال له ما يمنعك أن تقترض من بيت المال فأجابته إنه إذا مات وهو له مدين ربما غفلوا عن تقاضى ما اقترض ، أما صاحبه فانه لحرصه على ماله يطالب الورثة بماله فيستوفيه وتبرأ ذمة عمر .

وبما تعلقف به همة عمر إحداث أوضاع جديدة اقتضتها حالة التوسع في الفتوح فهو أول من حل الدرة ^(١) وهو أول من دون الدواوين على مثال دواوين الفرس والروم ، دونها له عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نهباء قريش لهم علم بالأنساب وأيام الناس . والدواوين الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب

(١) الدرة كالخضرة أو خمرزاة صغيرة يضرب بها

يُكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وعرفوا الديوان بأنه موضع لحفظ ماتلق بمحموق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال ، وأطلق بعد حين على جميع سجلات الحكومة وعلى للكان الذي يجلس فيه القائمون على هذه السجلات والأضابير والطوامير . وثبت أنه كانت له سجن^(١) وأنه سجن الخطيئة على الهجو وسجن ضبيعاً على سؤاله عن الذاريات والرسلات والنازعات وشبههن . وضر به مرة بعد مرة ونفاه إلى العراق ، وكتب أن لا يحاله أحد فلو كانوا مائة تفرقوا عنه حتى كتب اليه عامله أن حسنت توبته ، فأمره عمر فخلّى بينه وبين الناس . وكانت أعمال عمر جداً كلها لا يجوز لأحد أن يجلس في المسجد في غير أوقات الصلاة ، وبني في المسجد رحبة تسمى البطيحا ، قال من كان يريد أن يلفظ أو ينشد شراً أو يرفع صوته فليخرج إلى الرحبة . وما كان للمسجد في أيامه لغير الصلاة والقضاء . وكان الخلفاء الراشدون يجلسون في المسجد لقضاء الخصومات . ولما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادي وكثر الولدان أمر عمر ببناء بيوت للمكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم^(٢)

وضع عمر أول ديوان في الاسلام للخراج والاموال بدمشق والبصرة والكوفة على النحو الذي كان عليه قبل . وقيل إن أول ديوان وضع في الاسلام هو ديوان الانشاء^(٣) ودواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ودواوين مصر بالقبطية ، يتولاها النصارى والمجوس دون المسلمين . والسبب في تدوين الدواوين أن عامل عمر على البحرين أتاه يوماً بمخمسة ألف درهم فاستعظمها وجعل عليها حراساً في المسجد فأشار عليه بعض من عرفوا فارس والشام أن يدون الدواوين يكتبون فيها « الأسماء ومالو واحد واحد وجعل الأرزاق مشاهرة » وجعل عمر

(١) تاريخ الجيوفي (٢) التراتيب الادارية لعبد الحى الكتاني (٣) نهاية الارب للنوري وصحح الاعشى للنفقشدي

تابوتا أى صندوقاً لجمع صكوكه ومعاهداته . وجند الأجناد أى ألف الفيلق ، فصر
فلسطين جنداً والجزيرة جنداً ، والموصل جنداً وقنسرين ^(١) جنداً ، وأصبح كل
جند فى الشام والعراق يتألف من مقاتلة المسلمين ، يقبضون أعطياتهم من البلد الذى
نزله ، فأصبحت الجندية خاصة بفئة من المسلمين ، ويسير الناس بعضهم وقضيضهم
إلى الزحف عند الحاجة حتى النساء والأولاد . وما كان الجند يحملون كلهم فى المسالـ
ح بل يترك بعضهم فى البلاد يكونون على استعداد للوثبة عند أول إشارة ، والغالب
أنه كان يؤترك فضل فى بيوت الأموال خارج الحجاز يستخدم فى طارىء إذا طرأ .
وما كانت الصوافى تحمل كلها إلى الحجاز ، بل يدخر بعضها فى بيوت الأموال فى
الشام والعراق ومصر ، وجزء عظيم من دخل الدولة يصرف فى الوجوه التى أشرنا إليها .
وعمر هو أول من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من استقضى القضاء ، وأول
من أحدث التاريخ المجرى فأرخ سنة ست عشرة بهجرة رسول الله من مكة الى
المدينة ، فكان أول من أرخ الكتب وختم على الطين . قال يعقوبى وأمر زيد بن
ثابت أن يكتب الناس على منازلهم وأمره أن يكتب لهم صكاً كما من قرطيسه ثم
يختم أسافلها ، فكان أول من صك وختم أسفل الصكاك . ^(٢) وغير أسماء المسلمين
بأسماء الأنبياء . ^(٣) وكان أول من مصر الأمصار ، مصر المصريين البصرة والكوفة ،
وكان إذا جاءته الاقضية للمضلة ^(٤) قال لعبد الله بن العباس : انها قد طرت علينا
أقضية وعضل فانت لها ولأمثالها ، ثم أخذ بقوله . وما كان يدعو لذلك احداً سواه ،
وكان فى المسائل العامة يسأل الناس فى المسجد عن آرائهم ثم يعرض رأيه ورأيهم
على مجلس شورا وهم من كبار الصحابة ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه ، فكانت
أعماله ثمرة ناضجة من الآراء الصائبة ، ولذلك ندرت هفواته فى الادارة بالقياس الى

(١) اقضية رسول الله القرطبي (٢) المعارف لابن قتيبة (٣) كانت العرب تنسب الى قبائلها فلبان
الاسلام وغلب عليهم سكنى القرى والمدن حدث فيما بينهم الانتساب الى الاوطان كما كانت العجم . وأوضاع
كثير منهم أنسابهم فلم يبق لهم غير الانتساب الى اوطانهم «ابن الصلاح» (٤) أسد السادة لابن الاثير .

غيره ، لأنه يتروى ويعمل بأراء أهل الرأي . ولما أرسل عبد الله بن مسعود الى العراق وزيراً ومعلماً مع عمار بن ياسر الذي ولاه الامارة كتب الى أهل العراق « وقد جعلت على بيت مالكم عبد الله بن مسعود وأترككم به على نفسي » وقد بيعت إلى بعض الأقطار عاملاً على الصلاة والحرب ويسميه أميراً^(١) وعاملاً على القضاء وبيت المال ويسميه معلماً ووزيراً كما فعل في العراق ، أو يجمع للعامل بين الصلاة والخراج كما فعل مصر . وتقسيم المالات في الشام يختلف عن اليمن ؛ وعامل البحرين لا يكون كامل اليمامة وقد بيعت أناساً لمساحة الأرض ، وأناساً لتقدير الخراج ، وآخرين لاحصاء الناس ، وقال لعاملين له توليا مساحة العراق ووضع الخراج على سوادها : أخاف أن تكونا حملتا الأرض ما لا تطيقه ، لئن سلمني الله لأدعن أراذل العراق لا يحتجن الى رجل بدي أبداً . وقال : اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار فاني اتما بشتهم ليعطوا الناس دينهم وسنة نبيهم وسدلو عليهم وقسموا فيهم بينهم ويرفعوا الى ما أشكل عليهم من أمورهم .

وكان يرزق العامل بحسب حاجته وبلده ، ولما استعمل يزيد بن ثابت على القضاء فرض له رزقا ، وكان يرزق عامله على حمص عياض بن غنم كل يوم ديناراً وشاة ومداً . وبعث الى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حنيف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال . وأمر هذا أن يعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين ، وفرض لهم شاة كل يوم ، وجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر ، والشط الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف . كان أبو بكر يساوي^(٢) الناس في العطاء ولا يفضل أهل السابقة ويقول إنما عملوا لله فأجورهم على الله ، وإنما هذا للال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمناً لأعمالهم . وكان

(١) كان المنيرة بن شبة أول من سلم عليه بالامرة وكانوا يكتون أمراءهم فقال : ينبغي أن يكون بين الأمير والرعية فرق ، وأزعم أهل عمله أن يؤمروه ففعلوا واتخذى به سائر المسلمين في أمراءهم ولطائف المعارف للصابي ، (٢) سراج الملوك للطبري

عمر يقول لأجل من قاتل رسول الله كُن قاتل معه . ولم يقدر عمر الأرزاق إلا في ولاية عمار فأجرى عليه ستمائة درهم مع عطائه لولائه وكتابه ومؤذنيه ومن كان على معه في كل شهر . وكان عطاء عثمان بن حنيف خمسة آلاف درهم وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم ، وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة أجرة ، وإنما فضل عماراً لأنه كان على الصلاة . قال الحسن وكان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان على زهاء ثمانين ألفاً من الناس . وأناه^(١) عبد الله بن عمر السعدي فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلي من أعمال المسلمين أعمالاً فإذا أعطيت العمالة كرهتها فقال : بلى . فقال عمر : ما تريد إلى ذلك . قال : إن لي أفراساً وأعبداً وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين . فقال عمر : لا تفعل فإني كنت أردت الذي أردت ، وكان رسول الله يعطيني المطاء فأقول : أعطه أقر إليه مني . فقال النبي : خذه فتمتله وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف فخذ ، ومالاً فلا تتبعه نفسك .

كان عمر يأمر الناس بالتفقه في الدين ويُعِدُّ في إرسال الفقهاء إلى الأمصار يفقهون المؤمنين ويعلمونهم دينهم وقد لا يرسلهم إلا بعد أخذ رأيهم ولما أراد أن يرسل سعد بن عبيد ، وكان لا يُسمَّى القاري من الصحابة غيره قال له : هل لك في الشام فإن المسلمين نَزُّوا وإن السدود قد ذُتُّوا^(٢) عليهم ، وذلك بعد طاعون عمواس . وكان يقول حين خرج معاذ^(٣) بن جبل إلى الشام : لقد أخلَّ خروجه بالمدينة وأهلها بالفتنة ، ولقد كنت كملت أبا بكر رحمة الله أن يحل به لحاجة الناس إليه فأبى عليّ وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أجلبه .

وفي كتب عمر إلى قضاته وعماله كآبي موسى الأشعري والقاضي شريح وأبي عبيدة

(١) تيسير الوصول لابن الدبيع (٢) نَزُّوا فتوا ودأر عليه اجتراً (٣) طبقات ابن سعد

ومعاوية وغيرهم قوانين في التشريع والإدارة سنها للمسلمين لا تزال إلى يوم الناس هذا هي للقول عليها، ورسائله في القضاء إلى أبي موسى الأشعري جمع فيها «جل»^(١) الأحكام، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً، ولا يجد بحق عنها معدلاً، ولا ظالم عن حدودها محيصاً «ولقد قالوا: «إذا»^(٢) اختلف الناس في أمر فانظر كيف قضى عمر، فإنه لم يكن يقضى في أمر لم يقض فيه قبله حتى يشاور» وكان أبداً يأخذ آراء أصحابه لا يقطع أمراً عظيماً من دون استشارتهم ويقول: الرأي الفرد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين للبرمين، والثلاثة مزار لا يكاد ينتقض. هذا ولو وضع علم عمر في كفة كما قال ابن مسعود، ووضع علم أحياء العرب في كفة لرجح بهم علم عمر. وأشد عمر ذات يوم شعر زهير بن أبي سلمى فلما بلغ قوله:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو «فأر أو جلاء»

جعل يتمجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ويقول: لا يخرج الحق من إحدى ثلاث، إما يمين أو محاكمة أو حجة

وكانت المدينة في أيامه أشبه بمدرسة يتخرج به فيها القضاة والعامل والقواد والأمراء. فلا يبعث إلى الأمصار إلا من اختبره في الجملة، وقلما أخطأت فراسته في الناس، وهو للثل الأمثل في جده. كان كعب بن سور جالساً عند عمر فجاءته امرأة تشتكي زوجها فقال لكعب: اقض بينهما، فلما قضى بما أعجبه وما لم يخطر له ببال قال لكعب: اذهب قاضياً على البصرة. ساوم عمر بفارس فركبه ليشوره^(٣) فمطب فقال للرجل: خذ فرسك. فقال الرجل: لا. قال: اجعل بيني وبينك حاكماً. قال الرجل: شريح.

(١) الكامل للبدر (٢) طبقات ابن سعد (٣) التفار تافر إلى رجل يقين حجج الخصوم ويحكم بينهم والجلاء أن يتكشف الأمر ويبدل فتعلم حقيقة يقضى به لصاحبه دون خصام ولا يمين (٤) من شارب لثابة شوراً وشوراً راضها وقيل ركبها عند المرض على مقترها وقيل اخترها ينظر ما عندها

فتحاكا إليه فقال شرح : يا أمير المؤمنين خُذْ ما ابتمت ، أو رُدِّ كما أخذت . فقال عمر : وهل القضاء إلا هكذا ، سر الى الكوفة فبعه قاضياً عليها . قالوا وإنه لأول يوم عرفه فيه . وبقى شرح قاضياً هناك ستين سنة .

ومن الفقهاء في أيامه أبو موسى الأشعري ، وسلمان بن ربيعة الباهلي ، وأبو قرة الكندي ، وأبو الرداء ، وأبو سعيد الخُدري ، وعبد الله بن عباس . ومن عماله نافع بن عبد الحارث الخزاعي ، وسفيان بن عبد الله الثقفي ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، وعباد بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وقتادة بن النعمان ، وعُمَيْر بن عوف ، وعُمَيْر بن وهب بن خلف الجُمحي ، وعتبة بن مسعود ، وعدى بن أبي الزغباء ، الجُنَني ، وعويم بن ساعدة ، وسهيل بن رافع ، ومسعود بن أوس بن زيد الأنصاري ، وواقد بن عبد الله التميمي ، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم . من كل من هو فرد في علمه ، متميز بحسن سياسته وإدارته . كتب إلى أبي " موسى الأشعري : إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائج الناس فأكرم وجوه الناس ، فيحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم والقسمة . يعني أن عمر أوصى بالأعيان ، وإن كان يكره الشفاعة والوساطة . فقد توسط مولى عمر بأن يكتب كتاباً إلى عامله في العراق ليكرم أحد من قصدوا إليها فأنهروه عمر وسبه وقال : أريد أن يظلم الناس وهل هو إلا رجل من المسلمين يسه ما يسهم ؟

كان ابن الخطاب يفتحص أموراً لا تخطر ببال أحد . كتب إلى أبي موسى الأشعري « إني قد بشت اليك مع غاضرة بن سمرّة الصنبري بصحف فإذا أتاك لكذا وكذا فأعطه مائتي درهم وإن جاءك بعد ذلك فلا تعطه شيئاً واكتب إلى في أي يوم قسم عليك » يريد بذلك أن يعلم من يستعملهم الجهد والاهتمام

والحرص على الأوقات وضبط للواعيد ، هو يعطى من أرسله بالصحف مائتى درهم إذا جد فوصل البلد الذى عين له فى الأجل للضروب وإلا فيحرم أجرته . وكتب إلى ابى موسى الأشعرى أيضاً^(١) إذا أتاك كتابى هذا فاضرب كتابك سوطاً واعزله عن عمله . وذلك ان كاتب أبى موسى كتب إلى عمر (من ابو موسى) وكان عليه أن يقول (من أبى موسى) . ودبر عام الرمادة (١٧ — ١٨) تديراً إدارياً ناجماً عند ما رأى الناس يهلكون من المجاعة ، فكتب إلى أمراء مصر والشام والعراق أن يوافوه باليرة فأتته القوافل تحمل طعاماً كثيراً وغيره ، فوسّع على الناس ، وكان قطع الطعام عن نفسه وأطعم الجياع ، ولولا تدايره هذه لهلك أهل الحجاز جميعهم .

ومن جملة تدايره الإدارية أنه^(٢) « حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بأذن وأجل فشكوه قبله فقام فقال : ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جدعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سدساً ثم بازلاً ، ألا مهل ينتظر بالبال إلا النقصان ، ألا فإن الإسلام قد برز^(٣) ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حتى فلا . إني قائم دون شعب الحرّة أخذ بحلّاقم قريش وحجّزها أن يتهافتوا فى النار » . هذا مجمل من إدارة عمر ، وقد كان شديداً فى إقامة الحدود يقيهما على أقرب الناس إليه : حدّ فى الخرابته ، وعاقب ابن عمرو بن العاص عامل مصر ، لأن أحد قبطنها استعدها عليه . قال السائب بن يزيد كنا نؤتّى بالشارب على عهد رسول الله وإمارة أبى بكر وصدر من خلافة عمر ، فنقوم إليه بأيدينا ونسالنا وأرجلنا وأرديتنا ، حتى كان آخر إمرة عمر فجلب أربعة عيين ، حتى إذا عتوا وفسقوا جلدوا ثمانين .

(١) فروح البلدان للبلاذرى (٢) تاريخ الطبرى (٣) برز البعير بزولا فطر نابه أى انشق مدخوله

ولما ضعف نصاب الشهادة على للغيرة بالزنا سُرمى عنه لانه ما أراد أن يرحم أحد من الصعابة^(١) وأراد أن يحد جيلة بن الأيهم من ملوك غسان لان رجلا فزاريا^(٢) في الحج وطمى على إزاره فطمه جملة فهشم أنه ، وشكاه الفزارى فاراد عمر جيلة على أنت يفتدى نفسه أو يأمر الرجل بطمه ، فقال جيلة : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعكنا ، وسوى بين الملك والسوقة في الحد . ففر جيلة والتحق بالروم . وكان يساوى بين الناس في القضاء مهما علت منزلتهم ، وبلغه عن بعض عماله وهو في دار الحرب أنه تمضى حداً من حدود الله فأغضى عنه لثلاثا يقتسم ببلاد الروم .

وكان يعرف أن الرسول قال : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً ، فسكت عمر عنهم ، وراعى العهود التى أعطاهها الرسول لهم ، ولما كان من جملة شروط نصارى نجران أن لا يأكلوا الربا أمر بإجلالهم ، واشترى منهم أرضهم وأوصى بهم أهل الشام والعراق . ولما انطلق انصارى بنى تغلب حاربين من الجزية أضعفها عليهم^(٣) وشرط عليهم أن لا ينصروا أولادهم ، ولم يستمع لقول أحد بنى تغلب أنهم قوم عرب يأقون من الجزية وهم قوم لهم نكابة ، وقوله له مهدداً : لا تمن عدوك عليك . وكان يتحاشى استعمال النصارى وعرضوا عليه كتاباً منهم فأبى أن يستعملهم . وكان إذا أراد^(٤) أن يأمر المسلمين بشئ أو ينهاهم عن شئ مما فيه صلاحهم بدأ بأهله وتعلم إليهم بالوعظ لهم ، والوعيد على خلافهم أمره . وما كان يميز أحداً من آل بيته فى شئ ، وورما هضم بعض حقهم وأعطاه من هو أجدر منهم . قسم^(٥) عمر مروطاً^(٦) بين نساء المدينة فبقى فيها مرط جيد

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (٢) تاريخ أبى الفتل (٣) المعارف لابن قتيبة (٤) تاريخ الطبرى

(٥) تيسير الوصول لابن الديبع (٦) المرط كساء من خز أو صوف يؤتز به

فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ، أعط هذا ابنة رسول الله التي عندك ^(١) فقال : أم سليل أحق به فإنها من بايع رسول الله ، وكانت تزفر ^(٢) لنا القرب يوم الأحد . وقال أحدهم لعمر اتق الله يا أمير المؤمنين فقال : لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم قبلها منكم . وردت عليه امرأة فرجع إليها وقال : رجل أخطأ وامرأة أصابت .

وكان لا يقرب الشعراء ولكنه يُجرى عليهم رزقا يكتفيهم . كتب مرة إلى للغيرة بن شعبة أن استنشد من قبلك من الشعراء ما قالوا في الجاهلية والإسلام ^(٣) فأرسل إلى الأغلب المعجلي فقال إنه على استعداد لأن ينشده ، ثم أرسل إلى ليبد ابن ربيعة فقال أنشدني . فقال : إن شئت أنشدتك مما عفى عنه من شعر الجاهلية قال : لا أنشدني ما قلت في الإسلام ، فانطلق إلى أديم فكتب فيه سورة البقرة فقال : أبدلني الله مكان الشعر هذا . قال فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : إنه لم يعرف أحد من الشعراء حق الإسلام إلا ليبد بن ربيعة فأقص من عطاء الأغلب خمسمائة واجعلها في عطاء ليبد .



نهج عمر بن الخطاب لمن يخلفه النهج الذي يجب السير عليه في تدبير الملك . وأوصى الخليفة بعده أن يقر عمله سنة فيما قيل ، وأوصاه ^(٤) بتقوى الله لا تترك له وبالمهاجرين الأولين خيراً وأن يعرف لهم سابقتهم ، وأوصاه بالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصاه بأهل الأمصار خيراً فاتهم رده العدو وحياة النبي ، وأن لا يحمل فيهم إلا عن فضل منهم ، وأوصاه بأهل البادية خيراً فاتهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حوائى أموال أغنيائهم فيرده على فقرائهم ،

(١) يريد أم كلثوم بنت علي (٢) تزفر القرب تحوطها (٣) الاشراف لابن أبي الدنيا (٤) البيان والبيان الجواظ

وأوصاه بأهل النعمة خيراً وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً أو عن يد وهم صاغرون ، وأوصاه بالعدل في الرعية والتفرغ لحوائجهم وتغورهم وأن لا يؤثر غنيهم على فقيرهم ، وأن يشتد في أمر الله وحدوده ومعاييه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذه في أحد رافة حتى ينتهك منه مثل ما انتهك من حرم الله ، ويجعل الناس عنده سواء لا يبالى على من وجب الحق ، ثم لا تأخذه في الله لومة لائم ، وأوصاه أن لا يرخص لنفسه ولا لنبيه في ظلم أهل النعمة ، وأنشد الله أن يرحم جماعة المسلمين ويجعل كبيرهم ويرحم صغيرهم ويوقر عالمهم ، وأن لا يضرهم فيذلو ، ولا يستأثر عليهم بالنفء فيفضيهم ، ولا يحرمهم عطائهم عند محلتها فيفقرهم ، ولا يحترم في البعوث فيقطع نسلهم ، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا يخلق بابه دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم .

ولما أفضى الأمر إلى عثمان بن عفان حافظ على الأوضاع التي وضعها عمر ، وكان أول كتبه إلى أمراء الأجناد : « قد وضع لكم عمر ما لم يقب عنا بل كان على ملائمتنا ، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم » وكان أول كتبه إلى عماله : « فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وأن صدر هذه الأمة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياه والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم ما لم وتأخذون بما عليهم ، ثم تشنوا بالنمة فتعطوهم الذي لم وتأخذوهم بالذي عليهم » وكتب إلى عمال الخراج : « أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء . لا تظلموا اليتيم ولا العاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » وكتب في الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن

يشكوه ، وكتب إلى الناس في الامصار أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه فإني مع الضعيف على القوي ما دام مظلوماً إن شاء الله . »

واعتمد عثمان لأول ولايته في مشورته على من اعتمد عليهم الشيخان من قبل ، وفي الولايات على بعض من كانوا عمالاً لعمر ثم على أناس من أهله وعشيرته ، ومن اعتمد عليهم مروان بن الحكم . وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب الرسول يستشيرهم ويعمل بما يُجمعون له عليه . ولم يكن عثمان مبتدعاً بل كان متبعاً اتبع سيرة العمرين^(١) في الحكومة . وما عزل أحداً إلا من شكاة أو استعفاء من غير شكاة . وكثر المال في أيامه فكان لا يتوقف في إنفاقه . قيل انه باع غنائم افرقية بمخساة الف دينار وأعطاهها مرواناً ولم يطالبه بها ، ولم يزل المال متوفراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً ، وبيع الفرس بشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف . وأعطى عبد الله بن الأرقم وكان عمر استعماله على بيت المال ثلثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال : علت الله وانما أجرى على الله .

وكان عثمان جواداً ويحث عماله على الجود . قدم للمدينة ابن خاله عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان وهي أعمال غزنة فقال له عثمان : صل قرابتك وقومك . ففرق في قريش والأنصار شيئاً عظيماً من الأموال والكسوات^(٢) . وأرسل الى علي بن أبي طالب^(٣) بثلاثة آلاف درهم وكسوة ، فلما جات قال : الحمد لله انا نرى تراث محمد يأكله غيرنا . فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبح الله رأيك أترسل الى علي بثلاثة آلاف درهم . قال :

(١) يقولون العمران لابي بكر وعمر لأن أهل الجبل نادوا ببلى بن أبي طالب : أعطنا سنة العمرين . وعمر اسم مفرد لا كابي بكر وإنما طلبوا الحقة الكاملة للبرد . (٢) أسد الغابة لابن الأثير (٣) طبقات ابن سعد

كرهت أن أغرق ولم أدر ما رأيك قال : فأغرق . قال : فبعث اليه بشرين ألف درهم وما يتبعها . قال : فراح على الى المسجد فاتمى الى حلقة وهم يتذاكرون صلات ابن عامر ، هذا الحى من قریش . فقال على : هو سيد فتيان قریش غير مدافع . وكان ذلك من سياسة عثمان وحسن إدارته .

ومن ذلك أن عامله على الكوفة كتب اليه أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الثرف منهم والبيوتات والساجة والقُدْمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ودفت وأعراب لحقت حتى ما ينفر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها فكتب اليه عثمان : أما بد فضل أهل الساجة والقُدْمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من زلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا تناقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ، وأعظمهم جميعاً بقسطهم من الحق فإنه للعرفة بالناس بها يصاب العدل . اهـ .

وكانت ^(١) مغازى أهل الكوفة في زمنه الرى وأذر يجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذر يجان وأربعة بالرى وكان بالكوفة اذ ذاك اربعمائة ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف في كل سنة فكان الرجل يصيبه في كل أربع سنين غزوة .

وضعت الإدارة في النصف الأخير من عهد عثمان لسيخوته ، ولأنه لا يستطيع من كان في سنه أن ينظر في جميع المسائل . واشتغل بعض كبار المال بأطعامهم في الولايات ، وشاغب المحرومون على النصوين ، وكثيراً ما كان يصرّ على تنفيذ أوامره لا يبالى كثيراً بالشكاوى لعله بأنها صادرة على الأكثر عن أغراض شخصية ، وما نفع الدين ولا الشدة يوم حُمّ القضاء فكان من قتله ما كان . ومن أهم

الأسباب في مقتله غلطة إدارية بدرت منه مساق اليها الغضب والعجلة . قالوا انه احتتم^(١) أناس من أصحاب النبي كتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله ، وما كان من تطاوله في البنيان ، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية أحداث وغلطة ، لا محبة لهم من الرسول ولا تجر به لم بالأمر ، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم ، وتعطيله الحد عليه وتأخير ذلك عنه « جلده حين شهد عليه بشرب الخمر وأنه تعاطاها » وتركه المهاجرين والأنصار لا يتعلمهم على شيء ، ولا يستنيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم ، وما كان من الحمى الذي حوى حول المدينة ، وما كان من إداره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم محبة من النبي ثم لا يفزون ولا يذبون ، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وإثما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران . ثم تعاهد القوم ليدفن الكتاب في يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة ، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب في يد عمار ، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقي وحده ، ففضى حتى جاء دار عثمان فاستأذن عليه فأذن له في يوم شات ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية فدفع اليه الكتاب فقرأه فقال له : أنت كتبت هذا ؟ قال نعم . قال : ومن كان معك ؟ قال : كان معي نفر تفرقوا فقرأ منك قال : ومن هم ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : فلم اجتأأت علي من بينهم ؟ فقال مروان : يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعني عماراً) قد جراً عليك الناس وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه . قال عثمان : اضربوه

فضر به وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه ، فنشى عليه فجروه حتى طرحوه على باب الدار . وعضب فيه بنو النخيلة وكان حليفهم . ذلك لان عماراً كان من أعظم الصحابة ومن النقباء في مجلس شورى الرسول ، ومنافقه كثيرة في الإسلام ، فقتل هذا لا يضرب على هذه الصورة البشعة ، ومكانته مكانته بين المسلمين . والمثل العربي يقول العبد يفرع بالمصالح والحر تكفيه للامة أو الإشارة ، ومعاملة عمار بهذه القسوة ساقته إلى ان كان من أعظم من ألّب الناس على عثمان وخدم علياً ضروب الخدم حتى قتل في صفين .

ومن عمال عثمان عبد الله بن الحضرمي ، والقاسم بن ربيعة ، وعبد الله بن عامر ، وحبيب بن مسلمة الفهري ، وأبو الأعور الأسلمي ، وعلقمة بن حكيم ، وجابر بن فلان المزني ، وسماك الأنصاري ، والقعقاع بن عمر ، وجريير بن عيلان ، والأشعث ابن قيس ، وعتيبة بن النحاس ، ومالك بن حبيب ، وسعيد بن قيس ، والسائب بن الأفرع ، وعقبة بن عامر ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والمغالب عليه مروان بن الحكم . وكان عثمان ست سنين في ولايته وهو أحب إلى الناس من عمر بن الخطاب وكان عمر رجلاً شديداً (١) قد ضيق على قريش أنفسهم لم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً إعظاماً له وإجلالاً وتأسياً به واقتداءً ، فلما وليهم عثمان وليهم رجل لين ثم أنكر الناس عليه أشياء أشراً وبطراً . قال ابن عمر : لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه .

أما طريقة علي بن أبي طالب فكانت أيضاً في الادارة طريقة من سبقوه إلى الامامة : يولي العامل ويطلق يده على الجملة ويكشف حاله ، ويدعو عماله إلى التبليغ بميسور العيش والرفق بالرعية ويضع لهم المنهاج الذي يسرون عليه . أوصى

(١) الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة

أحد عماله بأهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبين لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم ، ولا تقمه على رجله في طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً في شيء من الخراج ، فإنما أمرنا أن نأخذ العفو منهم . ومما كتبه إلى الأشتر النخعي وهو مما لم ينفذ وبقى في حيز الأقوال ، لقتل الأشتر قبل أن يبلغ مصر قوله : وتنفذ أمر الخراج بما يصلح اهله فإن في إصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بشير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً ... وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالخير .

ومما جاء في هذا الكتاب : ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختياراً ولا تولم بحماة وأثرة ، فإنهم جماع من شُعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدّم في الإسلام المتقدمة . فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل في اللطامع إشرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تنقد أفعالهم وأبعت الصيوت من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تصاهدك في السر لأمرهم حدوداً لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، أكتفت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة في بدنه . . . وجاء في هذا الكتاب أيضاً : ثم ان للوالى خاصة وبطانة فيهم استشار وتطاول وقلة إنصاف في معاملة ، فاحسم مادة أولئك

بقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطن لأحد من حاشيتك وحامتك^(١) قطيعة ، ولا يطعمن منك في اعتقاد عقدة تضر عن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون موثته على غيرهم .

ومن وصية لعل بن أبي طالب كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وهي أشبه بالأوامر العامة : « انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا ترؤعن مسلماً ، ولا تجتازن عليه كارهاً ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله . فإذا قديمت على الحمى فازل بمائهم ، من غير أن تخالط أبايتهم . ثم امض اليهم بالسكينة والوقار . حتى تقوم بينهم قسّم عليهم ، ولا تُعْجِج^(٢) بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله أرسلني اليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه الى وليه . فان قال قائل : لا . فلا تراجع وان أنعم لك منهم فانطلق معه من غير أن تُخَيِّقَهُ ، أو تُوعِده ، أو تُسَيِّفَهُ أو تُرَهِّقَهُ . فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فان كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بأذنه ، فان أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عتيف به ، ولا تُنفِرَنَّ بهيمة ولا تُفَرِّعَنَّها ، ولا تُسَوِّاَنَّ صاحبها فيها ، واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإذا اختار ملا تعرّضن لما اختاره . ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيره . فإذا ختار فلا تعرّضن لما اختاره . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاءه لحق الله في ماله ، فاقبض حق الله منه ، فان استتالك فأقله ، ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذي صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله . ولا تأخذن عوداً^(٣) ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة^(٤) ولا ذات عوار . ولا تأمنن عليها الا من تثق بدينه . رافقاً بآل المسلمين حتى يوصله الى وليهم فيقيسهم بينهم . ولا توكل بها الا ناصحاً

(١) الحامة بتشديد اللام الخاصة (٢) لا تنقص (٣) العود المسن من الابل (٤) المهلوسة
المریضة قد طسها المرض وأفق لها . والموار اللب

شقيقاً وأميناً حفيظاً . غير معتب ولا مجحف ولا ملقب ولا مُتَعَب^(١) . ثم أخذُ
الينا ما اجتمع عندك نصيرته حيث أمر الله ، فاذا أخذها أمينك فاعوز اليه أن
لا يحول بين ناقة وبين فصيلها ، ولا يُمَصَّر^(٢) لبنها فيضر ذلك بولدها ،
ولا يجهدها ركوباً ، وليعدل بين صواحبها في ذلك وبينها ، وليرفه على اللأغب ،
وليستأن بالثقب والظالم^(٣) ، وليوردها ما تمر به من الغدر ، ولا يعدل بها عن
نبت الأرض الى جواد الطرق . وليروحها في الساعات ، وليلبها عند النطاف^(٤)
والأعشاب ، حتى تأتينها باذن الله بدناً مُنْقِيَات^(٥) غير متعيات ولا مجهودات ،
لنقيسها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله فان ذلك أعظم لأجره وأقرب
لرشدك ان شاء الله .

ومن كتاب له إلى بعض عماله وفيه جماع سياسة الخالفين والمواقعين إذا جعله
كل عامل دستوره في عمله قال : اما بعد فإن دهاقين^(٦) أهل بلدك شكوا منك
غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة ، ونظرت فلم أرم أهلاً لأن يذنوا لشركهم ، ولا أن
يقصوا ويحفوا لعهدم ، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة ، وداول
لهم بين القسوة والرافة ، وأخرج لهم بين التقريب والإدناء ، والإبعاد والإقصاء ان
شاء الله . وكتب إلى زياد وكان عامله على فارس : أما بعد فإن رسولي أخبرني
بجعب ، زعم أنك قلت له فيما بينك وبينه أن الأكراد هاجت بك فكسرت عليك
كثيراً من الخراج وقلت له : لا تعلم بذلك أمير الأمنين . يا زياد وأقسم بالله إنك

(١) المتعب ذو التعب بالضم وهو ضد الرفق ، والمجحف الذي يسوق المال سوقاً عنيفاً فيجعب به
أي يهلكه ، والملب المتعب والقرب الاعمى . (٢) المصرب ما في الضرع جيمه . (٣) الظالم
الذي ظلم أي غمر في مشيه ، والثقب ذو الثقب وهو رقة خف الجعر حتى تكاد الأرض تحمره . (٤)
النطاف جمع نطفة وهي الماء الصافي القليل . (٥) البدن بالشدب السيان واحدها باذن ومنقيات نوات
نقى وهو المنع في العظم والشحم في العين من السم وأتت الامل وغيرها سمت وصار فيها نقي وناقة
منقية وهذه الناقة لا تنقى . (٦) أرباب الأملاك من العجم

لكاذب ، ولئن لم تبعت بخراجك لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفرة قليل الظهور ، إلا أن تكون لما كسرت من الخراج محتلاً . وكتب إلى كعب بن مالك : أما بعد فاستظف على عمالك واخرج في طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السواد فتسأل عن عمالي وتنظر في سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب .

قال اليعقوبي ^(١) : إن علياً حكم بأحكام عجيبه حتى إنه حرق قومًا ودفن على آخرين ، وقطع بعض أصابع اليد في السرقة ، وهدم حائطاً على اثنين وجدما على فسق ، وكان يقول استوتروا ببيوتكم والتوبة وراءكم ، من أبدى صفحته للحق هلك ، إن الله أدب هذه الأمة بالسوط والسيف ، وليس لأحد عند الإمام هوادة . قالوا في القرآن أربعة سيوف : سيف على المشركين حتى يسلحوا أو يؤسروا فلما منأ بعد وإما فداء ، وسيف على المنافقين وهو سيف الزنادقة ، وقد أمر الله بمجدهم والإغلاظ عليهم في سورة براءة وسورة التحريم وآخر سورة الأحزاب . وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وسيف على أهل البغي وهو المذكور في سورة الحجرات ، ولم يسل الرسول هذا السيف في حياته وإنما سلّه عليٌّ في خلافته ، وكان يقول : أنا الذي علمت الناس قتال أهل القبلة ، وله صلى الله عليه وسلم سيوف أخرى منها سيفه على أهل الردة وهو الذي قال فيه : من بدل دينه فاقتلوه ، وقد سلّه أبو بكر من بعده في خلافته على من ارتد من قبائل العرب . ومنها سيفه على المارقين وهم أهل البدع كالخوارج . وروى عن علي أن النبي أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين . وقد حرق علي طائفة من الزنادقة فصب ابن عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار فقال علي : ويح ابن عباس لبعثت عن الهنات .

وقالوا إن ^(٢) علياً كان يقسم ما في بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئاً . ودخل مرة إلى بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال : يا صفراء اصفرى ، يا بيضاء

ايضاً وغرى غيرى ، لا حاجة لى فيك . وانتهى اليه أن أحد عماله يفرق ويهب الأموال وكان عليها . ولأما أن قسم فىء المسلمين فى قومه ومن اعتراه من السألة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء . كما يقسم الجوز . فأجابه عامله إنه منذولى العمل لم يرزأ من عمله ديناراً ولا درهماً ولا غيرها وأن المنزل أهون عليه من هذه التهمة . وقال على : لئن بقيت لنصارى بنى تلب لأقتلن للمقاتلة ولأسبين القرية ، فإني كُتبت الكتاب بينهم وبين رسول الله على أن لا ينصروا أولادهم . ورأى على داراً للقاضى شريح عمرها فقومت عليه ثمانين ديناراً فوعظه وبكتته ضمناً مع أنه كان يرزق خمسمائة درهم . وكان يقبل الهدية ويكافئ بمثلها . وهو من أكبر قضاة الصدر الأول .

ومن مجموع هذه الفقرات من كتب على بن أبى طالب عرفنا متزعه فى تدبير الملك ، وشدته على من يطيل يده بالأذى إلى الرعية وإلى أموال الدولة ، وكان هديه هدى أصحابه الثلاثة من قبل ، ولكن التوفيق أخطأه ، استغرقت الفتن أيامه ، أكثر من التنظيم والإدارة . وقد الاستقرار فى البلاد للنزاع الذى قام بينه وبين خصومه . قال الجاحظ لا يعلم رجل فى الأرض متى ذكر السبق فى الاسلام والتقدم فيه ، ومتى ذكرت النخوة والنب عن الاسلام ، ومتى ذكر الفقه فى الدين ، ومتى ذكر الزهد فى الأمور التى يتناصر الناس عليها ، كان مذكوراً فى هذه الخلال كلها إلا على .

وعما يمد من خطيئاته الادارية مبادرته إلى عزل جميع عمال عثمان ولم يتر بص بالأمر وصول البيعة اليه من أهل الامصار^(١) ، ولم يصح إلى تحذير المخدّرين ولا نصح الناصحين بل أبى من الإبقاء عليهم أو أحداً منهم إياه ، تماماً كأنه قد وفر فى نفسه أن هؤلاء المال لا يصلحون لأن يولوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد

(١) تاريخ الاسلام — الحفظة الراشدون لعبد الوهاب الشجار

منهم يوماً كاملاً قص في دينه، ولو أنه اتأد في الأمر، وعالجه برفق وأناة واصطبر حتى استتب له الأمر وبايعه أهل الأمصار لما كان في عزل الولاية شئاً، لأن الخليفة هو الذي يعطى الولاية لسلطانهم، فهو حر في اختيار عماله. ولما طالبه أصحاب الرسول بأقامة الحد على من شرك في دم عثمان بين لهم أن القوم الذين في أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم، وقد ثارت اليهم العبدان وفاءت اليهم الأعراب، وبأيديهم الحول والطول بالمدينة، وأهلها لا يقدرّون منهم على شئ، وطلب اليهم إنظاره حتى تهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم. ومن عماله عبد الله بن عباس وكان واليه على البصرة واليه الصدقات والجند والمعاون وقثم بن العباس وعبيد الله بن عباس وأبو الأسود السوئلي وسهل بن حنيف وغيرهم.

إدارة الامويين

الإدارة على عهد معاوية بن أبي سفيان

ما عرفت للحسن بن علي طريقة في الإدارة لأنه لم يطل أمره غير بضعة أشهر وذلك في العراق والحجاز، أما سائر الأقطار فكانت في يد معاوية، ولكن عبد الله ابن عباس من أعظم أنصار علي كتب إلى الحسن أن يولي أهل البيوتات والشرف يستصلح بهم عشارهم حتى تكون الجماعة، فإن بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق، وكانت عواقبه تدعو إلى ظهور العدل وعز الدين، خير من كثير مما يحبون، إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور وهن الدين. حتى إذا كان عام الجماعة ونزل الحسن عن الخلافة وأجمع المسلمون على استخلاف معاوية (٤١ هـ) التفت هذا إلى سياسة الملك بحزم شديد وعزم أكيد، وقد كان من قبل يسوس الناس تحت سلطان أعظم من سلطانه، فأصبح يسوسهم بسلطانه مباشرة، ولا يطلب منه حساب لغير نفسه وديانه. وساعد معاوية على حسن إدارة الملك سابقة له من تجربة طويلة، ابتدأت منذ كان كاتب وحى رسول الله يشهد روعة الرسالة، ويأخذ من البيضة النبوية، فتوقف على أتم ما يكون من الكمال، ورأى منه أبو بكر وعمر ما رآه منه صاحبهما من الفناء. فولى الشام عشرين سنة تسمى^(١) خلاها بالسياسة، واتسع أمامه أفق جديد من النظر، فادّش من تولى أمرهم بحلمه وعلمه وثاقب رأيه وفطرته، وكان أبوه من قبل يعالج شؤون الناس ويتألفهم ويعرف ما يصلحهم،

(١) تسمى وامقرس بالثي. احتك به ويمقرس بالنواب والمقصودات مارسها

وعنه أخذ شيئاً في هذا المعنى ، والثانى . فى مثل هذه الأعمال يتحنك فى الادارة ويكون إماماً فى صناعته .

حافظ معاوية على أصول الرسول والراشدين فى الإدارة ، وما حاد عنها إلا فيما قضت به للمصلحة ودعا إليه المحيط الجديد ، مثل إخراج الإدارة من سذاجة البداوة إلى مجبوحة الحضارة ، وعرف فوائد التورى فما كان يصدر فى المهمات إلا عن مشورة ، فهو يرى من الطبيعى أن يأخذ بأراء أشرف القوم ، وينزل على حكم وفود^(١) البلاد ، وله وآل بيته مجالس يعقدونها فى المسجد الجامع ، تدور أبحاثها على سياسة البلاد وحكمها فى الأكثر ، ومجالس الأمويين أشبه بمجالس النواب والشيوخ والولايات ، وما كانت الأمويون إلى الاستبداد بالرأى فى معظم حالاتهم ، ولا سيما فيما له مساس باصلاح الراعى والرعية .

كان معاوية يفض مشاكلة بالحسنى يلين للناس ويشفع للجاملة بالاحسان ، يوليه كل نائب^(٢) نابه فى قومه ، سيد مسود فى أهله ، ولا تلين قناته لمن يحاول قلب الخلافة واخراجها عن بيته بعد ان آلت اليه ، وما كان مع من يظلم رعاياه إلا شديداً ، ويستميل القلوب بالمطاء وبالإقناع أو بالإغضاء أو بالمجادلة بالنفى هى أحسن ، وبلغ من حمة الصدر ووافر الحلم أن ضرب للثل بجلده ، وكان إذا لم تنجع فى الناس وسائله اللينة ، يمدد بعد التماس كل حيلة إلى القوة ، وهو القائل لا أضع سبى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شجرة ما انقطعت ، وقيل وكيف ذاك ؟ قال : كنت إذا مدوها خليتها ، وإذا خلوها مددتها . وقال : إني لا أحول بين الناس وبين أنفسهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . ومن للاستيعال كم^(٣) الأفواه أو تنطق بما يرد ، ورضا الناس

(١) غلبت الشام للوفد (٢) النائب سيد القوم والناه القطن ذو النباغة (٣) كم البعير شدة نه
بالكام والكام كالكامه ما يك به هم الحيوان لثلا يمشى او يآ كل

غاية لا تدرك . فإدام الأمر يفض بالكلام ، ولا يقوم رجل جد يثقل أمر الجماعة فالعالم أحرار في أقوالهم ، ومتى لجأوا إلى القوة وتطلوا إلى الفتنة انكفأ عليهم بقوته ، وما برحت همته منذ تولى الحكم مصروفة إلى سياسة الدولة ، وما عدا ذلك فالناس وما يختارون من الآراء . وللذهب ، وهو يستشير أرباب الرأي من أنصار دولته ، ولا يأتمن في إدارة الولايات والأعمال إلا الكفاءة من آل بيته ، فإذا اتفق أن كان فلان يترفع إلى كذا أو يجب فلاناً من خصومه أو يغلظ في بيان رأى يخالفه ، فهذا مما لا يتعلق به كبير أمر عنده .

فالساسة هم كل ما حصر فيه معاوية وكده ، ومن أجل توطيد دعائمها لجأ إلى طرق في الدعوة مؤثرة ، فجعل القصاص أو الوعاظ في المساجد والمسكرات يدعون لدولته وينفرون من أعدائها ، وذلك لما رأى علياً^(١) عند مُنصرَفه من صفين قنت في الصلاة ودعا على من خلفه . فوقع في نفس معاوية أن يعامل علياً بالمثل وأمر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب أن يدعوه ولأهل الشام ، وحمل الأمصار على احتذاء مثاله في عاصمته ، فأحدث قصص الخاصة ، عهد بها إلى رجال يهتمون بسلطانها . وظل قصاص العامة يجتمع اليهم النفر من الناس يظنونهم ويدكرونهم ، ويقصون عليهم ما يرق قلوبهم ، وكان القصاص إذا سلم الإمام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحمده ومجده وصلى على نبيه ، ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده ، وعلى أهل حربه وعلى الكفار كافة . ومن القصاص من كانوا يرفضون أيديهم في قصصهم كما كان سليم بن عتر قاص الجند زمان عمرو بن العاص .

ويقول من أمعنوا في درس تاريخ معاوية ان دعوى سنه لعن

على^(١) عقي كل خطبة^(٢) لم يعم عليها دليل ثابت يركن اليه ، وما من أثر يدل على أن هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم ، وبذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة . وجلب لعن الأمويين علياً من^(٣) البغضاء للمسترة أكثر مما نالهم من الفائدة الحقيقية ، كما أخطأ معاوية باطلاق يد زياد في سياسة القمع في العراق على صورة هائلة تخالف ما كانت عليه سياسة معاوية من الذين ، وكان عليه أن يطبق بنفسه هذه السياسة مباشرة . وانتشر لعن الطالبين للأمويين ولعن الأمويين للطالبين في كل مكان ، وقد لعن الأمويون علياً على منابرهم نحو الف شهر ، ولم تبطل هذه البدعة السيئة إلا في عهد عمر بن عبد العزيز ، استعاض عنها بآية : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا في الإيمان) الآية وقيل بل جعل مكان ذلك : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر) وقيل بل جعلها جميعاً . وكالت الملويون يقتنون عقب الصلوات يلعنون بنى أمية يشفون بذلك نفوسهم الثائرة ، من أجل دماء مطلولة ، وطوائف^(٤) طويلة ، وملك مستأثر به .

واقفى معاوية فعل عمر بن الخطاب في العلم بأخبار رجاله ورعيته فانتظم له أمره ، وكذا كان زياد بن أبيه وعبد الملك والحجاج . قال الجاحظ : ثم لم يكن بعد

(١) كان اللعن منذ القرن الأول من أيسر ما يقابل به خصم خصمه وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرناً وانطواء ذلك البساط بما عليه جملة ، لم تشف صدور شيعة على من التيل من الراشدين والأمويين والعباسيين حتى كاد لنهم يمد من أركان المذهب ، وصار بعضهم ينتمون للشيخين يسنن قريش ويقذفون بانيتهما الطاهرين ، وأصبح اللعن سنة من سنن العباسيين ، يلصقون كل من حارب سلطتهم ، وقد عزم المعتز على سب معاوية على المنابر فخفوه وزيره من اضطراب العامة وأمر المعتز بلمن ابن طولون على المنابر لما استأثر بولاية مصر والشام فلم ينقاد وسائر العراق ، ولمن ابن طولون المعتز على المنابر في جميع أعماله بمصر ، وعهد الى هذا اللعن السياسي بعض خلفاء بنى العباس . أما الاسلام فلم يجوز اللعن إلا على الكفار لا على المؤمنين . وقد روت عدة آيات في الكتاب العزيز في لعن الظالمين والمنافقين أكباراً لصلتهم في خراب العمران ، وما يشاهد في بعض الكتب من لعن بعض أهل القبلة وغيرهم فأنما هو من زيادات الفساح على ما حقق ذلك الماروفون من العلماء (٢) الكامل المبريد (٣) ملة الاسلام . مادة أمية (٤) طل دمه حذره والطوائف جمع طائفة وهي العداوة والفرقة

هؤلاء أحد في مثل هذه السياسة حتى ملك للنصور . ونقل عن زياد أن رجلاً
كله في حاجة وجعل يتعرف إليه ويظن أن زياداً لا يعرفه فقال : أنا فلان بن فلان ،
فتبسم زياد وقال له : أنت تعرف إلى وأنا أعرف منك بنفسك ، والله إنى لا عرفك
وأعرف أباك وامك وأعرف جدك وجدتك وأعرف هذا البرد الذي عليك وهو
لفلان وقد أعارك إياه ، فهبت الرجل وأرعد^(١) حتى كاد يفشى عليه .

قلنا إن معاوية كان يتخير عماله من كفاة أهل بيته أو من غيرهم من رجال
دولته وأنصار دعوته . وقد انتهى إلى علمه أن ابن أخته عبد الرحمن بن أم الحكم
عامله على السكوفة قد أساء البيرة في إمارته فزله وأقصاه عن الحكم . وقيل إن
سبب عزله أن عبد الله بن همام السلولي قال شعراً وكتبه في رقاع ألغاهها في للسجد
الجامع وهي :

ألا أبلغ معاوية بن صخر	قد خرب السواد فلا سواد
أرى المال اقضاء علينا	باجل نفهم ظلموا العباد
فهل لك أن تدارك ما لدينا	وتدفع عن رعينتك الفساد
وتسزل تاباً أبداً هواء	ينحرب من بلادته البلاد
إذا ما قلت أقصر عن هواء	تمادى في ضلالته وزادا

وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بني حرب ولاء الطائف ، فإن رأى
منه خيراً وما يعبه ولاء مكة معها ، فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً
جمع له معها المدينة . فكان إذا ولى الطائف رجلاً هو قيل في أبي جاد ، فإذا ولاء
مكة قيل هو في القرآن ، فإذا ولاء المدينة قيل هو قد حذق^(٢) . وأوصى أحد
أقاربه عن استعمله فقال : لا تبين كثيراً قليل ، وخذ لنفسك من نفسك ،

(١) أرعد أخذه الرعدة (بفتح الراء وكسرهما) وهي الاضطراب يكون من الفزع وغيره

(٢) تاريخ الطبري

واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تحف عليك اللؤنة وعلينا منك ، وانفتح بابك للناس . وقال لآخر : إذا أعطيت عهداً فب به ، ولا تخرجن منك أمراً حتى تبرمه ، فإذا خرج فلا يردن عليك ، ولا تطعن أحداً في غير حقه ولا تؤيسن أحداً من حق له . قواعد وضعها معاوية لعماله وفيها شيء من الأساليب لكف الناس بعضهم عن بعض ، وإرضاء كل واحد بحقه ، وتوفير ثقة الرعايا بولايتهم ، ليعتقدوا أنهم لا يكذبون وأنهم إذا قالوا فعلوا .

ومن عین الدولة الأموية أن كانت لا تستعمل من العمال إلا من ثبتت كفاءته ونجدته في تأييد سلطاتها ، يحضونها النصيح ولا يفعلون عن تعهد حال الناس وكشف ظلاماتهم ، واتخاذ الطرق للفضية إلى ما فيه راحتهم وهناؤهم ، وإذا تبرم أهل قطر بتدابير من ولهم ينقله الخليفة إلى قطر آخر يستميض عنه أكفاً منه أو من كان على شاكلته أو ألين منه عريكة ، يريد عاملاً حقيقياً للعمل لا عملاً لمامل يرزقه ، يتطلب عاملاً إذا عرضت له للعضلات أن يفتق له وجه الحيلة ما يتوجه له فيه وجه . أوعز زياد إلى والي خراسان أن يصطفي لمعاوية الصفراء والبيضاء فلا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة عملاً بكتاب ورد عليه من الخليفة . فكتب إلى خراسان إلى زياد : بلغني ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين وإني وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإياه والله لو أن السماء والأرض كانتا رقاً^(١) على عبد ثم اتقى الله جعل له مخرجاً والسلام . وقسم النبي بين الناس من الذهب والفضة ، ولم ينفذ ما أمر به الخليفة من أمر يحذف بأرباب الاستحقاق في العطاء من الجند والعمال ، ذلك لأنه رأى في ولايته مالم يره الخليفة ولا عامله الأكبر زياد . وهذا مما يشعر بما كان للعامل الأمين في عهد معاوية من الحرية فيما يرتب له لإصلاح عمله . والإدارة في قطر قد لا تصلح لقطر آخر . والحاضر يرى ما لا يراه الغائب

(١) الرق عند القتي والمصدق وفي التنزيل كانتا رقاً ففتقنهما أي مصمتين منقسمين لا فرجة بينهما

قال زياد ما غلبني أمير المؤمنين إلا في واحدة ، طلبت رجلاً فلعباً اليه وتحترم^(١) به فكتب اليه : إن هذا فساد لعملى إذا طلبت رجلاً لجأ اليك وتحترم بك . فكتب اليه معاوية : إنه لا ينبغي أن نوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدّة والغلظة ، وأكون أنا للرافة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا . وأعظم بمثل هذا الدهاء ، وقد يما قالوا : الدهاء أربعة ، معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبدية ، والخيرة بن شعبة للمعضلات ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة . وقال بعضهم : دهاء العرب وذو الرأي واللكيدة معاوية وعمرو والخيرة وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل بن ورقاء . وأربعة ممن ذكر دبروا ملك بنى أمية والآخران كانا من جماعة على .

علمنا أن معاوية ما كان يستخدم الحسام ، إذا أجزأه^(٢) الكلام ، رمى أهل مصر بعمرو بن العاص لأنهم اشتركوا في مقتل عثمان ، كما اشتركت الكوفة والبصرة وبعض أهل المدينة ، ولما هلك ولّى مصر أخاه عتبة بن أبي سفيان^(٣) . وكان وإلى عمر طي الطائف وصدقاتها ، وهو من بلاء الخطباء ، قيل لم يكن في بنى أمية أخطب منه . فاشتد على أهل مصر وطأمن من جماعهم ، وأدخل الرهبة على قلوبهم . ومن جملة ما خطبهم ، وفيه نموذج من خطته وخطة أخيه ، قوله : يا أهل مصر خفت على أنفسكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأتم تأتون ، كالجار يحمل أسفاره أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وإني والله لا أداوى أدواءكم بالسيف ، ولا أبلغ السيف ما كفى السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفى الربة ، ولا أبطى عن الأولى إن لم تصلحوا عن الأخرى ، ناجزاً^(٤) بناجز ، ومن حذر كن بشر ، فدعوا قال ويقول ، من قبل أن يقال فعل ويفعل ، فإن هذا اليوم الذى ليس فيه عقاب ،

(١) يقال تحترمت بطعامك وجلستك أى حرم عليك منى بينهما ما كان لك أخذه وتحرم فلان بفلان إذا عاتره وماله وتأكدت الحرمة بينهما (٢) أجزأ عن أغنى أسد القاتلة لابن الأثير (٣) الناجز والتعجز الحاضر

ولا بمدء عتاب . وخطب الناس بمصر عن مَوْجِدَةٍ^(١) فقال : يا حاملي الأم أنف^(٢) ركبت بين أعين ، إني إنما قلت^(٣) أظفاري عنكم ليلين متى لكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم باقياً عليكم ، فأما إذا أيتم إلا الطعن على السلطان ، والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فإن حسمت أداؤكم وإلا فإن السيف من ورائكم ، فكم من حكمة منا لم تمها قلوبكم ، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم ، ولست أنجل عليكم بالمقوبة ، إذ جدتم بالمصيبة ، ولا أؤيسكم من مراجعة الحسنى ، إن صرتم إلى التقي هي أبر وأتقى .

واستخلف عتبة هذا عاملاً له على أهل مصر ، وكانت له شدة ، فامتنع عليه بعض أهلها فكتب إلى عتبة . فقدمها فدخل المسجد ورق للنبر وقال : يا أهل مصر قد كنتم تمذرون ببعض اللع منكم ، لبعض الجور عليكم ، وقد وليكم من إن قال فعل ، فإن أيتم درأكم^(٤) بيده ، فإن أيتم درأكم بسيفه ، ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول : إن البيعة شائمة ، لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل ، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه . فناداه المصريون من جانب للمسجد « سمأ سمأ » فناداهم « عدلا عدلا » . تهديد نافع هدد به عتبة أهل مصر ليحملهم على الطاعة ، ويدفع عن البلاد غائلة الفتن بموعظته في خطبته ، وأسلوب جميل في الإدارة من أفق الطرق التي تنجع فيها الخطابة السياسية .

وكلا لمح عتبة شرارة الفتنة خطب القوم بما يطمئنها من معين بلاغته . احتسبت كتب معاوية حتى أوجف أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته . فصعد عتبة للنبر والكتاب بيده وقال : يا أهل مصر ، قد طالت معاتبتنا إياكم

(١) الموجدة النضب (٢) الآف جمع أف ، وتجمع على أناف وانوف (٣) ظم الظفر قطع ما كان منه وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء قد قطعه (٤) درأ دفعه شديداً .

بأطراف الرماح وظلمات^(١) السيوف حتى صرنا شجى في لهواتكم^(٢) ما تسيبنا
حلوكم ، وأقذاء^(٣) في أعينكم ما تطرف عليها جفونكم ، فحين اشتدت عرى
الحق عليكم عقداً ، واسترخت عقد الباطل منكم حلا . أرجفتم بالخليفة وأردتم
توهين السلطان ، وخضم الحق إلى الباطل ، وأقدم عهدكم به حديث ، فأربحوا
أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كتاب أمير للمؤمنين بالخبر السار عنه ، والعهد
القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ما ظهر
نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً وإن أسررتم شراً ، فانكم حاصدون
ما أنتم زارعون ، وعلی الله تتوكل وبه نستعين اهـ .

وخطب عتبة في اللوسم في سنة احدى وأربعين ، وعهد الناس حديث
بالفتنة ، فاستفتح ثم قال : « أيها الناس إنا قد ولينا هذا للوضع الذي يضاعف الله
فيه للمحسن الأجر ، وعلی للسوء الوزر ، فلا تمدوا الأعناق الى غيرنا ، فانها تنقطع
دوننا ، ورب متمن حفته في أمنيته ، أقبِلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم » وقد
عرفنا بهذه التمودجات من الخطب كيف أخذ بنو أمية يصفون البلاد من كدورات
الفتنة . وبعتبة وبأمثاله أدخلوا الناس في الطاعة ، وكانوا ركبوا رؤوسهم^(٤) في
القوائل وأوغلوا ، وبعتبة وبأمثاله من العمال الذين كانوا يملون للجاعة بقولهم
وقلوبهم ، وهم على اقتناع من حمة دعواهم ، دفعوا الناس إلى الانقطاع الى أعمالهم
واضطروهم إلى أن يتركوا الخوض في سياسة الملك ، إلى من يحسن القيام عليها .
ومن نظر في سيرة أولئك المال يأخذه العجب من عفتهم عن الأموال وتبلسهم
بالقليل وانفاقهم بلا حساب لتأليف الشارد واستمالة الخصم اللامد ، فقد ذكر

(١) الظبة حد السيف أو السنان ونحوهما والجمع ظلمات وظلي . (٢) والهاء الهمزة المشرفة على
الحلق في أقصى سقف الفم وجها لموات ولهايات وظلي . والشجى ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه .
(٣) القذى ما يقع في العين وفي الشراب من تبة وغيرها (٤) ركب رأسه مضى على وجهه غير روية

للمؤرخون ان عمرو بن العاص الذى ولى مصر مرتين وجعلها له معاوية فى المرة الثانية طعمة بعد الاتفاق على مراقبتها إذا هو ساعده على قتال عليّ . ان هذه الطعمة لم تعد على عمرو بثروة تذكر . وما اشتد عمرو على أهل مصر اشتداد عتبه لأن هذا كان فى سن الكهولة وعمرو فى سن الشيخوخة . والشيخوخة فى الادارة أقرب إلى الخنكة^(١) والروية من الشباب على الأغلب . أما سائر عمال الدولة فكانوا بحسب الحال : على طريقة عتية الناطقة أو على طريقة عمرو الصامتة .

كانت العراق بعد حوادث عليّ تغلّ غليان للرجل^(٢) بالثوار ، وتمج بأرباب الشغب ، فرمام معاوية يزيد بن أبى سفيان فخطب أهلها قائلاً : « حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً واحراقاً ، إياى ودلج^(٣) الليل ، فاني لا أوقى بدلج إلا سفكت دمه ، وإياى ودعوى الجاهلية فاني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً وأحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً أغرقته ، ومن أحرق قوماً أحرقته ، ومن قُب بيتاً قُبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ، فكفوا أيديكم وألسنتكم أكف عنكم ، وقد كانت بينى وبين أقوام أشياء قد جعلتها دبر أذنى وتحت قدمى ، فمن كان محناً فليزدد ، ومن كان مسيئاً فليترع . انى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بنضى لم أكشف له قناعاً ، ولم أهلك له سترآ ، حتى يبدى لى صفحته^(٤) فإذا فعل ذلك لم أظفوه ، فأعينوا على أنفسهم وأتفقوا^(٥) أمرهم » ومعنى هذا أن زياداً أعلن فى العراق الادارة العرفية العسكرية ، وصرح بأنه يتناسى ماسبق للقوم من الخطيئات للدولة ولنفسه ، إذا أحسنوا السيرة ، وأنه ينوى افتتاح عهد جديد يفاث فيه الناس ويستريح

(١) خنك وأخنك وتحنك العمر الرجل جعله التجارب والأمور وتقلبات الدهر حكماً والخنكة الاسم من حنك الدهر (٢) الرجل كثر القدر من الجعالة أو التحس (٣) الدلج سيد الليل كله أو فى آخره . (٤) صفحة الرجل عرض صدره والصفحة الورقة والجنب ومن الجاز أبهى له صفته كاشفه (٥) اتفق واستأقف التمه أخذه فيه وإبتدأه .

السلطان . ومع هذه الشدة البادية في كلام^(١) زياد كان يمشي إلى الجماعة منهم فيقول : ما أحسب الذي يمنكم من إتياني إلا الرحلة^(٢) فيقولون : أجل . فيحملهم ويقول : أغشوني الآن وأسكروا عندي . يحاول تألفهم والوقوف على آرائهم من طرف خفي ، والبعد جفاء ، والعامل مضطر إلى أن يعلم البواطن والظواهر ، ولا ميدان لالتقاط الفوائد إلا في المجالس الخاصة . قال عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الفرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرية ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشام في شامهم ، وجبى العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف ١٥ .

كان زياد إذا ولي رجلاً قال له : خذ عهدك وسر إلى عملك ، واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنتك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك : إذا وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك ، وسلطتك من موتنا أمانتك ، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك ، وأحسننا على خيانتك أدبك فأوجعنا ظهرك ، وأثقلنا غرْمك ، وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً زدنا في عملك ، وورعنا لك ذكرك ، وأكثرتنا مالك وأوطأنا^(٣) عَقَبَكَ . مثال من أعمال عمال معاوية وما يريدون أن يكون عليه من يتصرفون للسلطان ليستقيم أمر البلاد . وكان زياد يقول : استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ، فوالله لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا اتعقت له منه . قال زياد لحاجبه : كيف تأذن للناس ؟ قال على البيوتات ، ثم على الأنساب ، ثم على الآداب ، قال فن تؤخر ؟ قال : من لا يبعأ الله بهم . قال : ومن هم . قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف وكسوة الصيف في الشتاء . وقال

(١) الكامل للبرد (٧) الرحلة المشي (٢) يقال فلان موطأ القلب أى كثير الاتباع

لحاجبه : ولتنتك حجابتي وعزلتك عن أربع : هذا المنادى إلى الله في الصلاح والصلاح لا توقفه عني ، ولا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه ، فسر ما جاء به ، ولو كان خيراً ما جاء في تلك الساعة ، ورسول صاحب التنفر ، فإن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد . قال العتيبي : كان في مجلس زياد مكتوب : « الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، المحسن يجازي باحسانه ، والسيء يعاقب بإساءته ، الأعطيات في أيامها ، لا احتجاب من طارق ولا صاحب ثغر . » وكان زياد يؤثر الأفعال على الأقوال لعله بأنها تنادى على نفسها . فقد بنى بالبصرة أحياء ودوراً ومساجد وحفر أنهاراً وترعاً وكل ما بنى فيها أو صنع فإنه نسب إلى غيره^(١) .

وزياد في الواقع لم يزل بالمداواة من يوم كان أميراً على فارس ، وهي تفرم ناراً^(٢) حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة ، لم يقف موقفاً للحرب . وكان أهل فارس يقولون ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والدداواة والعلم بما يأتي . ولما قدم فارس بعث إلى رؤسائها فوعدهم من نصره ومنه وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة وأقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضاً ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً ، وضل ذلك بكرمان . وقدم زياد العراق وهي جرة تشتمل^(٣) فسل أحقادهم وداوى أدواءهم . وابنه عبد الله تولى العراق بعده ، وهو أول من عرف الفقراء ، ودعا الفقراء ، ونكب^(٤) للناكب ، وحصل الدواوين ، ومشى يعين يديه بالعمد ووضع الكراسي ، وعمل للقصور ولبس الزيادي ، وربع الأرباع بالكوفة وخمس الأخماس بالبصرة ، وأعطى في يوم واحد للمقاتلة والذرية

(١) كتب البلدان لابن الفقيه (٢) تاريخ الطبري (٣) القند الفريد لابن عبد ربه (٤) نكب على قومه ينكب نكابة ونكوباً إذا كان منكباً لم يعتمدون عليه والمنكب عريف القوم أو عونهم

من أهل البصرة والكوفة وبلغ بالمقاتلة من أهل الكوفة ستين ألفاً ومقاتلة البصرة ثمانين ألفاً والذرية مائة ألف وعشرين ألفاً . وضبط زياد وابنه عبد الله العراق بأهل العراق . هكذا كانت أعمال المال تسير على أجل مثال .

كتب معاوية إلى سُلَيْم بن عتر قاضي مصر يأمره بالنظر في الجراح والحكم فيها ، وكان الرجل إذا أصيب فخرج بذلك الجرح قصته على عاقلة ^(١) الجراح ، ويرفها إلى صاحب الديوان ، فإذا حضر العطاء اقتضى من أعطيات عشيرة الجراح ما وجب للمجروح وينجم ^(٢) ذلك في ثلاث سنين . والقاضي سُلَيْم هذا أول من سجل في مصر سجلات بقضائه ، وذلك أنه اختصم إليه في ميراث قضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه ، فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ثم سجله . وكان من سياسة معاوية أن يحصى عماله الصادقين ، وما كان يقيد من عماله ويدي ^(٣) من بيت المال .

وابتكر معاوية في الدولة أشياء لم يسبق أحد إليها ^(٤) ، منها أنه أول من وضع الحشم للفلوك ، ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع للقصور التي يصلى فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، وهو أول مسلم غزا في البحر وأنشأ الأسطول في صناعة صور وعكا وطرابلس، وغزا الروم، ولما فتح قبرس ورودس كان معه ١٧٠٠ سفينة، وأهم ما قام به تنظيم الجيش فضاعف عطاءه ووقت أوقاتاً لتناول أرزاق الجند، ووفق إلى استخدام أكبر رجال الإدارة وأعظمهم : زياد ثم عمرو بن العاص والمنيرة بن شعبة والضحاك بن قيس وأبو الاعور السلمي ومسلم بن عقبة وبسر بن أبي اربطة

(١) العاقلة العصبية والأقارب من قبل الأب أي بنو المم الذين يطولون دية قتل الخطأ
(٢) نجم المال جله بنحوما والجمع الوقت المضروب . ونجمت المال وزعته كأنك مرحت ان تدفعه عند
طالع كل نجم ثم أطلق النجم على وقته ثم على ما يقع فيه (٣) أئاد القتال بالقتل قله به يقيد إقادة
واندى فلان اتنا . أخذ الفدية ولم يثار بقتله وأمله لوتدى (٤) خطط الشام للوفد

وحبيب بن سلمة . وكان إذا لامه أهله على كثرة بذله للمال للملوك والهاشميين أجابهم ان الحرب تستلزم نفقات أكثر من هذا العطاء .

وهو أول من وضع البريد ، أحضر رجالا من دهاقين الفرس وأهل عمال الروم فعرفهم ما يريد فوضوا له البريد ، واتخذوا له نقالا بأكف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب النخيل لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم . واستكتب عبد الله ابن أوس النخاسي سيد أهل الشام ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس ، فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ، فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم . ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه وبياله ، فإذا فرغ من التقييم أتى الديوان حتى يثبت ذلك ، وعلى هذا كانت الدولة تحصى السكان ، ولا يفوتها خبر من ينتقل في أرجاء البلدان .

واستخدم معاوية النصارى في مصالح الدولة وكان عمر يتمتع من استخدامهم إلا إذا أسلموا ، فهد إلى سرجون بن منصور ، ثم إلى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام ، بإدارة أمواله . وكان منصور والد سرجون على المال في الشام من عهد هرقل قبل الفتح ، ساعد المسلمين على قتال الروم بأن أبي أن يمك الرجل بالمال^(١) قائلا ان للكل أى هرقل غير محتاج إلى هذا المسكر العظيم ، لأنه يحتاج إلى مال كثير وليس بدمشق مال عظيم ، قالوا انه أراد بذلك أن يسمع الرجال أن ليس بدمشق مال يعطيهم ، فيتفرق الجند ويسلم للدينه إلى العرب .

كان معاوية يحب الاتفاف من كل قوة تستخدم في قيام الدولة وتعين على انتظام الجماعة . ولما رحل جبلة به الأيهم^(٢) إلى الروم وارتد عن إسلامه دعا معاوية بن أبي سفيان إلى الرجوع إلى الإسلام ووعدته إقطاع النفقة بأسره . يريد

(١) خطط الشام للوقت (٢) الأفاق للاسفهان

بذلك تلافى خطأ عمر بن الخطاب يوم أبى إلا إقامة الحد على جيلة فكان من ذلك فراره إلى الروم . و« كان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام كما كان آل نصر عمال الأكاسرة على عرب العراق . »

وباتخاذ دمشق دار الخلافة بعد أن كانت دار إمارة الشام وحدها ، انتقلت سياسة الملك من المدينة فكثر سكان الفيحاء من العرب ، يقصدها طلاب العمل وغيرهم من الأقطار ، ويختص الخليفة أهل الشام بنياته ، ويستعمل الصالحين من أهل النعمة في أعماله الإدارية . ورأى النصارى أكثرية في الشام ، فنقل إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسياسة ، وأنزل بعضهم أنطاكية ، وأصل الزط من السند يلب السواد على سحناتهم ، وقتل قوماً من فرس بلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وقتل من أساورة^(١) البصرة والكوفة وفرس بلبك وحمص إلى أنطاكية جماعة . هذا عدا القبائل العربية التي أسكنها الشام فزجهم بأهلها الأصليين حتى يكون آمناً في دار ملكه . وبعله هذا أصبح الساحل الشامي غاصاً بالعجم والعرب ، وذلك تقادياً من أن يستأثر النصارى وحدهم بفتح البلاد من البحر ، وفي مزج العرب بالفرس بسكان البلاد الأصليين يصبح كل عنصر رقيباً على العنصر الآخر ومنافاً له . ولما صالح صاحب قبرص خير أهلها بين أن يسكنوا الشام أو يرتحلوا إلى بلاد الروم . ولئن غدت دمشق قبلة الاسلام ودار الملك فقد ظلت للمدينة عاصمة الفقه والدين مدة خلافته وخلافة من خلفوه ، وما جمل مقره في الشام إلا لأن أهلها أحبه لما بلوه ، وكفى بههد إمارة عليهم أن يعرفهم ويعرفوه ، ويطبع طباعهم بطابع الطاعة والتزام جانب الجماعة . وخصلة أخرى أيضاً وهي أن دمشق متوسطة بين البلاد الاسلامية أكثر من الحجاز ، وفي الشام من

(١) الأساورة قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً كالآسامرة بالكوفة قيل أصل الأساورة أساور

ولما عوض عن البلاء كالزناديق والزنادقة

الخبرات الطبيعية والأعمال الصناعية ما يمتار منه الجيش ويرتقى ، وما يترفه به العلية من رجال الدولة ويقوون ، ونحن على صواب إذا قلنا إن دمشق أصبحت في عهد معاوية ثم في عهد الخلفاء مدرسة يتخرج فيها القواد والأمراء والجند .

ومن أهم ما قام به معاوية للتأثير في الرأي العام حسن معرفته باستخدام الشعراء^(١) وكان الشعراء كأرباب الصحافة في ذاك العصر ، فانتفع بهم لمصلحة الدولة ، وتكوين الوطنية العربية ، فأبعد الشعر عن الهجوم للألوف بين القبائل وجعله أداة عمل صالحة . ولم يغفل معاوية في وقت من الأوقات عن تعهد الزراعة وعنى بها في الحجاز عناية خاصة ، فأحيا موات الأرضين ، واحترف الآبار للسقيا ، وأقام أسدادا للارتفاع بالمياه ، وسرت أسرته ومعاصروه على طريقته ، فشهدت الحجاز قرناً من الارتقاء لم تره من بعد . هذا مع أن طبيعة الحجاز قاسية غير ملائمة ، ولكن الخليفة العاقل ما أحب لأهل الحجاز أن يعيشوا من العطايا والصدقات وموسم الحج ، لأنها موارد غير طبيعية في العاش ، ومذاهب في الاتكال لا يؤمن مع زوالها عيش ونعمة . وصالحته الروم معاوية على أن يؤدي إليهم مالاً وارتهن معاوية منهم رهناً فوضعهم يبعبك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا وفاء بنذر خير من غدر بنذر .

كان معاوية في الابداع بتأسيس دولة الأمويين كعمر بن الخطاب في إبداعه بإنشاء دولة الراشدين ، ومع هذا فقد قيل إن أحد الصلحاء مثل أيام معاوية كيف تركت الناس قال : تركتهم بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهى . كأنه يريد أن تكون إدارة اللالك على عهد ابن أبي سفيان ، كما كانت على عهد عمر بن الخطاب ، وفاته أن لكل عصر طريقته ورجاله . والقالب أن البعيد لا يقدر الأمور بقدرها كالتقريب ، وأرباب الصلاح يتوهمون أن العدل للطلق يستفيض في الناس بأمر

من الخليفة أو بناية عماله وحدهم ، وأن كل خير لا يأتي إلا من السلطان ، أما المحكومون فليس لهم كبير أثر في إفاضة العدل في العالم ولا تلحق بهم تبعة ، والتقد سهل والصعوبة في الابداع .

قال للسعودي - وهو مشهور بتشدهد في تشييعه - : وأخبار معاوية وسياساته وما أوسع الناس من أخلاقه ، وما أفاض عليهم من بركة واعطائهم وشملهم من إحسانه ، مما اجتذب به القلوب واسترعى به النفوس حتى آثروه على الأهل والقرابات . وقد كان أئتم بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ، ولا اتقانه للسياسة ، ولا الثأني للأموه ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورقه بهم ، ورقه لم على طبقاتهم .

إدارة يزيد ومعاوية الصغير ومروان وابنه عبد الملك

مضت أيام معاوية الطويلة ؛ عشرون سنة أميراً وعشرون أخرى خليفة ، وأوصى ابنه يزيد عند موته بقوله : أنظر أهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك ، فمن أذاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتجاهده ، وانظر أهل العراق فإن سألوك عزل عامل في كل يوم فاعزله عنهم ، فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم . ثم انظر أهل الشام فاجعلهم الشمار دون الدثار ، فإن رابك من عدو ريب فارمه بهم ، فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى بلادهم لا يقيموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير آدابهم . وجه نصيحته إلى قلب للملكة الحجاز والعراق والشام ، لأنها إذا استقامت لا يخشى على الأطراف . وقد كان معاوية عني في آخر أمره بتخريج يزيد ابنه وولي عهده يستشير في المسائل الطارئة ويأخذ برأيه أحياناً ويبعث همته على العمل ، ليتولى الأمر عن كفاءة ، وقد علمه أنساب الناس والنجوم والعربية ، أقام أستاذاً له في ذلك

دغفل بن حنظلة الشيباني ، ومثنى يزيد في إدارته على أثر أبيه ، فكان لا يرضن بالمال مهما عظم في سبيل الخلافة . وقد عليه عبد الله بن جعفر فقال له : كم كان عطائك . فقال له : ألف ألف . قال : قد أضعتها لك . قال : فذاك أنى وأنى ، وما قتلها لأحد قبلك . قال : قد أضعتها لك ثانية . فقيل ليزيد : أتعطى رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف . فقال : ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين ، فما يده إلا عارية ، وما زال يزيد يزيد في إعطائه لمنزله ، ولأنه يريد أن يتألف بواسطته أهل المدينة ، ويرفع يد ابن الزبير عنها وعن دعوى الخلافة .

وما أثر عن يزيد أنه غير شيئاً من أصول إدارة أبيه لاستفراق حرب الحسين ابن علي في العراق وعبد الله بن الزبير في الحجاز معظم أوقاته ، أما ابنه وخليفته معاوية الصغير أو الثاني فكانت خلافته أياماً وما أراد أن يدخل في شيء من مهامها .

كان مروان كماوية آية في عقله وسياسته وتدييره ، درس الإدارة زمناً طويلاً في الحجاز ، وعرف ما يفسد الناس ويصلحهم ، وما يهيجهم ويسكنهم ، ولكن أمره لم يطل كثيراً ، وتستين محاسنه في تدييره الملك مما وقع لابنه عبد العزيز معه ؛ فان مروان لما ولى الخلافة جاء إلى مصر فأقام بها شهرين ثم جعل ولايتها إلى ابنه عبد العزيز؛ جعل إليه صلاتها وخراجها فقال عبد العزيز^(١) : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبي؟ . فقال مروان : يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقاً نصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره^(٢) وينقاد قومه إليك ، وقد جعلت مملك أهلك بشراً مؤناً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخنولك في بيتك .

هكذا دبر مروان ابنه ليخرجه في الادارة ويعلمه حكم الناس ، جل له موسى ابن نصير وزيراً ، وهو ما هو بطله وعقله وحسن سياسته ، وفارق موسى أميره عبد العزيز بعد حين ذاهباً إلى إفريقية وللقرب ، قضى على البربر والرومان ، ثم فتح الأندلس . أما بشر بن مروان مؤنس أخيه يوم تولى مصر ، فقد تقلد البصرة والكوفة فكان الناس يدخلون عليه من غير استئذان ، ليس على بابه حجاب ولا ستر ، ولابن عبدل في بشر بن مروان :

ولو شاء بشر كان من دون بابه طامطٌ سودٌ أو صقالبة حمر
ولكن بشراً أسهل الباب لتي يكون لبشر عندها الحد والأجر
بيدُ مراد العين ما ردّ طرفه حذار الفواشي بابُ دار ولا ستر
استعمل عبد الملك بشراً وأمره بالشدة والغلظة على أهل للمصية^(١) وباللين
على أهل الطاعة وخلف معه أربعة آلاف من أهل الشام منهم رُؤس بن زنياع
ورجاه بن حيوة الكندي ، وهما من أمثل رجال بني أمية وأعلمهم وأسوسهم .
وكان من سياسة بشر أو من سياسة دولته عامة أنه إذا ضرب البعث^(٢) على أحد
من جنده ثم وجده قد أدخل بمركزه أقامه على كرسى ثم سمر يديه في الحائط ثم
انزع الكرسي من تحت رجله فلا يزال يتخبط حتى يموت . وبهذه الشدة على
الجندين ما كانت تحدث أحداً منه بالهزيمة من الخدمة ، وكان جيش أمية أطوع
جيش عربي . ولا يستغرن أحد هذه الشدة فجاء الفار من الجندية في يومنا .
هذا القتل .

رأينا عبد العزيز بن مروان أمير مصر وما كان من نصيحة أبيه له في سياسة
الروساء ليسلس له قياد الرووسين ، وكيف لقنه أبوه أقرب الطرق إلى استمالة الغلوب ،
وكان عند حسن ظنه به ، فجاء عبد العزيز نائبة في إدارته عمرت مصر في أيامه

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢) البعث الجيش أو كل قوم يمشوا واجتمع بمقتضى يمشين ويعوث

عمراناً ليس مثله ، وبما بنى في حلوان والدور والمساجد وغيرها أحسن^(١) عمارة وأحكمها ، وغرس نخلا وكرمها ، وكان له ألف جفنة^(٢) كل يوم تنصب حول داره ومائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر .

ولى عبد العزيز مصر فكان خراجها وجبايتها إليه ، فلم يوجد له مال ناض^(٣) يوم موته إلا سبعة آلاف دينار ، وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، على حين لما مات عبد الله بن عبد الملك بن مروان وكان عاملاً على مصر ترك ثمانين مئداً من الذهب . وتقدم إليه أبوه أن يعفى آثار عمه عبد العزيز لمكانه من ولاية العهد فاستبدل بالعمال عمالاً بالأصحاب أصحاباً ، ذلك لأن عبد العزيز لم يرض أن ينزل عن ولاية العهد لابن أخيه في حياته ، وعبد العزيز هو والد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي العادل .

وجرى عبد الملك بن مروان في إدارة الملك على طريقة والده وطريقة معاوية في تخريج آلِه وعماله في سياسة البلاد ، فزادت الأمور استقراراً والأعمال تسلسلاً ، والعمال رغبة ورهبة ، والراعي أمناً ودعة . وكثيراً ما كان يعمد إلى الشدة لا تأخذه رافة بخصوم دولته . قتل مصعب بن الزبير وكان أحب الناس إليه وأشدهم له إلفاً ومودة وقال في الاعتذار عن عمله : « ولكن للثك عقيم^(٤) » ولقد قيل له أن يأخذ بسيرة عثمان فقال : « وما خالف عثمان عمر في شيء من سيرته إلا باللين فإن عثمان لأن لم حتى رُكب ، ولو كان غلظ عليهم جانبهم كما غلظ ابن الخطاب ما نالوا منه ما نالوا » . وقال : إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة أى باللين أُغِير على الناس في يومهم ، وقطعت السبل ، وتظالم الناس ، وكانت الفتن ، فلا بد للوالى أن يسير في كل زمان بما يصلحه .

(١) الولاية والقضاء الكندي (٢) الجفنة القصة الكبرى (٣) الناض الفرم والدينار (٤) الملك عقيم أى لا ينفع فيه نسب لأنه يقتل في طلبه الأب والولد والآخر والم سعى به لقطع صلة الرحم بالترحم عليه

وهذا هو السر العظيم في نجاح للمالك في كل عصر وأمة . وقال عبد الملك يوماً :
أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسرون فينا ولا في
أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر ، نسأل الله أن يعين كلاً على كل . وسأله ابنه الوليد
يا أبت ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة
بالانصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع ^(١) .

ولى عبد الملك المراقب الحاجاج بن يوسف التتقي فقال : دلوني على رجل
أوليه ، فقبل له أى الرجال تريد ؟ قال : أريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين
الأمانة ، أعجب الخيانة ، لا يحتمق في الحق على مرة ، يهون عليه سؤال الأشراف في
الشفاعة . فقبل عليك بعبد الرحمن بن عبيد التيمي فأرسل إليه فاستعمله فقال له :
لست أقبلها إلا أن تكفيني عمالك ووليك وحاشيتك . فقال الحاجاج : يا غلام ناد
من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت النعمة منه . قال الشعبي : فوالله ما رأيت قط
صاحب شرطة مثله كان لا يحبس إلا في دين ، وكان إذا أتى برجل نقب على قوم
وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان إذا أتى برجل نباش حفر له قبراً
ودفنه فيه حياً ، وإذا أتى برجل قاتل بمحديدة وأظهر سلاحاً قطع يده ، فربما أقام
أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد ، فضم إليه الحاجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة .
خطب الحاجاج أهل العراق : « إني رأيت آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما
صلح به أولها : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإني أقسم بالله لآخذن
الولى بالمولى ، والقيم بالظاعن ، وللطبيع بالعاصي ، حتى يلقي الرجل أخاه فيقول :
أنجُ سمد فقد هلك سُمَيْدٌ ، أو تستقيم لي قناتكم » ولما اتصل بعبد الملك إمراف
الحجاج في ^(٢) القتل وأنه أعطى أصحابه الأموال كتب إليه : أما بعد فقد بلغني
سرفك في السماء وتبذيرك الأموال ، وهذا ما لا أحتمله لأحد من الناس ، وقد

(١) الصنائع جمع صنعة أى الاحسان والصنائع المصطنعون (٢) الاشراف لابن أبي الدنيا

حكمت عليك في القتل بالقود ، وفي الخطأ بالدية ، وإن ترد الأموال الى أصحابها فانما للال مال الله ونحن خزانه ، وقد متعنا بحق فأعطينا باطلا . كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في أخذ الفضل من أموال السواد فنعمه من ذلك وكتب إليه : « لا تكن على درهمك للأخوذ أحرص منك على درهمك للتروك ، وأبقى لهم لحوماً يقدون بها شحوماً » .

وكان الحجاج يأخذ بأيدي العلماء ممن لا يتدخلون في سياسته ولا يشاركونه في سلطانه ، ويضع في كل يوم ^(١) ألف خوان في رمضان وفي سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر ، وكان يحمل في محفة ويدار به على موائده ويتفقدوها ، فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليحییء بسكرها فابطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر أمر بضربه مائتي سوط ، فكانوا بعد ذلك لا يمشون إلا متأبطي خرائط السكر . وكان يوسف بن عمر والي العراق في أيام هشام بن عبد الملك يضع خمسمائة خواف ، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة ، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره ، فكان عند الناس أحمد .

واشتهر عهد الحجاج ^(٢) باصلاح للوازن والخراج والزراعة فهو رجل الدولة باصلاحاته ، ولم يكن مصلحاً فحسب بل كان مصلحاً وموحداً ، ومن إنجازاته وضع الحركات والاعجام في المصاحف لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن . واتخذ ^(٣) الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطبايعين فكان يضرب للال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوفة والبهرجة ، ثم أذن للتجار وغيرهم في أن تضرب لهم الأوراق واستقلها من فضول ما كان يؤخذ من فضول الأجرة للصناع والطبايعين وختم أيدي الطبايعين

(١) العهد القديم لابن عبد ربه (٢) مجلة الاسلام - مادة الحجاج (٣) فتوح البلدان للبلاذري

حرّض عبد الملك ابنه على للشاوره في قضاء الأمور لما وسد إليه إمارة مصر
قائلاً له : أنظر أى بنى إلى أهل عملك فإن كان لم عندك حق غدوة فلا تؤخره
إلى عشية ، وإن كان لك عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند
محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعيّتك منك كذب ،
فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم
فإن لم يستبن لك فاكتب إلى يأتك رأي فيه إن شاء الله ، وإن كان بك
غضب على أحد من رعيّتك فلا تؤاخذ به عند سورة^(١) الغضب ، واجس
عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون ، وأنت ساكن الغضب
مطلقاً الجرة ، فإن أول من جل السجن كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل
الحسب والدين والروءة فيكونوا أمحباك وجلساءك ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم ،
على غير استرسال ولا اقتباس ، أقول هذا وأستخلف الله عليك ، وهذا من
أجل أساليب الادارة وسياسة الناس : لا تأخير في الفصل بينهم ، ولا كذب في
الوعود والمواعيد ، واستشارة العارفين والعالمين ، وجعلهم وحدهم بطانة وصمّاراً
وجلساء ، ولا إسراع في إزال العقوبات حتى يذهب الغضب .

وبلغ عبد الملك أن بعض كتابه قبل هدية فقال له : والله إن كنت قبلت
هدية لا تنوى مكافأة للمهدى لها إنك لنثم دنى ، وإن كنت قبلتها تستكفي رجلاً
لم تكن تستكفيه لولاها إنك خائن ، وإن كنت نويت تمريض للمهدى عن هديته
وأن لا تحون له أمانة ولا تتلم له ديناً فلقد قبلت ما بسط عليك لسان معامليك ،
وأطعم فيك سائر مجاوريك ، وسلبك هيبة سلطانك ، ثم صرفه عن عمله . ذلك
لأن غاية الخليفة ترتيب قواعد الدولة على أصول قمية من الثوابت ، والرشوة من
من طريق الهدايا تذهب بها حقوق أحد للتنازعين أو حقوقهما معاً . وكان

عبد الملك بن رفاعة أمير مصر (٩٦) يقول : إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق .

وأدخل عبد الملك أموراً جديدة في الإدارة وهو أول من أفرد للظلامات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر ، وكان إذا قد قضا أقيم على رأسه بالسيوف وينشد قول سعيد بن عريض بن عاديء من يهود الحجاز :

إنا إذا مالت دواعي الهوى وأنصت الساكت للقائل

واصطرح الناس بالبأسهم قضى بحكم عادل قاضل

لا نجمل الباطل حقاً ولا ناط^(١) دون الحق بالباطل

نخاف أن تسفه أعلامنا فنضمحل الدهر مع الخامل

وزاد عبد الملك الجزية ، وأقل الجزية ديناراً وأكثرها مفوض إلى الاجتهاد ، استقل ما يؤخذ منها بالجزيرة — وكانت ديناراً على كل جمجمة ومدين فحاً : وقسطن زيتاً وقسطن خلاً ، وضما عليهم عياض بن غنم في الفتح — فأحصى عبد الملك الجماع وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم ، وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه^(٢) وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك لكل واحد أربعة دنانير ، فألزهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة ، ثم حمل الأموال على قدر قربها وبعدها^(٣) ، وهذا خلا نوائب الرعية وهو ما يضر به عليهم الامم من الخوائج كاصلاح القناطر والطرق وغير ذلك مما فيه عمارة بلادهم .

وفي أيامه قلت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والرومية والفارسية إلى العربية فكان ذلك من أهم الأسس التي أقيمت في بناء القومية العربية في للملك

(١) لعل بالامر لزمه ولعل عليه الخبر ستره (٢) الادم ما يتدم به واتدم أكل الخبز مع الادام وإدام الطعام هو ما يحمل مع الخبز فيطيه (٣) الخراج لأبي يوسف

الاسلامية كافة ، وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعاجم ، فأصبحت البلاد عربية بأوضاعها سائرة إلى التعرب بسكانها . وكان كاتب الرسائل سليمان بن سعد الخنسي من أهل الأردن أول مسلم ولى الدواوين كلها ، وكان يتولاها القبط والروم والعجم ، وكان بالبصرة والسكوفة^(١) ديوانان لا يعطاه الجند والمقاتلة والذرية بكتاب العربية ، وديوانان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية ، فحول ديوان العراق إلى العربية أبو الوليد صالح بن عبد الرحمن البصري ، قدمه لذلك الحاج فكان كتاب العراقيين كلهم غلمانه وتلاميذه^(٢) ونقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة الوليد ابن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية ، وجعل على الديوان ابن يربوع الفزاري من أهل حمص ، وتأخرت بعض البلاد في هذا التغيير من رسم الادارة ، فان أول من كتب بالعربية في ديوان اصبهان سعد بن إلياس كاتب عاصم بن يونس عامل أبي مسلم صاحب الدعوة . وهو أول من أخذ الناس بتعلم القرآن من أهل اصبهان ، يقال إنه استقرأ للسلمين بها فلم يجد إلا ثمانين رجلا لم يكن فيهم من يحفظ القرآن إلا ثلاثة ، فلم يحل الحول حتى تعلم الناس القرآن وحفظوه .

وعبد الملك أول من كتب على الدينار (قل هو الله أحد) وذكر النبي في الطوامير^(٣) ، وكانت الدنانير رومية تدخل من بلاد الروم ، والدرام كسروية وحميرية^(٤) قليلة ، فهو أول من ضرب الدرهم للنقوشة ، وكان على خاتمه قبضة ابن ذؤيب والبريد اليه ، يقرأ الكتب إذا وردت ثم يدخلها على عبد الملك فيخبره بما فيها^(٥) . ومن أهم أعمال الدولة وظيفة صاحب الشرطة ، ومن أعماله أن يحجب الناس ويحافظ على الخليفة ، وكان الأمويون لا يأذن خلفاؤهم بالدخول عليهم إلا

(١) أدب لكتاب الصولي (٢) خط الميرزي (٣) الطومار الصحيحة والجمع طوامير (٤) الاحكام

السلطانية للاروصي (٥) طبقات ابن سعد

بالترتيب الذى عينوه . والولاة ينزلون فى المسكر تحيط بهم الجند لتسهيل المحافظة عليهم فلا يقتلهم مقاتل . وقد ينتقلون فى عمالاتهم ، فزياد يقيم بالكوفة ستة أشهر وفى البصرة مثلها^(١) ، وهو أول من سير بين يديه بالحرايب والعمد واتخذ الحراس خمسمائة لا يفارقون مكانه . وكانت تقرأ عهود القضاة الذين نصبوا حديثاً فى للسجد الجامع أولاً ، ثم يقصدون دار الأمير فيقرأ أمامه عهد القاضى . والقضاة يقضون فى الجوامع ، وكان الجامع فى الاسلام هو المجمع والمجلس والمحكمة وديوان المال وللدرسة وكل ماله علاقة بالسلطان والكلان .

أما الولاة فيدبرون ولاياتهم فى المسكرات ، والمسكرات بعيدة عن دور الحكومة القديمة . ولا ليس^(٢) من مدينة عظيمة إلا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة . وإذا رحل الجيش اضطر إلى النزول فى القرى لشدة البرد فى الشتاء يؤيه أهلها ثلاثة أيام ويطعمونه مما يطعمون .

كان جيش عبد الملك ومن بعده من المنصر العربى ، ولما توسع الأمويون فى فتوحهم شمالى إفريقيا وفتحوا الأندلس جندوا أناساً من البربر ومزجوجهم بجند العرب . بعث عبد الملك ابنه مسلمة لغزو الروم فقدم الناس من جميع الآفاق ، وكان فيهم من العرب كندة وغان وتميم وهمدان وريمة وطى ولخم وجذام وقيس وجماعة بنى أمية وقرش ورؤساء أهل الحجاز والجزيرة والشام ومصر . ثم عرض الناس فانتخب منهم ثلاثين ألفاً من أهل البأس والنجدة ، واتخذ من الخيل والفرسان ثلاثين ألفاً ، وولى على رؤساء كل طائفة واحداً منهم . ويقول البلاذرى^(٣) إن مسلمة بن عبد الملك لما غزا عمورية حمل معه نساء وحمل ناس ممن معه نساءم . وكانت بنو أمية تفعل ذلك إرادة الجدى فى القتال للغيرة على الحرم . هكذا كان

(١) تاريخ أبي الفداء . (٢) المسالك والممالك لابن حوقل . (٣) صوح البلدان للبلاذرى

ترتيب جيوشهم في هذا الدور . وكانت أمور الحرب بيد الولاة في الولايات تقوم^(١) بها القبائل للهجرة إليها ، أما جيش الخليفة الخاص وهو عبارة عن أجناد الشام فكان خاصاً بقتال الروم وحماية الخليفة من فتنة داخلية ، وبفضل هذه القوى المختصة للأموين ظفروا في الحرب الأهلية سنة ٦٤

وجرى عبد الملك على طريقة عمر ومعاوية وزياد والحجاج في أخذ نفسه بالتطلع إلى استلام بواطن أمور الرعايا ، وكذلك كان في التطلع إلى أخبار الروم وغيرهم ممن كانوا يودون أبدأً أن يكيدوا للمسلمين . ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين في سنة سبعين فصالحهم عبد الملك على أن يؤدي إلى ملكهم في كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين ، وطمع الروم لافتراق الكلمة وقتل الأمة على الملك^(٢) لما دعا عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق إلى نفسه بالخلافة ، واستولى على دمشق لما سار عبد الملك بجيوشه إلى العراق ، ليملكها من ابن الزبير . فعزل عبد الملك في اتقاء بأس الروم كما عمل معاوية لما شغل بقتال على ، فصالح الروم على مال يؤديه إليهم ، وليس من الحزم في دولة أن تحارب حريين داخلية وخارجية في وقت واحد . وفعل عبد الملك مثل ذلك في مداراة الروم فجدد الهدنة مع ملكهم على أن يدفع لهم كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً ويقاسم ملكهم على خراج قبرص وإرمينية على شرط أن يخرج اللبانيون من جبلهم وكانوا عصوا عليه واتفقوا مع الروم ، وآلى اللبانيون بعد ذلك أن لا يتعرضوا للعرب ، فلقب اللبانيون بالمردة لأنهم عصوا أمر ملك الروم . وما كان عبد الملك إلا محافظاً على اعتداله لا يدهش لما يحل به من المظلمات^(٣) يحل مسائل الدولة بروية وتعقل وصبر . ويعدّ عبد الملك في العلماء كما يعد من أكبر الساسة . قال الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سنان قرش وسيفها رأياً وحزماً ، وعابدها قبل أن يستخلف

(١) ملة الاسلام - مادة أمية (٢) دول الاسلام للنهي (٣) المظلمات الأمور الشديدة الغشبية

ورعاً وزهداً . وهو أول من لقب من الخلفاء بلقب للوفيق لأمر الله ثم لقب الوليد للنتقم^(١) لأمر الله . ولم يشتهر يهذين اللقبين كثيراً^(٢) . وأوصى عبد الملك أولاده أن يعطف الكبير منهم على الصغير ، وأن يعرف الصغير حق الكبير ، وحدّثهم البغى والتحاسد ، وأوصاهم بأخيهام مسلمة وأن يصدروا عن رأيه ، وأن يكرموا الحجاج فإنه هو الذى وطأ لهم هذا الأمر . أوصى به ولطالما تبرم من أعماله فى حياته . والحجاج وزيد وعتبة بن أبى سفيان وخالد القسرى الذى تولى العراق زمناً طويلاً ، وقتيبة بن مسلم أمير خراسان وفتح خوارزم وسمرقند وبخارى الذى دخل إلى ملك الصين وضرب عليه الجزية وأمثلم ، كانوا فى بنى أمية « قطب الملك الذى عليه مدار السياسة ، ومعادن التدبير ، ونباتع البلاغة وجوامع البيان ، هم راضوا الصواب حتى لانت مقاودها ، وخزمو الأنوف حتى سكنت شواردها ، ومارسوا الأمور ، وجربوا الدهور ، فاحتلوا أعباءها ، واستفتحوا مقالقها حتى استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، وفذت عزائم السلطان^(٣) » .

أدرة الوليد وسليمان

وتولى الوليد بن عبد الملك الخلافة فسار على سيرة أبيه وراعى إخوته وحث أولاده على اصطناع المعروف ، وكان غرامه بمران البلاد وإقامة للصانع والجوامع واعتقاد^(٤) الضياع فقلده رعاياه فى ذلك ، فكان الناس فى أيامه يخوضون فى رصف الأبنية ويحرصون على التشييد والتأسيس ويولعون بالضياع والعمارات^(٥) لوفرة الثروة فى أيدي الناس . وقد كتب أحد عمال الوليد بن عبد الملك أن ييوت الأموال

(١) عاضرات الراغب الإصفهاني (٢) اصطنع بعضهم ألقاباً للخلفاء الراشدين ومن يعدم إلى دولة بنى العباس فرد الثامنون هذه الألقاب للفتنة (٣) القصد الفريد لابن عبد ربه (٤) اعتقد الضياع اقتناها واعتقد مالا جمه (٥) لطائف المعارف للتمالي

قد ضاقت من مال الخس فكتب اليهم أن يبنوا للمسجد . وأجرى الوليد على القراء وقوام المساجد الأرزاق ، وكذلك على العميان وأحابب الماهات والمجذمين ، وأخدم كل واحد منهم خادما ، وكان يهب أكياس الدراهم تفرق في الصالحين ، وأخرج لميالات الناس الطيب والكسوة وزاد الناس جميعاً في المطاء عشرة عشرة ، وذلك للشاميين خاصة ، وزاد أهل بيته في جوائزهم الضعف . وفي مئات الألوف من الدنانير التي أنفقها على إقامة الجوامع والمصانع ، وما كان في خزائنه من الأموال التي تكني الدولة خمس عشرة سنة مقنع لمن أراد أن يتصور الأموال التي احتجتها هو ومن قبله من الخلفاء استعداداً للطوارئ .

ودخلت الدولة في حالة استقرار ونظام في الإدارة وانتهى^(١) تعريب المملكة والإدارة ، وأخذت الوظائف الكبرى من النصارى ونُصي آل سرجون الدمشقيون عن إدارة الأموال وبلغت الفتوحات أقصى حدودها . وظهرت أبهة الملك والسلطان ، ومالت الدولة إلى إقامة الأعمال العظيمة على الدهر ، تخليداً للذكر وإشادة بالفضل ، والوليد هو الذي جود القراطيس وجلل^(٢) الخطوط ونظم للكاتبات وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فإنهما جريا في المكاتبات على طريقة السلف . ثم جرى الأمر بعدها على ما سنه الوليد بن عبد الملك إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فصدوا إلى الإطتاب . وكان الوليد موقفاً في فتوحه في الشرق والغرب بفضل قواده وولاته ممن كان يعرف لهم أقدارهم ، وما كانت فتوحه تشغله عن النظر في عمران البلاد . ومن خلق الوليد أنه كان سمحاً يسره أن يرى لهاله شيئاً من الرفاهية . كتب إليه الحجاج إنه أصيب لمحمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار فإن يكن أصحابها من حبلها فرحه الله ، وإن تكن من

(١) ملة الاسلام . الوليد (٢) جل عظم

خيانة فلا رحمه الله . فكتب اليه الوليد إن محمد بن يوسف أصاب ذلك المال من تجارة أهلناها له ، وأمره أن يترحم عليه .

وتوسع الأمويون في هذه الحقبة في إفاضة الأموال على عمالهم ، وكان القاضي بمصر مثلاً يرزق ألف دينار في السنة . كان ابن حجية الأكبر في مصر (٦٩-٨٣) على القضاء والقصاص^(١) وبيت المال ، فكان رزقه من القضاء مائتي دينار ، وفي القصاص مائتي دينار ، ورزقه في بيت المال مائتي دينار وعطاوله مائتي دينار وجائزته مائتي دينار . على أن العادة الجارية عندهم أن لا يعطى العامل سوى رزق واحد . ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الفزو ، فنهى عن يفزو ومنهم من يخرج بدلا . وكانوا يصيرون أنفسهم في أعوان الديوان في بعض ما يجوز لهم للقام به ويوضع به الفزو عنهم . أما الحجاج فكان يشتد في تجنيد الناس لأنه يفظ حذر دائما ، فكان لا يدع قرشياً ولا رجلاً من بيوتات العرب إلا أخرجه « وضرب^(٢) البعث على المحتلين ومن أنبت من الصبيان ، فكانت المرأة تجيء الى ابنها وقد جرود فتضمه اليها وتقول له : بأبي ، جزعاً عليه ، فسمى ذلك الجيش جيش بأبي » وكان تجريد للشبان من ثيابهم للاطلاع على عيوب أجسامهم فينبذ السقيم ويحند السليم . وخطب الحجاج لما جاء والياً على العراق ، وقد بعث بشر بن مروان للمهلب إلى الحرورية وما قال : وإياي وهذه الزراعات والجناعات وقال وقيل وما يقولون وفيهم أنتم ، والله لتستقيمين على طريق الحق أو لادعن لكل رجل شغلاً في جسده ، ومن وجدته بعد ثلاثة من بعث المهلب سفكت دمه ، وانهت ماله وهدمت منزله . فتمر الناس بالخروج الى المهلب . ولا يمنع بعث البعوث عند الشدائد من وجود حيوش عند الخليفة وعماله في الأقطار تشبه الجيش الدائم تحت السلاح يتيسر حشده عند الحاجة بقليل من العناية .

(١) صبح الأعشى للقلقشندي (٢) الأغانى للإصفهاني

وكان سياسة الدولة في هذا العهد كانت صورة من سياسة الحجاج فقد كتب إليه الوليد يأمره أن يكتب إليه بغيره فكتب إليه : إني أيقظت رأبي وأثمت هواي ، وأذنت السيد المطاع في قومه . ووليت الحرب الحازم في أمره ، وقلدت الحراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً أعطيته حظاً من لطيف عنايقي ونظري ، وصرفت السيف إلى التطف^(١) للسي ، والثواب إلى المحسن اله ، تخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب اه .

ولما أنفضى الأمر إلى سليمان بن عبد الملك أقرّ عمال من كانوا قبله على أعمالهم ، وجلس في ضمن المسجد وقد بسطت لديه البسط والتمازق^(٢) عليها ، وصفت الكراسي ، وأذن للناس بالجلوس ، وإلى جانبه الأموال والكساوي وآنية الذهب والفضة ، فبدخل وفد الجند ويتقدم صاحبهم فيشكل عندهم وعن قدموا من عنده ، فيأمر سليمان بما يصلحهم ويرضهم ، فما يطلب أحد شيئاً إلا نوله مرامه ، ورد المظالم وعزل عمال الحجاج وأخرج من كان في سجنه في العراق وأعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكاهن .

ادارة عمر بن عبد العزيز

عمل الخلفاء السبعة الأول من الأمويين في إدارة الملك الاسلامي بما أوحاه إليه عقلهم وعملهم ، فكان الصحابة منهم والتابعون على مثال خالفوا فيه مرغين بعض طريقة الراشدين ، لأن علمهم بالناس زاد بما فتح الله عليهم من البلاد ، ولأنه نشأت أحداث جديدة ، ودخلت في الاسلام عناصر أخرى . وكان عهد الأمويين صورة من دولة عادلة تتساهل في الأخذ بما لا يضر من الأوضاع ، وتقتبس ما تضطرها إليه طبيعة البلاد المفتوحة . وأكثر ما اهتموا له توفير الجباية

(١) التطف الرب (٢) الفرقة والفرق الوسادة والجمع تمازق

مع النظر إلى عمران البلاد والدفاع عن الحوزة ، والحساب للمستقبل بادخار فضل الأموال ، والظهور بمظهر دنيوى لا يعبت بأصل من أصول الدين .

كان أكثر خلفاء الأمويين يقولون العامل إذا حدث في جهته خرق لا يستطيع رتقه ، أو فتنة تهرق فيها الدماء ، وتكلف الدولة مالا ، وجعلوا مهمهم في مقاتلة الخوارج والشيعية في الداخل ، وغزو الروم والتوسع في الفتح من الشرق والغرب في الخارج ، وكثيراً ما كانت بعض الأتعاء تشور على الدولة ، إما لسبب تقاضى الخراج ، أو لأسباب أخرى كما كان من قبط مصر فخرجوا غير مرة على الأمويين وعلى من خلفهم ، وكانوا يرجعون مخذولين ، وربما كان من بعض عمالهم من اشتط في تقاضى الخراج والحزبية والصدقات ، والظلم ما خلا عصر منه ، وخصوصاً في دولة ليست مشاكها متشاكله ، ولا أجيال الناس في أصقاعها متوحدة متماثلة ، وغاية ما يقال في الادارة المتبعة أبدأ توسيع سلطة العامل ، حتى يسرع في قض مصالح الناس ، ذلك لأن العرب ألغوا التقاضى على عجل ، وما عرفوا التطويل في الخصومات والمراجعات . وهذا ما كان ظاهراً كل الظهور في عهد الخوالف من بنى أمية ، ولا سيما في خلافة عمر بن عبد العزيز واسطة عقد الأمويين ، والمثل الأهل للعدل الاسلامى .

كان عمر قبل أن يتقلد الخلافة عهد اليه الوليد بن عبد الملك بإمارة الحجاز « مكة والمدينة والطائف » فأبطأ عن الخروج فقال الوليد لحاجبه : وما بال عمر لا يخرج الى عمله . قال : زعم أن له اليك ثلاث حوائج قال : فمضجه على فخاء به الوليد . فقال له عمر : إنك استعملت من كان قبلى فأنا أحب أن لاتأخذنى بعمل أهل المدوان والظلم والجور . فقال له الوليد : إعمل بالحق وإن لم ترفع البنا درهماً واحداً^(١) . فلمر اذاً طريقته في الادارة اشتراط قبل أن يتولى الامارة أن تترك له

حرية العمل . وكان يشعر قبل الخلافة بأن في إدارة الدولة شيئاً من الظلم : فقال يوماً لأُسامة بن زيد - وقد بعثه سليمان بن عبد الملك على ديوان جند مصر وحته على توفير الخراج - : ويمك يا أُسامة إنك تأتي قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل ، فإن قدرت أن تنصهم فأفصحهم .

ولما برع عمر شرع لأول أمره بصرف عمال من كان قبله من بني أمية ، واستعمل أصلح من قدر عليه فللك عماله طريقته ^(١) ، وأخذ يرد المظالم مظلة مظلة لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته إلا رده . وكتب إلى جميع عماله إن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله ، وسنن سيفته سنتها عليهم علماء السوء ، فلما قصدوا الحق والرفق والإحسان . وكان أول خطبة خطبها : أيها الناس من محبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقر بنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفضها ، ويمينا على الخير مجده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه ، ولا يفتان عندنا الرعية ، ولا يترضى فيها لا يسيئه .

وبدا بنفسه فنزل عن أملاكه التي انتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعى . ورد على رجل قدم عليه من حلوان ادعى أن والده عبد العزيز لما كان والياً على مصر أقطعه عبد الملك بن مروان أرض حلوان فورثها عمر وإخوته . فقال عمر : إن لى فيها شركاء إخوة وأخوات لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض . وقام معه إلى القاضى فقدم بين يديه ، فتكلم عمر بحجته وتكلم للدعى ف قضى القاضى له ، فقال عمر : إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم . قال القاضى : قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك . فتلجبت نفس عمر بحكم القاضى وقال : وهل القضاء إلا هذا ، تالله لو قضيت لى ما وليت لى عملاً ، وخرج الى الرجل من ^(٢) حقه . وأراد أهله على أن يتخلوا عن أملاكهم فقطع بالمقراض كتب الإقطاعات بالضياع والنواحي .

(١) المحاسن والمساوى للبيهقي (٢) مروج الذهب للمسعودي

قالوا ولما أقبل عمر على رد للظالم وقطع عن بني أمية جوائزهم وأرزاق حراسهم ، ورد ضياعهم الى الخراج ، وأبطل قطائعهم ضجوا من ذلك على رؤوس اللآ في المسجد . وكانت انتهت لهم هذه الإقطاعات من الخلفاء السابقين . ذكروا أنه كانت غلة عمر لما يبيع بالخلافة بين أربعين وخمسين ألف دينار ، وما زال يردها حتى كانت يوم وفاته مائتي دينار ، ولو بقي لردها كلها فأفقر نفسه حتى يقوى على بعض آله ، فيسترد منهم ما أخذوا من عقار ومزارع . وخلف من الناض بضعة دنانير ولم يرتزق من بيت مال المسلمين شيئاً ولم يرزاه^(١) حتى مات . وأداه اجتهاده إلى أن في صيغة امتلاك آل بيته الضياع والرباع نظراً ، وأن ماورثه وورثوه بالطرق للشروعة يقضى العدل المطلق برده على من أخذ منه . واعتقاد الضياع واستثمار الأموال من شأن الرعايا لا الرعاة ، فكان نظره أعلى ، وطريقته أمثل وأعدل .

وكان الرسول أقطع بلال بن الحرث المزني أرضاً فيها جبل ومعدن فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضاً منها فظهر فيها معدن أو قال معدنان فقالوا : إنما بعناك أرض حرث ولم نبكك المعادن وجاؤا بكتاب النبي لهم في جريدة فقبلها عمر ومسح بها عينه وقال لقيمه : انظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصهم بالنفقة ورد عليهم الفضل

وأبطل عمر بن عبد العزيز هدايا النيروز والمهرجان^(٢) وكانت تحمل إلى معاوية ومن بعده وقدرها عشرة آلاف ألف ، وهي من العادات الفارسية ، وأقرها معاوية وأنكرها علي . وقضى عمر بأن يكتب في الخراج وزن سبعة « ليس

(١) رزاه ماله بكلمة وعطه يرزوه رزاً أصاب فيه شيئاً كارتزاه (٢) التهود أو النوروز اسم أول يوم من السنة عند الفرس عند نزول الشمس أول الخلل ، مربوب نوروز أى اليوم الجديد . والمهرجان أول نزول الشمس في برج الميزان

لها آيين^(١) ولا أجور الضرايين ولا هدية النيروز والمهرجان ولا نحن الصصف ولا أجور الفيوج^(٢) ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح، ورفع الخراج عن أسلم من أهل الأرض ، وأبطل جوائز الرسل وأجور المجاهذة وم القساطرة وأرزاق العمال

(١) الآيين العادة والقانون ، وأصل معناه السباسة المسيرة بين فرقة عظيمة . ويقول البيهقي في الآثار الباقية : كان من آيين الأكاسرة أن يبدأ الملك يوم النيروز فيعلم الناس بالجلوس لهم والاحسان إليهم ، وفي اليوم الثاني يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الصحاقين وأهل البيوتات ، وفي اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماء موأذته ، وفي اليوم الرابع لأهل بيته وقرابته وخاصته . وفي اليوم الخامس لرفقه وصنائه ، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والاكرام ويستوفي ما استوجبه من المنة والانتقام ، فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم فنورز نفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أمه ومن يصلح لخلوته ، وأسر بأحضر ما حصل من الهدايا على مراتب المدين فيأملها ويفرق منها ما يشاء ويودع الخزان ما شاء .

وفي كتاب أخلاق الملوك للحافظ أن من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ، والمنة في ذلك أنهما فضلا السنة ، فالمهرجان دخول الشتاء وفضل البرد ، والنيروز إذن بدخول فصل الحار ، إلا أن في النيروز أحوالا ليست في المهرجان ، فمنها استقبال السنة واستئاج الخراج ، وتولية العمال والاستبدال وضرب الفرام والذناير وتذكية بيوت النيران وصب الماء وتقريب القربان وإشادة البيان وما أشبه ذلك ، فهذه فضيلة النيروز على المهرجان ، ومن حق الملك أن يهدي إليه الخاصة والحامة (العامة والخاصة من الأهل) والمنة في ذلك عندهم أن يهدي الرجل ما يجب من ملكه إذا كان في الطبقة العالية ، فإن كان يجب الملك أهدى مسكا لاغيره ، وإن كان يجب الصبر أهدى عنبراً ، وإن كان صاحب بزة وليسة أهدى كسوة وثياباً ، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان قالته أن يهدي فرساً أو رعباً أو سيفاً ، وإن كان راميا قالته أن يهدي نشاباً ، وإن كان من أصحاب الأموال قالته أن يهدي ذهباً أو فضة ، وإن كان من عمال الملك وكانت عليه موانيد (متأخرات أو بقايا) لسنة الماضية ، جمعها وجعلها في بدر حرير صفي وشربحت فضة وخيوط إبريسم وغوايم عنبر ثم وجهها . وكذلك كان يفعل من العمال من أراد أن يزين بفضل ثقافته أو بفضل عمله أو أداء أمانته . وكان يهدي الشاعر الشعر والخطيب الخطبة والتدبير القصة والطرقة والبأكورة من الخضروات . وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يدين إلى الملك ما يؤثره ويفضله . ويجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تمل أن الملك يهواها ويسر بها أن يهديها إليه بأكل حالاتها وأفضل زيتها وأحسن هيأتها ، فإذا فعلت ذلك فن حقها على الملك أن يقدمها على نساءه ويضمها بالقرلة ويربها في الكرامة . ومن حق البطالة والحامسة على الملك في هذه الهدايا أن تفرض عليه وتقوم قيمة عدل . وكان من تقدمت له هدية في النيروز والمهرجان صرفت أم كبرت كثرت أم قلت ثم لم يخرج له من الملك صلة عند نائبة تنويه أو حق يلومه ، ضليه أن يأتي ديوان الملك ويذكر بنفسه الخ . والقالب أن هدايا النيروز والمهرجان عادت تحمل إلى الخلفاء ولا سيما في عهد بني العباس فقد ذكر صاحب فنوار المحاضرة أنه حملت الهدايا إلى المتوكل في مثل هذه المواسم من كل شئ عظيم طرف طبع .

(٢) الفيوج جمع فيج وهو الساعي أي رسول السلطان الذي يسمى بين يديه

وأنزلهم ، وأبطل السخرة والعتاء وورث العيالات على ما جرت به السنة وأقر القطناع^(١) التي أقطعها أهل بيته ، ولم ينقص العطاء في الشرف ولم يزد فيه ، وزاد أهل الشام في أعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى الرجوع عنها . وورد كتابه على عامله في مصر بالزيادة في أعطيات الناس عامة ، وكسرت دنان الحمر وعطلت حاناتها ، وقسم للفلاحين بخمسة وعشرين ألف دينار ، ونزعت مواريث القبط عن الكور واستعمل السلون عليها .

ووضع المكس^(٢) عن كل أرض واكتفى بالشر ، والعشر ما يجب في الزروع التي سقيت بماء السماء وما يؤخذ من أموال أهل الحرب إلى بلد الاسلام المتناخم لهم ، وإذا استقر الصلح معهم على أخذ العشر أو الخمس أو أكثر منه أو أقل منه أثبت ذلك الشرط في الديوان . ووضع الجزية عن كل مسلم ، وأباح الجزائر والأحماء كلها إلا النقيع^(٣) وقال في الجزائر هوشى : أنبتة الله فليس أحد أحق به من أحد ، وفرض للناس إلا للتاجر لأن التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين ، وسوى بين الناس في طعام الجار ، وكان أكثر ما يكون طعام الجار أربعة أرداب ونصف أردب لكل إنسان . وكتب إلى أحد عماله أن يستبرى الدواوين^(٤) وينظر إلى كل جور جاره من قبله من حق مسلم أو معاهد فيرده عليه فإن كان أهل تلك

(١) أعطاه خليفة من الأرض والقطناع ، طائفة من أرض الحراج (٢) المكس الظلم وهو ما يأخذه البشار وهو مكس وما كس . والاحاء جمع حمى وهو موضع فيه كلاب يحمى من الناس أن ترعى . قال الشافعى في تفسير الحديث لا حمى إلا لله ولرسوله : إن الشرف من العرب في الجاهلية كان إذا نزل بلد في عشيرته استوى كلاً حمى لحامته مدى عواد الكلاب ، لا يشركه فيه غيره ، ولم يرعه منه أحد ، وكان شريك القوم في سائر المواقع حوله ، فنهى الرسول أن يحمى على قنص حمى كالقنا في الجاهلية يظنون إلا ما يحمى لحيل المسلمين وركابهم التي ترصد للجهاد ويعمل عليها في سبيل الله وإبل الزكاة كما حمى عمر النقيع لتم الصدقة والحيل المدة في سبيل الله — نقله في الساج . والجزيرة هي الأرض التي لا يطورها الليل ويحرق بها وفي الأصل كل أرض ينجر عنها المد (٣) والنقيع البئر الكثيرة الماء والجمع أقمعة والنقيع موضع على مقربة من المدينة حملا عمر لتم القنص وخيل المجاهدين لا يرعاه غيرهما والاربع أنه المقصود هنا (٤) استبرأ طلب الإبراء من الدين والذنب واستبرأ الشيء طلب آخره ليقطع الشبهة عنه

المظلمة قد ماتوا يدفعه الى ورثتهم . وقضى على عماله بإبطال المائدة والنوبة^(١) ، ومن أدى زكاة ماله قبل منه ، ومن لم يؤد فآله حسيبه . ورد الخس على أهله وعلى أهل الحاجة ، وقضى أن لا يؤخذ من المعادن الخس بل تؤخذ الصدقة ، وضرب أحدهم سبعين سوطاً لأنه سخر دواب النبط .

وجرت عادة الخلفاء إذا جاءتهم جبايات الأمصار أن يأتهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والقدية بمد أن أخذ كل ذى حق حقه ، أى فضل أعطيات الأجناد وفرائض الناس . وقضى عمر على عماله أن لا ينظروا الأرض ولا يحملوا خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وإن أطلق الخراب شيئاً يؤخذ منه ما أطلق ويصلح ليعمر ، ولا يؤخذ من عامر لا يقتل شيئاً ، وما أجذب من العامر يؤخذ خراجة في رفق . وكانوا بفارس يحرصون الثمار على أهلها ثم يقومونها بسر دون سر الناس الذى يبتاعون به فيأخذونه ورقاً على قيمهم التى قوموا بها ، فرد عمر إلى من شكوا الثمن الذى أخذ منهم وأخذوا بسر ما باع أهل الأرض غلتهم .

كتب إلى عامله إلى البصرة : أما بعد فإني كنت كتبت إلى عمرو بن عبد الله أن يقسم ما وجد بعُمان من عشور التمر والحب في فقراء أهلها ومن سقط اليها من أهل البادية ومن أضافته اليها الحاجة والسكنة واقطاع السبيل فكتب إلى أنه سأل عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنه قد باعه وحمل اليك منه ، فأردد إلى عمرو ما كان حمل اليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضمه في اللواضع التى أمرته بها ويصرفه فيها ان شاء الله والسلام .

(١) النوبة النازلة جمع نوب ونواب الرعية ما يتخيم عليهم من إصلاح القناطر والطرق وسد الشقوق ولعل المائدة ما كان يألفه العمال من إطفاء الناس على مواضعهم ، وهذا مال كبير يمكن اقتصاده حتى لا يسرف في بيت المال .

وأمر عماله بالرفق بأهل النعمة وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال تنفق عليه الدولة فإن كان له حميم ينفق عليه حميمه ، كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن بد من الاتفاق عليه حتى يموت أو يعتق . وكتب إلى عامله على الكوفة أن قو أهل النعمة فإن لا نزيدهم لسنة ولا سنتين ، وأعطى بطريقاً^(١) ألف دينار يستألفه^(٢) على الاسلام .

خاصم حسان بن مالك^(٣) عم أهل دمشق إلى عمر في كنيسته كان رجل من الأمراء أقطعه إياها ، فقال عمر : ان كانت من الخس الشرة الكنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك عليها . وخاصم عم أهل دمشق إلى عمر في كنيسته كان فلان أقطعها لبني نصر بدمشق فأخرجها عن المسلمين وردّها إلى النصارى . وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها في للسجد فهم أن يعيدها اليهم لولا أن المسلمين أقبلوا على النصارى فألوم أن يعطوا جميع كنائس النوبة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمكوا عن المطالبة بها فرضوا بذلك وأعجبهم فكتب به إلى عمر فستره وأمضاه .

وعمر أول من نذب نفسه للنظر في اللطالم في الدولة الأموية فردّها ، وذلك لانتشار الأمر حتى تجاهر الناس بالظلم والتغالب فاحتاجوا في ردع المتغلبين وإنصاف المغلوبين إلى نظر اللطالم الذي تبرز به قوة السلطة بنصفه القضاء . وما شرهت قط نفس عمر إلى أخذ أموال الناس بل ما كان يجب أن يأخذ منهم أكثر من الفضل ويأصح بكثير من هذا الفضل . كتب اليه عامله على العراق أن أناساً قبله قد اقتطعوا من مال الله مالا عظيماً ليس يقدر على استخراجهم من

(١) ان الطريق غير الطريق فالأول لقب ذي منصب سياسي والآخر لقب ذي منصب ديني ، والأول Patrique و Patrice بالفرنسية والثاني Patriarche وقد عربته العرب أيضاً بقولهم بطريق وفي بعض الأحيان يختصرونه ويقولون بطرك — قاله أحمد زكي (٢) استأنف طلب إلفاً صديقاً مؤانسا (٣) شوح البلدان للبلاذري

أيديهم إلا أن يسهم شيء من العذاب . فكتب إليه عمر : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذائك إياي في عذاب البشر ، كأتى لك جنة^(١) من عذاب الله ، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله ، فانظر فيما قامت عليه البينة فخذ بما قامت عليه ، ومن أقر لك بشيء فخذ بما أقر به ، ومن أنكرك فاستحلفه بالله وخلّ سبيله ، فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إليّ من ألّني الله بدمائهم » وكتب إليه عامله على مصر حيان بن شريح : إن أهل القمة قد أسرعوا في الاسلام وكسروا الجزية حتى استلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار لأتم بها عطاء أهل الديوان ، وطلب إليه أن يأمر بتوقيف النعميين عن انتحال الاسلام . فأجابه عمر : « قد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عن أسلم ، فبح الله رأيك ، فإن الله إنما بث محمداً هادياً ولم يبعثه جايأ » وكتب إليه عامله على العراق عدّى بن أوطاة : إن الناس قد كثروا في الاسلام حتى خفت أن يقل الخراج . فكتب إليه : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا . » وقال في إحدى خطبه : وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقراهم حتى نستوى نحن وهم وأكون أنا أولهم . ثم قال : مالي وللدنيا أم مالي ولها .

ولم يشهد مثل تحرى عمر في اختيار العمال وتعليمهم إحسان العمل ، وكان يرى كل مظلة تقع في أقصى البلاد إذا لم يردّها ويكشف ظلامتها صاحبها ، كأنه هو فاعلها أو على الأقل للسؤال عنها . وإذا شكى إليه عامل وتحقق ظلمه جاء به مقيداً ولا يُخلّيه من ضرب يوجهه به . وكان لا يفتأ يبحث عن سيرة عماله ورضا الناس عنهم ، وإذا عزم لا يستعين بهم بعدها أبداً . كتب إلى أحد عماله : « أما بعد فإذا دعيتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم ، فاذكر قدرة الله عليك وفناء ما توثق

اليهم وبقاء ما يأتون إليك » وكتب إلى عامله على العراق : « إن العرفاء من عشائهم
بمكان ، فانظر عرفاء الجند فمن رضيت أمانته لنا ولقومه فأثبتته ، ومن لم ترضه
فاستبدل به من هو خير منه ، وأبلغ في الأمانة والورع » وما كان يضمن على عمله
بالمشاهرات الحسنة وقد قيل له : ترزق الرجل من عمالك مائة دينار ومائتي دينار
في الشهر وأكثر من ذلك قال : أراه لم يسيراً إن عملوا بكتاب الله وسنة نبيه ،
وأحب أن أفرغ قلوبهم من المم بما يشهم . وقال : ما طاو عنى الناس على ما أردت
من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً .

وأخذ عمر نفسه بالسير في إصلاحه بالتدريج ، ناظراً قبل كل اعتبار إلى الدين
لا يحيد عن صراطه قيد أنملة ، ولو كان في ذلك بعض الضرر على بيت المال أو
إدخال بعض الوهن على ما اصطالحوا عليه من قبله ، إرادة لقاء الهيبة في النفوس .
قال لابنه : ما عا أنا فيه أمر هو أهم إليّ من أهل بيتك ، هم أهل العدة والتد
وقبلهم ما قبلهم ، فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره على ، ولكنى
أنصف من الرجل والاثني فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجم له ، فان يرد الله إتمام
هذا الأمر أنه ، وإن تكن الأخرى فحسب عبد الله أن يعلم الله أنه يحب أن
ينصف جميع رعيته . وكتب إلى عامله على خراج خراسان : « إن للسلطان أركاناً
لا يثبت إلا بها ، فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن
الرابع أنا ، وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إليّ ولا أعظم عندى من ثغر خراسان ،
فاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم ، فان يك كافاً لأعطياتهم فبيل ذلك ،
وإلا فاكتب إليّ حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم . ولما وجد خراج
تلك البلاد يفضل عن أعطيات جندها وأهلها قسم عمر الفضل في أهل الحاجة .
وكتب إلى أمصار ^(١) الشام أن يرفضوا إليه كل أعمى في الديوان أو مقعد أو

(١) سمة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى

من به فالج ، أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة ، فأمر لكل أعمى بقائد ، ولكل اثنين من الزماني بخادم . وأمر أن يرفعوا إليه كل يقيم ومن لا أحد له من قد جرى على والده الديوان ، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية ، وفرض للموانس الفقيرات ، وكان لا يفرض المولود حتى يقطع ، فنأدى منأديه لا تعجلوا أولادكم عن الطعام ، فأنأ فرض لكل مولود في الاسلام

وأخذ دار الطعام للساكين والفقراء وابن السبيل ، وأوصى أن لا يُصيب أحد من هذه الدار شيئاً من طعامها لأنه خاص بن طيخ لهم . وقسم في ولد على ابن أبي طالب عشرة آلاف دينار ، وكان الناس في عهده يعرضون على ديوانهم لتناول عطائهم ، فمن كان غائباً قريب القبية يعطى أهل ديوانه ، ومن كان منقطع القبية يزل عطاؤه إلى أن يعلم أو يأتي نعمة أو يوكل عنه الوالى بوكالة بينة على حياته ليدفعه إلى وكيله . ونظر في السجون وأمر أن يستوفى من أهل الدعارات^(١) ويكتب لهم برزق الصيف والشتاء ويعاهد مريضهم ممن لا أهل له ولا مال ، ولا يجمع في السجون بين قوم حبسوا في ذنن وبين أهل الدعارات في بيت واحد ، ولا حبس واحد ، وجعل للنساء حبساً على حدة ، وعهد بالحبوس إلى من يوقن بأمانتهم ومن لا يرتشى « فإن من ارتشى صنع ما أمر به » وأنشأ الخانات في بلاده يقرى من مر بها من المسلمين يوماً وليلة ويتمهد دوابهم ، ويقرون من كانت به علة يومين وليلتين ، فإن كان منقطعاً به يقومى بما يصل به إلى بلاده ، وأمر أن لا يخرج من لأحد من العمال رزق في العامة والخاصة ، فانه ليس لأحد أن يأخذ رزقاً من مكانين في الخاصة والعامة . وأطلق الجسور والمابر للسابلة يسبرون عليها بدون جُل لأن عمال السوء تمدوا غير ما أمروا به ، وجعل لكل مدينة رجلاً يأخذ الزكاة .

(١) استوفيت منه أخذت في أمره بالوثيقة ، وأهل الدعارة أهل الفساد والشر

ولى عاملا له على الوصل فلما قدمها وجدها من أكثر البلاد سرقا^(١) وبقا ، فكتب إلى عمر يطلعه حال البلاد ويسأله أخذ الناس بالظنة ، وضربهم على التهمة أو يأخذهم بالبينه . فكتب : أن خذ الناس بالبينه وما جرت عليه السنة فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . وكتب إليه أحد عماله يذكر شدة الحكم والجباية ، فأجابه أنه لم يكلفه ما بُعِثَته وأن يجي الطبيب من الحق ويقضى بما استنار له من الحق ، فإذا التبس عليه أمر يرضه إليه قائلا : فلو أن الناس إذا قل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا . وكتب إلى أحد عماله : إن العمل والعلم قريان فكأن عالما بالله عاملا له ، فإن أقواما علموا ولم يصلوا فكان عملهم عليهم وبالا . وكتب أيضا : أما بعد فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل للفسدين . وكتب إلى عامل : أن دع لأهل الخراج من أهل الفرات ما يتختمون^(٢) به الذهب والفضة ، ويلبسون الطيالة ويركبون البراذين ، وخذ الفضل . وكتب إلى عامله : أما بعد فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون .

وكتب إلى أمير مكة أن لا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجرا فإنه لا يحل لم لقوله تعالى : « سواء العاكف فيه (أى فى البيت) والباد » . والبادى من يخرج من الحجاج والمعتبرين سواء فى المنازل يزلون حيث شاءوا ولا يخرج أحد من بيته . وكتب إلى عامله على مكة والطائف أن فى الخلايا صدقة تخذوها منها ، والخلايا السكوات كواثر النحل . وكتب إلى عامله على اليمن يأمره بالناء الوظيفة والاعتصار على العشر ، وقال والله لان لا تأتىنى من اليمن حفنة كتم أحب إلى من إقرار هذه الوظيفة . وكان ضربها محمد بن يوسف على أهل اليمن ، وهى الخراج جعله وظيفة .

(١) يقال السرقة والسرقة والسرقة (٢) تختم بالمقضى ليه وبالذهب والفضة أيضا

وما كان عمر مذ كان والياً على المدينة يقطع أمراً بدون استشارة ، وكان دعا إليه عدة من الفقهاء وحرصهم على أن يبينوا له زلاته إذا رأوا منه ذلك وسمعوا ، فكان إذا جلس مجلس الإمارة في عهد خلافته أمر فأتى لرجلين منها وسادة قبائله فقال لهما إنه مجلس شيرة وفتنة ، فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلى فإذا رأيتمنا مني شيئاً لا يوافق الحق فخوفاني وذكراني بالله عز وجل . وكان يقول ، بعد أن ولي الخلافة ، لأن يكون لي مجلس من عبيد الله — أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ومؤدبه لما كان صغيراً — أحب إلي من الدنيا وما فيها . وقال : وإني والله لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بألف دينار من بيت المال . فقالوا : يا أمير المؤمنين قول هذا مع تحرّيك وشدة تحفظك . فقال : أين يذهب بكم والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهديته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف . وكان يحب السمر مع أهل الفضل قليل له في ذلك فقال : لقيه الرجال تلقيح الألباب . وقال : إن في المحادثة تلقيحاً للعقل ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهم ، وتنقيحاً للأدب . وما زال يرد للظالم ويحيي السنن ويطفي البدع ويقسم الأموال والأعطيات بين الناس . وردّ ذلك إلى ما كانت عليه أي إلى آل الرسول .

أبعد عمر بن عبد العزيز عن حماء الشعراء والخطباء ، وما كان يحب اللديج والهجاء ، وهو يعرف استرسال الشعراء في الهجون والمزحل^(١) ، وأنهم يمدحون من يطمحهم ويهجون من يرضن عليهم ، وإذا كان رجل جدّ وتقوى جهم فانشعروا^(٢) عنه كلهم ، وثبت الفقهاء والزهاد فكان يطمحهم عطاءً كثيراً ، أما الشعراء فاكثفوا بالقليل الذي كان يطمحهم من ماله الخاص ، وأعطى قوماً في حمص نصبوا أنفسهم للفقّه وجسوها في المسجد عن طلب الدنيا مائة دينار لكل رجل منهم ، يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين . وبمحن سياسته سكنت الخوارج في

(١) المقدّم لآل بن عبد ربه (٢) تفرقوا

أيامه فلم يشوروا لأنه ناقشهم فأفهمهم وأقسموا أن لا يشغبوا مادام خليفة . وما حدثه
نفسه قط بإهراق دماء من خالفوه في مذهبه . وقد كتب إلى عامله على الكوفة
أن يستتيب القدرية بما دخلوا فيه ، فإن تابوا يحلى سبيلهم وإلا فينفيهم من ديار
المسلمين . أراد بذلك حقن دمايتهم ، وكان غيره من الخلفاء يبادر إلى قتلهم .

وطريقة عمر في إدارة ولاياته طريقة أسلافه في اطلاق الحرية للعامل ،
لا يشاور الخليفة إلا في أم المهمات مما يشكل عليه أمره . كتب إلى عامله على
الين : أما بعد فاني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم ، فتراجعني
ولا تعرف مسافة ما بيني وبينك ، ولا تعرف أحداث اللوت حتى لو كتبت إليك
أن اردد على مسلم مظلة شاة لكتبت أرددها عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على
للمسلمين مظالمهم ولا تراجعني . وأملى على كاتبه يوماً كتاباً إلى عامله على الكوفة
قال فيه : « إنه يُخَيَّل إلى أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلاً شاة لكتبت إلى »
أضأن أم ماعز ، فان كتبت بأحدهما كتبت إلى أصغير أم كبير ، فان كتبت إليك
كتبت إلى أذكر أم أنثى ، فإذا أتاك كتابي هذا في مظلة فاعمل به ولا تراجعني »
وكتب إلى آخر : « إنك تردد إلى الكتب فننذ ما أكتب به إليك من الحق ،
فانه ليس للموت ميقات نعرفه » .

قال له بعض أصحابه عليك بأهل الضر قال : من هم ؟ قالوا : الذين إن عدلوا
فهو ما رجوت منهم ، وإن قصروا قال الناس قد اجتهد عمر . وكان ينهى عماله عن
المثلة ^(١) في العقوبة أى جز الرأس واللحية ، وينهاهم عن الاسراف حتى في القراطيس
التي يكتبونها فيها . فقد قيل له : ما بال هذه الطوامير التي تكتب بالقلم الجليل
وتعد فيها وهي من بيت مال المسلمين . فكتب إلى العمال أن لا يكتبن في طومار
ولا يمدن فيه . قالوا وكانت الطوامير شبرا ونحو ذلك . ومما كتب إلى أحد

(١) المثة بضم الميم ونقمتها العقوبة والتكبل

عماله : أدق قلبك ، وقارب بين سطورك ، واجمع حوائجك فاني أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به . وكان عمر من كبار الكتاب والخطباء ، وكان إذا خطب على المنبر تخاف فيه المعجب قطع ، وإذا كتب كتاباً تخاف فيه المعجب مزقه ، ويقول : اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي . ولما بويع بالخلافة دعا إليه كاتباً فأملى عليه كتاباً واحداً من فيه إلى يد الكاتب بغير نسخة فأملى أحسن إملاء وأبلغه وأوجزه ، ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بلد . قالوا وجعل يكتب يديه إلى المال في الأمصار ^(١) .

كان عمر يحسن ظنه بعماله ولا يتخلى عن كشف أحوالهم فقد وفد عليه بلال ابن أبي بردة بخناسرة فقال عمر للعلاء ^(٢) بن المغيرة بن البندار ، وقد رأى بلالاً يديم الصلاة : إن يكن سرّ هذا كملانيتها ، فهو رجل أهل العراق غير مدافع . فقال العلاء : أنا آتيك بخبره ، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال : اشنع صلاتك فإن لي إليك حاجة ففعل ، فقال له العلاء : قد عرفت حالى من أمير المؤمنين فإن أنا أنشئت بك على ولاية العراق فما تجمل لي ؟ قال : لك عمالتي ^(٣) سنة ، وكان يجلبها عشرين ألف ألف درهم . قال فاكتب لي بذلك . قال : فأرقد ^(٤) بلال إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة فكتب له بذلك . فأتى العلاء عمر بالكتاب ، فلما رآه كتب الى والى الكوفة : « أما بعد فإن بلالاً غرنا بالله ، فكذلكنا نفتقر ، فسبكتنا فوجدناه خبيثاً كله والسلام » وبلال هذا كان فيما يقال أول من أظهر الجور من القضاة في الحكم ، وكان أمير البصرة وقاضيا . وكان عمر يقول : لا ينبغي للرجل أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال : يكون عالماً قبل أن يستعمل ، مستثيراً لأهل العلم ، ملتقياً للرائع ^(٥) ، ومنصفاً للخصم ، ومقتدياً بالأئمة .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (٢) الكامل للبدر (٣) العالة الاجرة (٤) أرقد أسرع (٥) الرائع الطمع

سخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن المهيم فعزله عن شرطة الكوفة ، فشكا ذلك الى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه : إن من حفظ أنتم الله رعاية ذوى الأسنان ، ومن اظهار شكر للوهاب صفح القادر عن الذنوب ، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع واستتمام الصنائع . وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك فلبثها عجلة سُخْطك وما أنصفته ، غَصَبْتُه على أن وليته ثم عزلته وخليته ، وأنا شغيبه ، فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ، ولا تخرجه من حسن رأيك ، فتضيع ما أودعته وتتوى^(١) ما أفدته . فنفى عنه وردة الى عمله .

خطب يوما فقال : أيها الناس ، لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وإني لست بقاض ، ولكنى مقتد ، ألا وإني لست بمبتدع ولكنى متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص ولكن الامام الظالم هو العاصى ، ألا لاطاعة المخلوق فى معصية الخالق . وقال من خطبة : وما منكم من أحد تبلفنا حاجته يتسع له ما عندنا إلا حرصنا أن نسد حاجته ما استطعنا ، وما منكم من أحد تبلفنا حاجته لا يتسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يبدأ بى وبخاضتى حتى يكون عيشنا وعيشه سواء . ومن غريب أمره فى إطلاق حرية القول أن يخطب الناس عبد الله بن الأهم ، ويذكر ما آل إليه أمر الأمة على عهد صاحب الشريعة والخليفين من بعده ثم يقول : إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلَع^(٢) أعوج . يقول هذا فى عهد عمر ابن عبد العزيز ، وعمر يكت عنه ، ولطالما أسمعه بعض النافين على أهل بيته ما ينضب له الحليم ، فما كان يقابلهم بنير الاغضاء فيهمهم من طرف حتى أنه لا يليق بالرجل أن ينال من آله .

وكان عمر يجلس الى قاص العامة ويرفع يديه إذا رفع ، وقاصه محمد بن قيس . وعلم أن أناسا من القصاص يصلون على خلفائهم وأمرائهم يلتصون الدنيا بعمل

(١) توى كرضى منك واتواء الله فهو توى أذبحه فهو ذاهب والتوى الهلاك (٢) الضلع الجبل

الآخرة، فأمرهم بالدعاء للمؤمنين عامة وأن يلغوا ما سوى ذلك . وأدرك أن البادية يتحفزون إلى أن يرجعوا إلى سيرتهم في الجاهلية ، فبعث إليهم برجلين من أرباب الفقه يفقهان الناس في البدو وأجرى عليها رزقاً . وكأنه قطع عهداً على نفسه إذا ولى أمر المسلمين « أن لا يضع لينة على لبنة ولا آجرة على آجرة » لئلا يقع في ذلك حيف على الرعية . وهم يتولون من ذلك ما يصلحهم من إقامة القصور والبيوت ، أما هو فيعمل لإغنائهم وحملهم على الجادة ، حتى لم يبق فقير في أيامه في أكثر الأمصار ، لكثرة ما وزع على الفقراء من أموال الصدقات : يقبض عماله الصدقة ثم يقسمونها في الفقراء ، حتى إنه ليصيب الرجل الفريضان أو الثلاث فما يفرقون الحى وفيهم فقير ، ولا ينصرفون إلى الخليفة^(١) بدمهم . بعت عاملاً على صدقات إفريقيا^(٢) فأراد أن يعطى منها الفقراء فالتهمهم في كل مكان فلم يجد فيها فقيراً يقبل أن يأخذ صدقة بيت للال ، فاشتري بها رقاباً وأعتقها وجعل ولائهم للمسلمين . وما مات عمر حتى جعل الرجل يأتي بالمال العظيم ويقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يرح حتى يرجع بماله ، لا يجد من يضعه فيهم ، لكثرة ما أغنى الناس عمر .

ومن أم ما عمله عمر في حسن الإدارة والسياسة أنه لم يشأ — لما وسدت إليه الخلافة — أن يبدأ بعمل قبل أن يستدعى للمسلمين من أرض الروم ، وقال: لَرَجُلٌ من المسلمين أحب إليّ من الروم وماحوت . وفي سنة ١٠٠ أمر أهل طرندة بالقول عنها إلى ملطية ثم اشترى ملطية من الروم بمائة ألف أسير ، فجعل لدولته سداً منيعاً ، وأخذ للمسلمين من ذل الأسر . وأراد هدم المنيصة وقتل أهلها عنها لما كانوا يلقون من الروم فتوفى بعد ذلك .

ولما بلغ صاحب القسطنطينية فيه نزل عن سريره وبكى وذكر من مآثر عمر أمام وفد من العرب ، كان ذهب لفداء بين المسلمين والروم ، ما أبكى للقل ،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم

ومما قال : لقد بلغني من بزه وفضله وصدقته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى اللوقي
لظننت أنه يحيى اللوقي ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع
ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلواته بطاعة مولاه ، ولم أعجب لهذا الراهب
الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكنني عجبت لهذا الراهب
الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهدها حتى صار مثل الراهب ^(١) .

وأحب عمر أن يحلّي المسلمين من الأندلس لأنه كان يعتقد أن مقامهم فيها
غير طبيعي ، لأنهم محاطون بالأعداء يبيدون عن مقر الخلافة . فأمر أحد عماله أن
يرسم له مصوراً الأندلس ليري في إجلاله للمسلمين رأيه . وكتب إلى عامله عبدالرحمن
ابن نعيم يأمره بأقوال من وراء النهر من المسلمين بذرارهم فأبوا ، وكتب إلى عمر
بذلك فكتب إليه : « اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تنفّر بالمسلمين فحسبهم
الذي قد فتح الله عليهم » كل أولئك يدل على أن عمر ما كان يريد التوسع في
الفتوح ، ويحاول أن يقتصر على البلاد التي دخلت في المملكة الإسلامية حتى
لا تهرق الدماء على غير طائل ، ويعمر الناس البلاد ، ويصلح أهلها صلاحاً دائماً على
أن يكونوا بين أخرى يرجو ثواب الله ، ودياروى يستجمع صفات الشرف في نفسه .

وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم ^(٢) إلى الاسلام والطاعة على أن يملكهم
ولم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلموا وتسموا
بأسماء العرب . ولما ولي اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بنى غزوم ببلاد
المغرب سار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الاسلام ، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز
كتاباً يدعوهم إلى الاسلام فقرأ اسماعيل عليهم في النواحي فقاب الاسلام على
المغرب . وكتب في اللواتيات : ان من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو فليرددها
إلى أهلها ، ولواتية قرية من البربر كان لهم عهد . ولما استخلف كتب إلى ملوك

ما وراء النهر يدعوم إلى الاسلام فأسلم بعضهم ورفع الخراج عن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم ، وابتنى خانات . ثم بلغ عمر عن عامله عصبية وكتب إليه أنه لا يصلح أهل خراسان إلا السيف فأنكر ذلك وعزله وكان عليه دين فقبضاه . ووفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فان قضى باخراج المسلمين أخرجوا ، فحكم القاضى باخراج المسلمين وعلى أن يتأذوهم على سواء ^(١) ، فسكره أهل سمرقند الحرب وأقروا فأقاموا بين أظهرهم . قال عمر لمزاحه مولاه : إن الولاة جلوا العيون على العوام ، وأنا أجلك عيني على نفي فإن سمعت مني كلمة تريبني عنها أو فعلا لا تحبه ، فغطني عنده وانتهى عنه . وكان عنده رجلان فجعلتا يلحنان فقال الحاجب : قوما قد آذيتا أمير المؤمنين . فقال عمر : أنت آذى لي منها . هذا مجمل ما تم في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من الإصلاح فأعاد إلى الخلافة جماعها وجعلها على ما كانت عليه أيام جده لأمه عمر بن الخطاب . ولكن عمر بن عبد العزيز عمل في غير زمان عمر بن الخطاب وعمل بغير رجاله . وكان دأب عمر بن عبد العزيز أن يذكر الناس بالآخرة ويخوفهم العذاب ، ودأب ابن الخطاب أن يذكرهم العمل للدنيا مع شدة التحك بمحقوق الأخرى . فكانت إدارة عمر بن الخطاب ملائمة لزمانه وسيرة حفيده كذلك . لأن الناس فسدوا في أواخر القرن الأول أو بدأوا بالفساد ، فكان هجّيراه أن يذكرهم بالمعاد ويطهر أخلاقهم . وعمل عمر كل هذا في سنتين وخمسة أشهر وهذا من أعجب ما يدون في تاريخ عظماء الأرض . ولما مرض مرضته التي مات فيها دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال : ألا توصي يا أمير المؤمنين ؟ . فقال : فيم أوصي ، فوافقه إن لي من

(١) قوله تعالى : قابض اليهم على سواء . منه إذا هانت فوما ضلت منهم القرض العهد فلا توقع بهم سابقاً إلى القرض حتى تعلم انك قضيت العهد فتكونوا في علم القرض مستوين ثم أوقع بهم (المباح)

مال . فقال : هذه مائة ألف فر بها بما أحببت . وقال : أو تقبل ؟ . قال : نعم .
قال : ترد على من أخذت منه ظمًا . فبكى مسلمة ثم قال : يرحمك الله لقد أننت
مناقلونا قاسية ، وأقيت لنا في الصالحين ذكرًا .

أورقة يزيد بن عبد الملك وهشام ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد .

ولم يكد عمر بن عبد العزيز يلحق بمولاه حتى عادت الدولة الى سابق عهدها
إلا قليلا . وعزل يزيد بن عبد الملك عمال عمر بن عبد العزيز جميعاً وأعاد سب على
على المنابر ، وكتب إلى عمال عمر : أما بعد فإن عمر كان مغروراً غررتوه أنتم
وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة ، فإذا أتاكم كتابي
هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس الى طبقهم الأولى ، أخصبوا
أم أجدبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا والسلام . ويزيد هذا أحد إخوة أربعة
تولوا الخلافة ولقبوا بالأكبش الأربعة ، وهذا كان على غير طريقة إخوته .

وجاء دور هشام في الخلافة وناهيك به من « رجل محشو عقلا » وفيه من
الحلم والأنفة والعفة ما ظهرت آثاره في إدارة الملك وعدة أحد السواس الثلاثة من
بنى أمية وهم معاوية وعبد الملك وهشام ، وبه ختمت أبواب السياسة وحسن
السيرة ، وكان يجب جمع المال وعمارة الأرض واصطناع الرجال وتقوية الثغور وإقامة
البرك والتقني في طريق مكة وغير ذلك ؛ ويسير بموكب كاسر الخلفاء من أهل بيته ،
ولم يكن مثل ذلك لغير أخيه مسلمة بن عبد الملك . وافتتح عهده بمزل عمر بن
هبيبة عن العراق وتولية خالد بن عبد الله القسري ، فأدار هذه الولاية (١) العظيمة
نحو خمس عشرة سنة بإقامة العدل وإفاضة السلام والعمل الصالح . وكان هشام
على غاية الإخلاص متفلاً متشفياً في ذاته ، يقوم بواجب الخلافة حق القيام ،

ومن أكبر همه إصلاح أموال الدولة . وغلب عليه الاقتصاد حتى كاد ينقلب الى شح . بينما هو يوصى عقّال بن سُيَّة^(١) لما وجهه الى خراسان فنظر هذا الى قباء الخليفة فقال : مالك ؟ قال : رأيت عليك قبل أن تلى الخلافة قباء ، فننك^(٢) أخضر فجعلت أتأمل هذا أهو ذاك أم غيره . فقال : هو والله الذي لا إله إلا هو ذاك ، مالى قباء غيره ، وأما ما ترون من جمعى هذا اللال وصونه فإنه لكم .

وكانت دواوينه مثال التدقيق والنفاية فى معاملة الرعية ومحاسبة العمال الذين يتصرفون له يتخيرهم من الأمناء البعيدين « من الفساد ومن الرشا ومن الحكم بالهوى » ويعتمد فى توسيد عظام الأعمال على أناس من أهل بيته . قال عبد الرحمن ابن حلى : جمعت دواوين بنى مروان فلم أر ديواناً أصح للعامة وللسلطان من ديوان هشام . وقال غسان بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بنى مروان أشد حصرآ فى أمر الصعابة ودواوينه ولا أشد مبالغة فى التخصص عنهم من هشام .

كتب هشام إلى والى العراق لما أخذ ابن حسان اللنبطى فصر به بالسياط ، وكان أوغر صدر هشام عليه من إفراط الدالة واحتجاج الأموال وكفر ما أسداه إليه من توليته إياه العراق : « ان هشاماً أترك بولاية العراق ، بلا بيت رفيع ولا شرف قنهم ، وهذه البيوتات تعلموك وتمرك وتسكتك وتتقدمك فى المحافل والجامع عند بداءة الأمور وأبواب الخلفاء . وبما قال له : أنه استعان بالمجوس والنصارى وولاهم رقاب المسلمين وجبوة خراجهم وسلطهم عليهم . وقال له : والله لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتمل لك أمير المؤمنين ما أفدت من مال الله ، وضيمت من أمور المسلمين ، وسلطت من ولاية السوء على جميع أهل كور عملك تجمع اليك الدهاقين^(٣) هدايا التبروز وللهرجان ، حابياً لا كثره ، رافعاً لأقلهم مخائب مساويك^(٤) »

(١) تاريخ الطبرى (٢) التنك عركة جند ليس فروتها أطيب أنواع الفراء وأشرها وأعدلها صالح لجميع الأمور المتعددة (٣) الضحان جمع دماثة ودماطين ، الشاجر وزعيم فلاحى الجهم ورئيس الاقليم أو مقدم قرية أو صاحبها بخراسان والعراق (٤) يقال هو خبيث مخبث وفيه مخائب جنة

وغزا هشام الروم عدة غزوات موفقة ، وكان الأسطول يشترك مع الجيش البرى من اليايسة ، وذلك بقيادة ابنه معاوية وسليمان . وتقدمت جيوشه فى الشرق فغزا الترك وأخذ دعاة بنى العباس وثور الخوارج فى أيامه يعملون سرّاً وجهراً إذا أمكنتهم الحال ، وعلى ما فى هشام من بعد نظر لم يقدر مدى الدعوة التى عادت بعد على دولته بالوبال ، مع أنه كان معروفاً بالشدة فى مثل هذه المسائل . وظلّ أعداء الدولة ينتفضون فى أساسها ، وما كان بما عرف فيه من العقل يريد إثارة الخواطر فيما لا يعود على السلطان بفائدة ، فقد لقيه فى الحج سنة ١٠٦ سميد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان وقال له : يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون فى هذه المواطن الصالحة أبا تراب (على بن أبى طالب) فأمر المؤمنين ينبغى له أن يلنعه فى هذه المواطن الصالحة . فنشق ذلك على هشام وقيل عليه كلامه ثم قال : ما قدمنا لشم أحد ولا لنعه ، قدمنا حججاً ، ثم قطع كلامه ^(١) .

وذكروا أن هشاماً كان ينزل الرضافة من أرض قنشرين وكان سبب نزوله إياها أن الخلفاء كانوا يفتنبذون ^(٢) ويهربون من الطاعون فينزولون البرية خارجاً عن الناس ، فلما أراد هشام أن ينزل الرضافة قيل له : لا تخرج فإن الخلفاء لا يطعنون ولم ير خليفة طعن . فقال : أتريدون أن تجربوا بى ! فنزل الرضافة وهى برية وابتنى بها قصرين . وكان ^(٣) لا يدخل بيت ما له مال حتى يشهد أربعون قسامة ^(٤) أنه أخذ من حقه وأعطى لكل ذى حق حقه . وهو من أحزم بنى أمية ومن أعقلهم يفضل على العلماء والعقهاء كثيراً .

وتولى يزيد بن الوليد الخلافة فنقص الناس من عطائهم ، وكان أشد ضنانه

(١) تاريخ الطبرى (٢) اتخذ الرجل ، اعتزل ناحية (٣) تاريخ الطبرى (٤) القسامة الذين يقسمون على دعوام

بالمال من هشام ، فسعى يزيد الناقص ، فاضطربت عليه البلدان ، وكان الخليفة من بنى أمية إذا مات وقام آخر زاد في أرزاقهم وعطاياهم عشرة دراهم فيقولون : (عَزَّ بَعِيرٌ ^(١) وزيادة عشرة) أى رجل برجل وزيادة عشرة . فسار هذا القول مير الأمثال عند أهل الشام . وكان يزيد يهتم باللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق ، وأفسد على نفسه بنى عميه ولد هشام وولد الوليد ابني عبد الملك بن مروان . وأفسد على نفسه العمانية وهم أعظم جند الشام . ولعل هذه التطلعات الادارية جسمت ما انهم به ، فكانت حجة للخوارج عند العوام حتى أوردوه موارد المملكة . وقال خالد بن يزيد : يا أمير المؤمنين قتلت ابن عمك لأقامة كتاب الله تعالى وعمالك يقتسمون ويظلمون . قال : لا أجد أعواناً غيرهم وإني لأبغضهم . قال : يا أمير المؤمنين وَلِ أَهْلِ الْبَيْتِ وَضَمَّ إِلَى كُلِّ عَامِلٍ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْعِفَّةِ ، يَأْخُذُونَهُمْ بِمَا فِي عَهْدِكَ . قال : أفعل .

وأمر الوليد بن يزيد بعض رجاله بتعذيب بعض العمال لأنه كان رفع إليه أنهم أخذوا مالا كثيراً ^(٢) ولما قتل الوليد (١٢٦) كان في بيت للسال سبعة وسبعون ألف ألف دينار ففرقها يزيد عن آخرها ، وتهدد للناس أن لا يضع حجراً فوق حجر ولا لبننة على لبننة ولا يكرى نهراً ولا يكتز مالا ولا ينقل مالا من بلد إلى بلد حتى يسد ثغره وخصاصة أهله بما يفتنيهم ، فما فضل منه نقله إلى البلد الآخر الذي يليه ، ولا يخلق بابه دونهم ولم أعطيائهم في كل سنة وأرزاقهم كل شهر حتى يكون أقصاهم كأدناهم . أما مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فقد كان شيخ بنى أمية وكبيرهم ^(٣) « ذا أدب كامل ورأى فاضل » وهو أحزم بنى مروان وأتجدهم ^(٤) وأبلغهم ، ولكنه ولى الخلافة والأمر مدبر عنهم .

(١) المير السيد والملك (٢) تاريخ الطبرى (٣) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينورى

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه

هذا ما كان من إدارة دولة امتد حكمها مسافة ^(١) مائتي يوم من الشرق إلى الغرب قرأ آى القرآن في سمرقند كما تنلى في قرطبة . ويتلاقى الهندى مع السودانى في مكة للحج . وكلاهما يدين لبنى أمية ، وفي أيامهم ظهرت على الممالك قدرة وغنى ، وكانت كمة الدولة نافذة في ثلاثة أقسام من الأرض : آسيا وإفريقية وأوربا . ملكوا من برارى جبل الطور إلى قفار ما وراء النهر ، ومن وادى كشمير إلى منحدر جبل طوروس على البحر للتوسط وأطراف الأناضول وسائر مملكة الأ كاسرة وما عجز عنه الأ كاسرة ، وأخذت الجزية التى قررها عمر بن الخطاب من النوبة كما أخذت من الهند والصين على ما قدرها مسلم بن قتيبة الباهلى . وكل ذلك على قواعد العدل وقسطاس الحق ، حتى صارت دمشق في نظر المسلمين كأنما هى رومية في نظر للسيحيين ، وانتشرت حضارة الاسلام ^(٢) في نصف قرن تقريباً من سواحل البحر الاطلنطى إلى بلاد الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها إلى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت في حوزة الاسلام أم كثيرة من السلالة السامية « العرب والبريان والكلدان » ومن السلالة الحامية « المصريين والنوبيون والبربر والسودان » ومن السلالة الآرية « الفرس واليونان والاسبان والأهاندائى الهنود » ومن السلالة للسما بالتورانية « الترك والتتار »

كل هذا وما كان جميع الناس راضين عن إدارة الأمويين ولا سيما خصومهم السياسيون . ومتى كان الخضم ينصف خصه . وإليك مثلاً من ذلك صدر عن أحد نساك الاباضية وخطبائهم وهو أبو حمزة يحيى بن مختار الخارجى ، خطب في مكة ووصف سيرة الخلفاء الراشدين ثم قال في بنى أمية : وأما بنو أمية ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية ، يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشعاعة ، ويأخذون بالفريضة من غير موضعها ، ويضعونها

(١) حاة الاسلام لمصطفى نجيب (٢) الحضارة الاسلامية لاحد ذكى

في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها لخطيئتهم ثمانية أصناف فقال : (إنا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها وللزّالة قلوبهم وفي الرقاب والفارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) فأقبل صنف تاسع منها فأخذ كلها ، تلكم الترة الحاكمة بنير ما أنزل الله اه والله أعلم بمقدار ما في هذا الخطاب — على جلالة قدر صاحبه — من الخطأ والخلل . وفي حديث عليّ : وأما إخواننا بنو أمية فتادة ذادة ، والقادة جمع ذائد وهو الحامي المانع ، قيل أراد أنهم يهودون عن العُرْم^(١) . ولكن غضب العربي في رأسه فإذا غضب لم يهدأ حتى يخرج بلسانه أو يده كما قال ابن عياش .

لا جرم أن إدارة الأمويين لم تكن في كل أيام خلفائهم بريئة من العيوب ، ولم تضعف في الحقيقة إلا في أيام يزيد بن الوليد ، وكان على غير طريقة أسلافه في أعماله . وكان آخرهم مروان بن محمد على عظم همته وشدة بأسه مشغولاً بالذفع عن الخلافة وكثرت الفتوق فضعفت إدارة للملكة . كانت حكومتهم عربية صرفة يتولاهم أهل البيوتات والأشراف على الأكثر . وقيل إن من أوكد الأسباب في زوال سلطان بني أمية استنثار الأخبار عنهم وإغضاب قواد الدولة ، واقسام البيت الأموي على نفسه سبب ولاية المهدي . ثم كان تأخير العطاء عن الجند فظاهروا غيرهم من العباسيين ولم يقاتلوا بإخلاص للخليفة كما كانوا من قبل . وساعد التوسع في الفتوح على عهد هشام على اختلال نظام الدولة فاتسعت دائرة ملكهم الى ما لم تبلغه دولة الرومان . ثم إن انقسام العرب في خراسان إلى مضرية ويمانية وتنازع رؤسائهم على الولاية كان من الأسباب المسهلة لقيام الدعوة العباسية في خراسان نفسها ، ولم ين عن الأمويين من قتل من دعاة العباسيين الذين عملوا لدولتهم في أرض أعدائهم وتحت سمع عاملهم وبصرهم .

ادارة العباسيين

تراير السفام والنصور

اختار محمد بن على بن عبد الله بن العباس - يوم قام يدعو لآل العباس ومحاول
انتزاع للالك من الأمويين - بلاد خراسان ميداناً لا يظهر دعوته لأنه كان جازماً
كل الجزم ، أن أهل الشام والجزيرة والعراق والحجاز لم يكن هوام مع آل العباس .
بل كانوا متشبعين بالروح الأموى يملنون فى سرهم وجهرهم ولاء بنى مروان ، وأن
فى أهل خراسان « العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب
قارعة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدم عليها الفساد ، وهم جند
لم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ،
ولفات نغمة تخرج من أجواف^(١) منكرة » وليس فيهم التحزب للقبيلة^(٢) والعصية
للعشيرة ، وهم مظلومون يؤملون الدول ولم يكونوا على العهد الأموى محل الرعاية ،
وأقسامهم الأمويون عن الحكومة وجلبوا لهم المال من الأحزاب العريضة . وأن
أهل خراسان لم يزالوا فى أكثر ملك العجم لقاحاً^(٣) لا يؤدون إلى أحد إناوة
ولا أخراجاً^(٤) ، فلما كان الاسلام صالحوا عن بلادهم تخف خراجهم ولم تسفك
بينهم الدماء .

وأخذ الدعاة يدعون إلى الرضا من آل محمد ، ومن مرو الشاهجان ظهرت
دولة بنى العباس فى سنة ١٢٧ وفى دار شخص منها يعرف بأبى النجم للعبطى صنف
أول سواد لبسته المسودة . وفى شهر رمضان سنة ١٢٩ نشر العلم الأسود على

(١) معم البلدان لياقوت (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣) الحى القلاح والقوم القلاح
الذين لا يدبون للذك أو لم يصمم فى الجاهلية ساء (٤) كتاب العرب أو الرد على القموية لابن قتيبة
(٥) القنرى لابن المقطف

خراسان ، وكان الخراج يحجي لابراهيم الامام وهو فى الشام والحجاز . ولا مال لديه ولا نسب . مروان بن محمد الجعدى الخليفة الأموى المبيع ومعه الجند والسلاح والمال والدنيا جميعها عنده ينتثر ملكه عقدة عقدة . وقلما سمع أهل بلد يحيش خراسان إلا سودوا أى لبسوا السواد شعار بنى العباس قبل أن يوافيهم ، ونزعوا البياض شعار الأمويين المبيضين . وجيش خراسان أى الجيش العباسى على قلته يظلب وجيوش الأمويين على كثرتها تتوالى هزائهما . ويكتب كاتب مروان عبد الحميد بن يحيى كتاباً إلى أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة باسم مروان ويضمنه مالمو قرى . لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبى مسلم ، وكان من كبر حجه يحمل على جمل^(١) ، فلا يرضى أبو مسلم أن يقرأ الكتاب ويحمله طعماً للنار . ومن الحزم أن لا يسمع وعداً ولا وعيداً ما دام قد دبر أمره تدبير من طب لمن حب^(٢) . وكان الامام يوصى جماعته أن لا يتجاوزوا الفرات . ومن حسن طالع الجيش الفاتح أنه اجتاز الفرات فى مده ، فهلك القائد وانتصر جيشه . فلما بلغ مروان الجعدى ذلك قال : هذا والله الإديار والا فتن سمع بميت يهزم حياً !

دأول أبو العباس السفاح بين الكوفة والأنبار والحيرة والهاشمية من المدن ، فكان ينتقل فيها ، ولم يحمل له عاصمة مستقرة . واتخذ له وزيراً أبا سلمة الخلال حفص بن سليمان وسلمه الدواوين ، وكان يسمى وزير آل محمد . وأصبحت الوزارة فى الدولة العباسية مقررة القواعد والقوانين ، وما كانت تعهد فى الدولة الأموية ، وكان من يستشيرهم الأمويون يسمون كتاباً ومشيرين على الأغلب ، ويسمى وزيراً من باب التجوز لا على مثال بنى العباس . استوزر السفاح خالد بن برمك بعد أن قتل أبا سلمة الخلال ، فجعل خالد له دقائر فى الدواوين من الجلود وكتب فيها

(١) شرح البيهون شرح رسالة ابن زبيدون لابن نباتة (٢) يقال فلان طب بكذا أى عالم به وفى الحكم : وسعت الكلابة يقول إعمل فى هذا عمل من طب لمن حب . وعن الآخر من أمانهم فى التوق فى الحاجة وتحملها أصنعه صنعة من طب لمن حب أى صنعة صادق لمن يحبه (التاج)

وترك الدروج . وكانت كتابة الفواوين في صدر الاسلام أن يحمل ما يكتب فيه صفًا مدرجة . دام ذلك مدة بنى أمية . ولا تعرف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك في الأمور أيام الرشيد اتخذ الكاغد وتداوله الناس من بعد^(١) .

عهد السفاح بإدارة البلاد الى رجال من آل بيته يستأصلون قواد الأمويين وجماعاتهم ، لا تأخذهم بهم رأفة ولا هوادة ، ويقتلون حتى من استأمنوا ، ويبعثون عنهم حتى في أقصى حدود للملكة ، ليجثوا أصولهم ، فاستقموا لمن قتله الأمويون على نسبة عظيمة جداً ، أخذوا ثأرهم من أحيائهم بالقتل ، ومن أمواتهم بإحراق جثثهم ونفعية آثارهم ، وما ارتكبوه في دمشق من سفور قبور خلفاء الأمويين والقضاء على كل أثر لهم كان سيئة وأى سيئة .

ولم يتفرغ أبو العباس السفاح لوضع أساس ثابت للإدارة لا نصرافه جملة واحدة الى توطيد دعائم الفتح وقتال الخوارج عليه ، وسار في الجلة على نظام الأمويين ، وكان أخوه أبو جعفر يتولى لأخيه كل أمر عظيم ، وكانت العراق على حظ وافر من ترتيب دواوينها وانتظام شؤون إدارتها على العهد الأموي بفضل من وليها من أكبر رجال الادارة والسياسة من بنى أمية . وكذلك الحال في معظم الأقطار تبدلت دولة بدولة وخليفة بخليفة ، ونسج الآخر على منوال الأول اضطراباً واختياراً ، وقل أن خالفه في ترتيبه ونظمه . وخطب السفاح قائماً ، وكانت بنو أمية تخطب قصوداً ، فضج الناس وقالوا : أحيت السنة يا ابن عم رسول الله . وكان السفاح جميل العشرة جواداً بالمال ويحب ماسرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : العجب ممن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك ويدخل الى امرأة وجارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ويرى قصاً . فقال له الهذلي : لتلك فضلكم

الله على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين . ومن أثنى ما وصل إلى أبي العباس من ميراث بني أمية بُردة الرسول وقضييه . وكان مروان^(١) بن محمد حين أُحيط به في مصر دَفَعهما إلى خادم له وأمره أن يدفنهما في بعض تلك الرمال . فلما أخذ الخادم في الأسرى قال : إن قتلتموني ضاع ميراث النبي ، فأمنوه على أن يسلم لهم ذلك . وكان للبردة والقضيب شأن وأى شأن عند جميع الخلفاء من بعده .

ولى للنصور الخلافة وكان أسنّ من أخيه أبي العباس السفاح ، ودبر للملكة في أيامه تدبيراً حسناً . أفضى إليه الملك وهو حنيك^(٢) كما قال عن نفسه ، قد حلب هذا الدهر أشطره^(٣) ، وزاحم للشاة في الأسواق ، وشاهدتم في اللواسم . وغازاهم في اللغازى قال : فوالله ما أحب أن أزداد بهم خُبراً على أنى أحب أن أعلم ما أحدثوا بصدى ، مذ تواريت عنهم بهذه الجدارات ، وتشاغل عنهم بأمرهم ، مع أنى والله ما لمت نفسى أن أكون قد أذكيك عليهم العيون حتى أتتى أخبارهم وهم في منازلهم . والواقع أن أبا جعفر للنصور في تأسيسه دولة بني العباس كمداوية في تأسيس دولة بني أمية ، مع اعتبار الفرق بين عصرهما ، والسرُّ الأعظم في نجاحهما أنهما مرنا على الإدارة قبل أن توسد الخلافة اليهما .

ولى للنصور أهله البلدان وفرق المالآت بين قواد من العرب وقواد من مواليه . فكان ينقل قواد العرب في أعماله لثقتهم واعتمادهم عليهم ، ثم استعمل مواليه وغلمانهم في أعماله ، وصرفهم في مهاتمه ، وقدمهم على العرب ، فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده من ولده ، فسقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت

(١) بيان وتبيين الجاحظ (٢) الحنيك والمُحنك والمُحنك والمُحنك والهُنك

هو المحرب البصير بالأُمور (٣) يقال الرجل المحرب للأمور فلان قد حلب الدهر أشطره أى قد قامى الصدائد والزعاد وتصرف في الفقر والفق وأشطره خطرته أو أخلاف من أخلاف الناقة . وحلب فلان الدهر أشطره أى مر به عيمه وشربه

مراتبها . فهو الذى « أصل » الدولة ، وضبط للملكة ، ورتب القواعد ، وأقام التاموس ، و اخترع أشياء ، ولم تكن الوزارة فى أيامه طائفة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفائه ، على أنه كان يشارور فى الأمور دائماً ، وإنما كانت هيئته تصغر لها هيئة الوزراء ، واجتمع له كثير من الخيل لم يعرف مثله فى جاهلية ولا إسلام ، واستجاد الكساء والفرش وعدد الحرب ومؤونها ، واصطنع الرجال وقوى الثغور . ولقب بأبى الدوائيق لتدده فى محاسبة العمال والكتاب . وجماع سياسته المالية أن يدخر المال قائلاً : « من قلّ ماله قلّ رجاله ، ومن قلّ رجاله قوى عليه عدوه ، ومن قوى عليه عدوه اتضع ملكه ، ومن اتضع ملكه استبيع حماه » وذكر أنه أخذ أموال الناس حتى ما ترك عند أحد فضلاً ^(١) . وكان يعطى الجزيل والخطير ^(٢) إذا رأى فى العطاء فائدة ، ويمنع البير والخطير إذا كان عطاؤه تضييعاً ، فكان كما قال زياد لو أن عندى ألف بعر وعندى بعر أجرب لقت عليه قيام من لا يملك غيره . ومن أجل هذا كان يشر ماله وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والجلود وعليه الخطب والتوابل .

وعند محمد بن عبد الله لما خرج عليه إذا رجم إلى طاعته من قبل أن يقدر عليه أن يعطيه ألف ألف درهم ، ويؤمنه على نفسه وولده وإخوته ، ومن بابه وتابعه وشايه ، ويطلق من فى سجنه من أهل بيته وأنصاره ، لأنه آثر أن يحقن الدماء ويعطى هذا العطاء على أن يبعث البعث وينفق الأموال . وأتفق ثلاثة وستين ألف ألف درهم على جيش واحد كان مؤلفاً من حسين ألفاً وجهه إلى إفريقية لقتال الخوارج ، بمعنى أن أبا جعفر كان الحزم كله فى تدير ملكه ، والحزم كله فى جمع المال للشدائد والإتفاق منه عند الحاجة لقيام الدولة ، ويذكرون له فى باب الامساك أخباراً كثيرة .

(١) الفخرى لابن القطان (٢) تاريخ يعقوبى (٣) مروج الذهب للسعودى

يقول المسعودى إن للنصور^(١) كان في الحزم وصواب التدبير وحن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وهو أول من رتب للراتب من الخلفاء^(٢) وكان لبني أمية بيوت بلا منعة ولا إذن ، وإنما كان الناس يقفون على أبوابهم حتى يؤذن لهم أو يصرفوا . فلما ولي بنو العباس وبنى للنصور بيته اتخذ في قصره بيوتاً للإذن ، فجرى الأمر على ذلك . وكانت أرزاق الكتّاب في أيامه ثلثمائة ثمانية ، وكذلك كانت في أيام بني أمية . وكان للنصور متقللاً متشككاً لا يحب البذخ والرفاهية يمدّ كل ما يأكل ويلبس نعمة عطشى بالقياس الى حاله قبل الخلافه . فهو شديد في قتال أعدائه ، شديد في نظامه وترتيبه ، يعرف قيمة الوقت لا يصرفه إلا فيما ينفع الدولة فيعمل في خدمتها ليله ونهاره ، وكان شغله^(٣) في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية والتلطف بكونهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سمّاره ، وهو على انتباه لكل دقيق وجليل . وكان يقول ما أحوجنى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم ، هم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلا بهم : أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب الشرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، ثم عَض على إصبعه البابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه . قيل ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب يريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة .

استعمل للنصور في ولاياته وأعماله قليلا من عمال الدولة البائدة وكثيراً من أهل بيته ورجال العرب وبعض الفرس ، واستوزر ابن عطية الباهلي وهو من صميم العرب كما وزله أبو أيوب اللورياني الخوزي وهو فارسي ، إلا أنه لا يترك

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢) لطائف المعارف لشمالي (٣) تاريخ ابن الأثير

الوزير يصل برأيه فقط بل ينهى إليه كل ما يمرض له من أمور الدولة قبل البت فيها . وطريقته في حكم الأمصار طريقة اللامركزية ، أى طريقة الأمويين والراشدين من قبل . دعاه إلى اتخاذ هذه الطريقة تباعد ما بين أجزاء المملكة وبعد الشقة في نقل الأخبار على وجه السرعة ، على ما كان في عهده من انتظام البريد وحمام الزاجل تطير في المهات السريعة . كتب المنصور إلى مسلم بن قتيبة يأمره بهدم دور من خرج مع أحد الخوارج وعقر نخلم . فكتب إليه : بأى ذلك نبدأ أيا لنخل أم بالدور ؟ فكتب إليه أبو جعفر : « أما بعد فإني لو أمرتك بإسناد عرم لكتبت إلى تستأذن في آيه نداء أبا البرقي أم بالشهرين »^(١) وعزله .

لم يفتق على المنصور في ملكه الواسع خرق إلا سده ، لأن جيشه كثير ، وآلته تامة ، وقواده يعرفون منه أن من سياسته أن يقتل على التهمة ، فهم يصدعون بأمره كله ، ولا يخرجون منه مادة واحدة . إحتل الروم طرابلس الشام وظهر في الشام رجل من أهل المنيطرة^(٢) (١٤٢ — ١٤٣) وسمى نفسه ملكا ، ولبس التاج وأظهر الصليب ، واجتمع أنباط جبل لبنان وغيرهم ، ثم استفعل أمرهم فظهر عليهم الجيش العباسي ، فأمر أمير دمشق بإخراج من بقى في الجبل وتفرقهم في بلاد الشام وكورها ، فكان هذا التدبير الإداري مما انتقده الامام الأوزاعي بشدة ، لأنه إن كان من نصارى لبنان المعتدى على حقوق السلطان ، فإن منهم البريء وليس من الجائز^(٣) أن يُجلى عن أرضه ويمامل الطامع كالعاصي .

كان المنصور في أكثر أموره وسياسته وتدييره متبعا في أفعاله لهنام بن عبد الملك لكثرة ما كشفه من أخبار هشام وسيرته ، وكان يقول إنه أى هشام فتى القوم أى رجل بنى أمية . وقال : الملك ثلاثة معاوية وكفاه حجاجه ، وعبد للملك

(١) البرقي تمر أصغر مدود وهو أجود الفخر واحدته برقية . والشهرين ضرب من الفخر في نواحي البصرة (٢) تاريخ ابن عساكر (٣) قروح البلدان للبلاذري

وكفاه زياده ، وأنا ولا كافى لى . وكان يقول لأهل بيته : إني لأجمل موضعى حتى أحذر منكم لأنه ما فيكم إلا عم وأنح وابن عم وابن أخ ، فأنأ أراعيكم بصرى وأهتم بكم بنفسى فآله الله فى أنفسكم فصوروا ، وفى أموالكم فاحتفظوا بها ، وإياكم والاسراف فيؤشك أن تصيروا من ولد ولدى إلى من لا يعرف الرجل حتى يقول له من أنت .

وكان للنصور آية فى الاسراف على عماله واراآتهم على العدل ، يهددم بالعقوبات إذا ولآتم ، وأكثرم يصححون ويناصحون ، ويختار أهل البلاء منهم . ولقد وفد عليه قاضى إفريقية ، وكان رفيقه فى طلب العلم ، فسأله كيف رأيت سلطانى من سلطان بنى أمية ، وكيف مامرت به من أعمالنا حتى وصلت إلينا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين رأيت أعمالا سيئة وظلماً فاشياً ، وآله يا أمير المؤمنين ما رأيت فى سلطانهم شيئاً من الجور والظلم إلا رأيت فى سلطانك ، وكنت ظننته لبعء البلاد منك ، فجعلت كلما دنوت كان الأمر أعظم . فنكس الخليفة رأسه طويلاً ثم رفعه وقال : كيف لى بالرجال ؟ . فقال القاضى : أليس عمر بن عبد العزيز كان يقول ان الوالى بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها ، فان كان برآ أتوه يبرم ، وإن كان فاجراً أتوه بفجورهم . ووعظ الأوزاعى للنصور فقال له : إن السلطان أربعة : أمير يظلف^(١) نفسه وعماله ، فذلك أجر المجاهد فى سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفوف ، وأمير رتع ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذلك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير رتع ويظلف عماله فذلك شر الأكياس .

كان للنصور يقول لابنه : يا أبا عبد الله ليس العاقل الذى يحتال للآمر الذى وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكنه الذى يحتال للآمر الذى غشيه حتى لا يقع فيه .

وكتب إليه عامله على إزمينية يخبره أن الجند شعبوا عليه ونهبوا ما في بيت اللال فوق في كتابه : « إعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فلو عقلت لم يشعبوا ، ولو قويت لم ينهبوا . » ولقد حدث أن للنصور ولى المدينة رياح بن عثمان فخطب أهلها يهدم ويقول : أنا الأفي بن الأفي ، أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة ، الليد خضراء كم المنى رجالكم ، والله لأدعنها بلقماً لا ينبج فيها كلب . فوثب عليه قوم منهم وكلموه وقالوا : والله يا ابن المجلود حدّين لتكفن أو لتكفنك عن أنفسنا . فكتب الوالى إلى للنصور يخبره بسوء طاعة أهل المدينة فأرسل للنصور إلى رياح رسولا وكتب معه كتاباً يقول فيه : وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا لبيدناكم بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بباد الأرحام . فلما قرىء عليهم نادوه من كل جانب كذبت يا ابن المجلود حدّين ، ورموه بالحصى وبادر المقصورة فأغلقها . فدخل عليه أيوب بن سلمة الخزومي فقال : أصلح الله الأمير إنما تصنع هذا راع الناس . وقال بعض من حضر من وجوه بنى هاشم : لا نرى هذا ، ولكن أرسل إلى وجوه الناس وغيرهم من أهل المدينة فاقراً عليهم كتاب النصور ، فجمعهم وقرأ عليهم فقالوا : ما أمرتنا فعصيناك ولا دعوتنا نخالفناك . وانفض الأمر بسلام .

وعنى النصور بالعارة في ملكه يعمر الجسور والقنى والآبار ، ففشت في أيامه أعمال العمران ، وحمل المهندسين من الآفاق إلى العراق خصوصاً لبناء مدينة بغداد ، واختار النصور موقعا بنفسه لاحاطتها بدجلة والفرات بحيث يصعب على أكثر الجيوش تحطياها ، ولأن مواد الشام والجزيرة تأتيها بالفرات ، ومواد للوصل وما وراءها تحمل إليها في دجلة . وبني الرصافة لابنه للهدى ليصير ابنه في مدينة ، وعسكر بالجانب الشرقى ، وبصير للنصور في مدينة ، وعسكر بالجانب الغربى ، فلا يشعب الجند .

وحج للنصور آخر حجة وكان موقناً أنه لا يرجع من حجه ، زاعماً أنه عرف ذلك من للنجمين ، فقال لابنه وأشار إلى سَقَطَ له فيه دفتر وعليه قفل لا يفتح غير : أنظر إلى هذا السقط فاحتفظ به ، فان فيه علم آياتك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة . فان حزنك أمر فانظر في الدفتر الكبير فان أصبت فيه ما تريد وإلا ففي الثاني والثالث ، حتى تبلغ سبعة ، فان قفل عليك بالكراصة الصغيرة ، فانك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه للدينسة أى بغداد ، وإياك أن تستبدل بها غيرها ، وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشرين كفاك لأرزاق الجند والتفقات والذرية ومصلحة البعوث فاحتفظ بها ، فانك لاتزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً . وأوصى ابنه بأهل بيته وأن يحسن إليهم ويقدمهم ، ويوطئ الناس أعقابهم ، ويولهم للنابر . وأوصاه بأهل خراسان خيراً لأنهم أنصاره وشيعته الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولته ، وأوصاه أن لا يدخل النساء في أمره ، وأن يمد الكراع والرجال والجند ما استطاع ، وأن يمد رجلاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجلاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وأن يباشر الأمور بنفسه ، وأن يستعمل حسن الظن ويسىء الظن بعماله وكتابه ، وأن لا يُهرم أمراً حتى يفكر فيه ، فان فكر العاقل مرآة تربه حسنة وسيئه . وقال له : يا بني لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بشئ العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختياره . وقال له أيضاً : إني تركت الناس ثلاثة أصناف : فقيراً لا يرجو إلا غناك ، وخائفاً لا يرجو إلا أمناك ، ومسجوناً لا يرى الفرج إلا منك ، فإذا وليت فأدقهم طعم الرضاية ، لا تمدد لهم كلَّ للد .

هذا إجمال ما عمله أبو جعفر للنصور وما أوصى به ابنه لاتمام ما بدأ به من

الترتيب . وقد أبت الأيام كتابا لابن القنق في الصحابة^(١) أى أصحاب الخليفة ، كتبه إلى أبي جعفر أورد فيه ما يحتاجه للثبات من الإصلاح ليسير على قواعد مطردة سليمة من الشوائب ، وأدر كنهه من بعض المسائل الإدارية التي كانت تشغل الأذهان في ذلك الزمان . بدأه بتذكير الخليفة بجند خراسان فقال : إنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام وفيهم منعة وهم أهل بصير بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذل للولاء ، فرأى أن يكتب لهم أماناً معروفاً بليفاً وحيزاً محيطاً بكل شيء ، بالغاً في الحجة ، قاصراً عن الغلو ، يحفظه رؤسائهم حتى يقدوا به دماءهم . وارتأى أن لا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، وإن منهم من المجبولين من هو أفضل من بعض قادتهم ، فلو التمسوا وصتموا^(٢) كانوا علة وقوة ، وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ، ومن دونهم من العامة ، وأن يتعهد أديهم في تعليم الكتاب والتفقه في السنة والأمانة والعصمة والباينة لأهل الهوى . وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زى للترفين وشكلهم مثل الذي يأخذ به أمير المؤمنين في أمر نفسه . قال : ولا يزال يطلع من أمر أمير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقته للإتفاف^(٣) والإسراف وأهلها ، ومحبة القصد والتواضع ومن أخذ بهما ، حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عن يكرهه ، بخلاف أن ينقعه سرفاً في المطر والبأس والغفلة بالنساء والراتب .

وأشار أن يوقت الخليفة للجند وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له أنهم يأخذون فيه ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ، هذا مع كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم ، وأن الجند يحتاجون إلى ما يحتاجون إليه من كثرة الرزق لنفلاء السر . والرأى أن يجعل بعض أرزاقهم طعاماً وبعضه علفاً يعطونه

(١) رسائل البلاط نشرها المؤلف (٢) أحسن إليهم (٣) أنرف الرجل أعطاه شئونه

بأعيانه . ورأى أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من أخبار هذا الجند وحالهم^(١) وباطن أمرهم بخراسان والمسكر والأطراف ، وأن يحتقر في ذلك النفقة ، ولا يستعين فيه إلا بالثقات النشاح « فان ترك ذلك وأشباهه أحرز بتاركة من الاستعانة فيه بنير الثقة فيصير جنة للجهالة والكذب » ووصى بأهل للصرين الكوفة والبصرة قائلاً إنهم أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعمة انخليفة ومعينيه ، وأن في أهل العراق من القصة والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه . وأراد على أن يكتفى بهم ، وأنه ما أزرى بأهل العراق إلا أن من وتوا العراق كانوا أسرار الولاة ، وأعوامهم من أهل أمصارهم كذلك « فعمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول^(٢) وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنعوه عليهم ، ثم كانت هذه القولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعامل إلا بالأقرب فالأقرب ممن دنا منهم أو وجدوه بسبيل شيء من الأمر ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيناً وقعوا من محابة خليفة أو ولاية عمل أو موضع أمانة أو موطن جهاد ، وكان من رأى أهل الفضل أن يقصدوا حتى يلتبسوا فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا أو يفتنع بهم » « فنزلت الرجال عن منازلها لأن الناس لا يلقون صاحب السلطان إلا متصنعين بأحسن ما يقدرُونَ عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً ، وأعلى ألسنة ، وأرفق تعلقاً للوزراء أو تحلاً لأن يثنى عليهم من وراء وراء . » ثم ذكره بإصلاح القضاء وما يصدر عن القضاة من الأحكام المتناقضة ورجا أن يوحّد القضاء ويوضع للقضاة كتاب يرجعون إليه .

وتمرض لأهل الشام وذكره أنهم أشد الناس مؤنة وأخوفهم عداوة وباقة ،

(١) الحالة كحياة الدنيا والقرابة التي يحملها قوم عن قوم (٢) الفصل من الرجال الرذل الذي لا مروءة له ج أمثل وفسول

فن رأى أن يختص منهم خاصة عن يرجو عنده صلاحاً ، أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ، فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى ، ويدخلوا فيما حلوا عليه من أمرهم ، ولا يمايل أهل الشام كما علموا أهل العراق من جعل فيهم إلى غيرهم ، وتعتيهم عن اللنابر والمجالس والأعمال ، كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابعة وللواضع ، ومنعت منهم للرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي يصنعه أمراؤهم للامة . « ورجاه أن يأخذ منهم أهل القوة والفناء وخفة اللونة والنفقة في الطاعة ، ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة معلومة . وقال بهذا المعنى في إقامة المنر لأهل الشام على نزواتهم ، وأنه لم يخرج لللك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ، ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدميرهم .

وذكره بأصحابه « الذين هم بها . فنائه ، وزينة مجلسه ، والسنة رعيته ، والأعوان على رأيه ، ومواضع كرامته ، والخاصة من عامته » وأبان أنها مراتب طمع فيها الأوغاد « من لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي ، مشهور بالفجور في أهل مصره ، قد غبر عامة دهره صانماً يعمل بيده ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل البيوتات من العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيره من سروات قريش ، ويخرج له من للمونة على نحو ذلك . لم يضعه بهذا للوضع رعاية رحم ، ولا فقه في دين ، ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية متتابعة قديمة ، ولا غناء حديث ، ولا حاجة إليه في شيء . من الأشياء ، ولا عدة يستمد بها ، وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة ، إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء . » ثم ذكره بأمر فتیان أهل بيته وبني أبيه وبني علي وبني العباس

ووصفهم بأن فيهم رجالا لومتعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوها وكانوا عدة لأخرى .

ومن أهم ما ذكره به أمر الأرضين والخراج . قال : فليس للعمال أمر ينتهون اليه ولا يحاسبون عليه ، ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعدما يتأقنون لها في العارة ، ويرجون لها فضل ما تعمل أيديهم ، فيرة العمال فيهم إحدى ثنتين . إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتبع الرجال والرساتيق بالمغالة ممن وجد . وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيعمر من يعمر . ويسلم من أخرب . وأراده على أن يعمل رأيه « في التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة » وتدوين الدواوين بذلك ، وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها « ليكون في ذلك صلاح للريعية وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال . قال : « وهذا رأى مؤتته شديدة ، ورجاله قليل ، ونفعه متأخر ، وليس بعد هذا في أمر الخراج إلا رأى قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ولم نره من أحد قبله ، من تغيير المال وتققدم » .

ثم ذكره بجزيرة العرب وأن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم ، لأن ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق أمير المؤمنين وأكرمه بها من الرأى الذى هو بإذن الله حى ونظام لهذه الأمور كلها في الأمصار والأجناد والثغور والكور . وما قاله في خاتمة كتابه : « إن بالناس من الاستخراج ^(١) » والفساد ما قد علم أمير المؤمنين ، وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو أشد من حاجتهم إلى أنقواتهم التي يعيشون بها . وأهل كل مصر وجند أو نفر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مهابدون مقومون ،

يذكرون ويصرون الخطأ ، ويظنون عن الجهل ، ويمنعون عن البدع ، ويحذرون
 الفتن ، ويتفقدون أمور عامة من هو بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ،
 ثم يستصلحون ذلك ويالجئون على ما استنكروا منه بالرأى والرفق والنصح ،
 ويرضون ما أعيامهم الى ما يرجون قوته عليهم ، مأمونين على سير ذلك وتحصينه ،
 بصراء بالرأى حين يبدو ، وأطباء باستنصاله قبل أن يتمكن ، وفي كل قوم خواص
 رجال عندهم على هذا معونة إذا صُتوا لذلك وتلطف لهم ، وأُعينوا على رأيهم ،
 وقوا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويسطه لهم . وخطر هذا جسم في
 أمرين أحدهما يرجوع أهل الفساد إلى الصلاح ، وأهل الفرقة إلى الألفة ، والأمر
 الآخر أن لا يتحرك متحرك في أمر من أمور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه ، ولا
 يهمس هامس إلا وأذن شفيقة تصيح نحوه » قال : « وقد علمنا علماً لا يخالطه
 الشك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها ، ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها ،
 وأن خاصة قط لم تصلح من قبل أنفسها وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها »
 « فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ينظرون اليهم ويسمعون
 منهم ، اهتمت خواصهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليه بمجد ونصح ومثابة وقوة ، جعل
 الله ذلك صلاحاً لجماعتهم ، وسبباً لاصلاح الصلاح من خواصهم ، وزيادة فيما أنعم
 الله به عليهم ، وبلاغاً إلى الخير كله » وحاجة الخواص الى الإمام الذي يصلحهم
 الله به كحاجة العامة الى خواصهم وأعظم من ذلك » .

هذه زبدة تقرير ابن اللقنم للمنصور وفيه صورة جميلة مما تحتاجه إدارة البلاد
 من الإصلاح ، وما يجب القيام به لاستصلاح الجند والرفق بأهل الكوفة والبصرة ،
 والعناية بأهل العراق والمطف على الحجاز واليمن واليامة واختيار العمال الكفاة
 والرجوع الى أهل الرأى ، واصطناع أرباب العقل من أهل الشام وإشارة الى أن
 بعضهم بنى العباس من الأمور الطبيعية لأن للالك كان فيهم فاشتغل الى غيرهم ،

وعرفه الطرق الى استصلاح العامة واختيار الخاصة من الأحابب وللوالين الى غير ذلك من الأمور التي يمكن تطبيقها لعمران البلاد ورفع الحيف عن الخلق ، والانتفاع بالقوى للقيادة للرعية وأرضهم . ومن أم ما وقفنا عليه هذا التقرير أن الأمة لم تعلم في إبان مجدها رجالاً يدلونها على مواطن الضعف من سلطانها ، ومعالجة الإصلاح بالعقل حتى يبلغ كاله ، والأخذ في كل أمر من أمور الدولة بالحزم النافع وللصلحة الشاملة .

ادارة المهدي والهادي والرشيد .

سار للمهدي بالخلافة على الخطة التي اختطها له أبوه ، ينظر في الدقائق من الأمور ، ويظهر أبهة الوزارة ، لكفاءة وزيره أبي عبيد الله بن معاوية بن يار ، فإنه جمع له حاصل المملكة ورتب له الديوان^(١) وقرر القواعد « وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذفاً وعلماً وخبرة » اخترع أموراً منها أنه نقل الخراج الى القاسمة . وكان السلطان يأخذ عن الفلوات خراجاً مقررأ ولا يقاسم ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وضبطت الأمور في أيامه ضبطاً محكماً . وكان من جملة حظ المهدي أن يكون له وزراء من هذا الطراز العالي ، وهو يعتمد عليهم ويضع ثقته برجال دولته ، واستوزر أيضاً يعقوب بن داود فخرج كتاب للمهدي الى الديوان أن أمير المؤمنين أخى يعقوب بن داود ، فلم يكن ينفذ شئ . من كتب للمهدي حتى يرد كتاب الوزير يعقوب معه الى أميته بانفاذه . أي أن الخليفة ووزيره كانا يراقب أحدهما عمل صاحبه لتقرير ما تلزم به للصلحة قبل إمضائه .

ووضع للمهدي ديوان الأزمّة ولم يكن لبنى أمية ذلك . ومعنى ديوان الأزمّة أن يكون لكل ديوان زمام وهو رجل يضبطه . وقد كانت الدواوين قبل ذلك

(١) القنطرة لابن القطر

مختلطة^(١) . والسبب في وضع ديوان الأزمة أنه لما جمعت العواوين لعمر بن بزيع فكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان ، فأخذ دواوين الأزمة ، وولى على كل ديوان رجلاً . وأنشأ ديواناً سموه ديوان النظر أى للكتابات والمراجعات تسهيلاً على أرباب المصالح . والديوان يقسم أربعة أقسام^(٢) : ديوان الجيش وفيه الإتيات والمطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال ينظر في الدخل والخرج .

والمهدى أول من جلس للظالم من بني العباس ، يقيم العدل بين المتظالمين ، ومشى على إثره الهادي والرشيد ولأأمون . وكان المهدي آخر من جلس للنظر فيها . وبسط المهدي يده في المطاء فأذهب جميع ما خلفه للنصور وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار . وأجرى للمهدي على المحذمين وأهل السجون في جميع الآفاق ، وأمر بإقامة البريد بين مكة وللدينة واليمن وبنداد بيغال وإبل . ولم يكن هناك بريد قبل ذلك ولا في قطر من الأقطار . وكان وزيره « رفع اليه النصائح في الأمور الحسنة من أمور الثغور والولايات وبناء الحصون وتقوية الفزاة وتزويج المزاج وفكك الأسرى والمحبسين والقضاء على الفارمين والصدقة على للمتغفين » واشتد للمهدي على الزنادقة وقتل في جملة من قتل ابن وزيره أبي عبد الله بن معاوية فاستوحش كل منها من صاحبه فاعتزل الوزير الخدمة .

قال رجل للمهدي عندي نصيحة يا أمير المؤمنين فقال : لمن نصيحتك هذه لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك ؟ . قال : لك يا أمير المؤمنين . قال : ليس الساعي بأعظم عورة ولا أقبح حالاً ممن قبل سماعته ، ولا تغلوا من أن تكون حاسد نعمة فلا تشفى غيظك أو عدواً فلا ناقب لك عدوك . ثم أقبل على الناس فقال : لا ينصح لنا

ناصرح إلا بما فيه رضى لله وللمسلمين صلاح ، فانما لنا الأبدان وليس لنا القلوب ، ومن استتر عنا لم نكشفه ، ومن بادانا طلبنا توبته ، ومن أخطأ أقلنا عثرته ، فاقى أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالمعقوبة ، والسلامة مع الغفوة أكثر منها مع العاجلة ، والقلوب لا تبقى لوال لا ينطف إذا استعطف ، ولا ينفو إذا قدر ، ولا ينفو إذا ظفر ، ولا يرحم إذا استرحم . وهذا أرقى الأدب فى استمالة القلوب وحسن سياسة الناس ، ومن وفق إلى تطبيق هذه القواعد على أمته لا يحتاج إلى سلاح يخفيهم ولا إلى جند يضبطهم .

وأفضت الخلافة إلى الهادى ، والمواوين مدونة مرتبة ، فن ديوان الخراج ، إلى ديوان الضياع ، إلى ديوان الزمام ، إلى ديوان التوقيع والتتبع على العمال ، إلى ديوان النظر أى للكتابات وللراجعات ، إلى ديوان الرسائل ، إلى ديوان البريد والخرايط ، إلى غير ذلك من الدواوين . ومن أم ما عمله الهادى فى عهده القصير أن منع أمه الخيزران من التدخل فى أمور السلطان لقضاء حوائج الناس ^(١) . وحلف أن يضرب عنق كل من يقف على بابها من قواده وخاصته وخدمه قائلاً لها : أمالك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك أن تفتحنى فأك فى حاجة لى أو ذمى ، فصلت والدته بما رسم لها ابنها . وكانت فى أول خلافة الهادى تفتات ^(٢) عليه فى أموره وتسلط به مملك أيه من قبله فى الاستبداد بالأمر ^(٣) والنهى . أما ابنها فكان من رأيه أنه « ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك » وقال : « ما للنساء والكلام فى أمر الرجال » ولما كان فى آخر أيامه من الدنيا استدعاها وقال لها : قد كنت نهيتك عن أشياء وأمرتك بأخرى على ما أوجبت سياسة لللك لا موجبات للشرع من برك . ولم أكن عاقلاً بل كنت لك صائناً وبراً واصلاً ، ثم قضى نحبه قابضاً على يدها واضعاً لها على صدره .

(١) مروج الذهب للمسعودى (٢) تلويح الطبرى (٣) مروج الذهب للمسعودى

وبإصدار الهادى النساء عن الوساطات والشفاعات عمل بوصية جده للنصور لابنه للهدى ، وجعل أمور الدولة تدير في قواعدها للرعية على ما تقضى به أحكام الشرع والعقل ، ويراها الوزراء والأمراء والقضاة . وكان الهادى جباراً عظيماً وهو أول من مشى الرجال بين يديه بالسيوف للرهفة ، والأعمدة المشهورة ، والقصى المتورة ، فسلكت عماله طريقته ، وبعثوا منهجه ، وكثر السلاح في عصره .

سار الرشيد في إدارته على نهج قويم ، وأعاد إلى الخلافة روحها الذى كان لها على عهد جده للنصور ، وما كان بالمسرف ولا بالمبخل ، وسمى الناس أيامه « أيام المروس » لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها . وكانت دولته ^(١) « من أحسن الدول وأكثرها قاراً وروحاً وخيراً وأوسمها رقة مملكة : جى الرشيد معظم الدنيا وكان أحد عماله صاحب مصر » وقلد وزارته يحيى بن خالد وقال له : « قد قلدتك أمر الدولة وأخرجته من عنق اليك » ، فأحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت وأعزل من رأيت ، واضع الأمور على ما ترى » ودفع إليه خاتم الخلافة . أما الولايات فقد فوضها لأمرأء جعل لهم الولاية على جميع أهلها ينظرون ^(٢) في تدبير الجيوش والأحكام ويقلدون القضاة والحكام ، ويجبسون الخراج ويقبضون الصدقات ، ويقلدون العمال فيها ، ويمحسون الدين ويقيمون حدوده ، ويؤمنون في الجمع والجماعات أو يستخفون عليها ، ويسبسون الحج من أعمالهم فإن كانت أقاليم ثغراً متاخماً للعدو تولوا جهاده .

وما قمت أعمال الدولة منذ انتقالها إلى بنى العباس تقسيمها في زمن الرشيد ، ولذلك كان للخليفة وقت ليحج وقت لينزو ، ووقت ليعطاف ويرتبع في الرقة ، ويترك قصر الخلد في بغداد . ولقد كان الروم من جيوش الرشيد في بلية فآغزتهم مرة إلا وحالفها التوفيق ، وبعث صاحب الروم جزية رأسه وبطارقته ، وجرى

(١) التخرى لابن القطان (٢) الأحكام السلطانية للوردى

الفداء بين الروم والعرب حتى لم يبق من المسلمين أسير واحد بأيدي الروم ، وما اشتملت فتنة في أرجاء مملكته إلا أطفأها ، ومنها فتنة النزارية والجمانية في الشام أى قيس ويعن عادوا إلى ما كانوا عليه قتل منهم بشر كثير ، فأرسل عليهم إبراهيم ابن محمد للهدى والياً ففكر أن يعد إلى طرق إدارية تقطع شأفة هذه الثالثة ، فرأى أن يلهمهم بقشور ، ويتقرب من قلوبهم بما يستميلها ولا يصدعها ، فار في استقبالهم على قانون من « التشريعات » أو « البروتوكول » أراضهم به وما تكلف شيئاً ، فقد أمر حاجبه بإحضار وجوه الحيين ، وأمره بتسمية أشرافهم ، وأن يقدم من كل حي الأفضل فالأفضل منهم ، فأمر بتصيير أعلا الناس من الجانب الأيمن مضرباً وعن شماله يميناً ، ومن دون اليماني مضربى ومن دون للضربى يمانى ، حتى لا يلتصق مضربى بمضربى ولا يمانى بيماني ، فلما قدم الطعام قال قبل أن يطعم شيئاً : « إن الله عز وجل جعل قريشاً موازين بين العرب ، فجعل مضربى عمومتهما ، وجعل بين خولتها ، واقترض عليها حب العمومة والخولة ، فليس يتصب قرشى إلا للجهل بالفتراض عليه » ثم قال : يا « مضربى مضربى بكم وقد قتلتم إذا خرجتم لإخوانكم من يمن قد قدم أميرنا مضربى على يمن ، وكأنتى بكم يا يمن قد قتلتم وكيف قدمكم علينا ، وقد جعل بجانب اليماني مضرباً وبجانب للضربى يميناً فقتلتم يا مضربى مضربى إن الجانب الأيمن أعلا من الجانب الأيسر ، وقد جعلت الأيمن لمضربى والأيسر ليمن ، وهذا دليل على تقدمته إيانا عليكم ، ألا أن مجلسك يا رئيس للضربى في غد من الجانب الأيسر ، ومجلسك يا رئيس اليمانية في غد من الجانب الأيمن . وهذان الجانبان يتناوبان بينكما ، يكون كل من كان في جهة متحولاً عنه في غده إلى الجانب الآخر ، فانصرف القوم كلهم حامداً . » وبمثل هذه القوانين الإدارية رجع السلام إلى الشام ست سنين ، واستراحت من العصبية الجاهلية وبأو^(١) القبلية .

قال الجاحظ^(١): حدثني ابراهيم بن السندی قال لما كان أبي بالشام والياً أحب أن يسرى بين القحطاني والمدناني وقال : لسنا نقدمكم إلا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء ، وكلدكم إخوة ، وليس للزاري شيء وليس لليمان مثله قال : وكان يتفدى مع جيلة من جيلة الفريقين ، ويسوى بينهم في الإذن والمجلس .

ومن عمال الرشيد من أبدع طرقاً جديدة في الإدارة ، ولي عمر بن مهران مصر فقال هذا لقلامه : لا تقبل من الهدايا إلا ما يدخل في الجراب . لا تقبل دابة ولا جارية ولا غلاماً . فجعل الناس يبعثون بهداياهم فجعل يرد ما كان من الأنطاف^(٢) ويقبل للال والثياب ، ويوقع عليها أسماء من بشت بها ، ثم وضع الجبابة . وكان بمصر قوم قد اعتادوا للطل وكسر الخراج ، فاستأدى من الخراج النجم الأول والنجم الثاني ، فلما كان في النجم الثالث وقست للطالبة وللطل فأحضر أهل الخراج والتجار فطالبهم فدافعوه وشكوا الضيقة ، فأمر بأحضار تلك الهدايا التي بشت بها إليه ونظر في الأكياس وأحضر المجيد^(٣) فوزن ما فيها وأجزى أثمانها عن أهلها ثم قال : يا قوم حفظت عليكم هداياكم إلى وقت حاجتكم إليها ، فأدوا إلينا مالنا . فأدوا إليه حتى أغلق مال مصر ، فأنصرف ولا يعلم أنه أغلق مال مصر غيره^(٤) .

ولقد كان الرشيد على أشد ما يكون من الانتباه لكل مادق وجل من شؤون الملك ، ومن أشد اللوكة بحثاً عن أسرار رعيته وأكثرم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً . يصطنع الرجال ويحلم عن مساوى . تنتفر من رجاله ، ويسعى في عمران البلاد ويكف الأذى عن الرعية ، ويأخذ بأيدي العلماء والباحثين ويجمع إليهم ويأنس بهم . ولما رأى أن ملكه في خطر محقق من نفوذ آل برمك ووزرائه وخاصته لأنصراف الوجوه إليهم لكثرة ما أحسنوا إلى الناس ولاجماع القاصي والباقي على

(١) الحيوان للجاحظ (٢) الأنطاف الهدايا وأحدها لطف وألفه بكذا اتخذه به وبره وتكون في الثياب من المأكول والمشروب والشموم (٣) العراف أو قابض المال (٤) تاريخ الطبري

جهم حتى شاموا الخليفة أو أربوا عليه في للكانة ، أمر بالقبض عليهم ومصادرتهم وقتلهم وما أراد أن ييوح بسر ما أنه ، فرجم القوم الظنون به ، وذلك لأنه خافهم على ملكه ، وهم فرس لم قديم يتون إليه من الإمارة ، والفرس يحاولون منذ القرن الأول أن يمدوا الملك فيهم فارسياً ويخرجوه عن صبغته العربية . ونشأت من قتلهم قصة طويلة سداها ولحنتها للبالغة ، بل الاختلاق ، شغل الرشيد بها الناس عن نفسه وعن سياسة بلاده .

وضع الرشيد عن أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف ، وترك بعض أهل الضياع في فلسطين أرضهم فوجه اليهم أحد كبار قواده فدعا قوماً من أكرتها ومزارعها إلى الرجوع إليها ، على أن يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم ، فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف . وجاء قوم منهم بعدُ فردت عليهم أرضهم على مثل ما كانوا عليه فهم أصحاب الردود . والرشيد يد كل خلل في مملكته ، ويهتم كل الاهتمام أن يخفف عن الفلاحين . وكان رجاله لا يألونه نصحاً لأنه يهتم لكل ما ينفع . وفي الرسالة التي كتبها له قاضيه أبو يوسف في الخراج نموذج من هذه العناية . وما قال فيها : وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويصفون ويأتون ما لا يحل ، وإنما ينبغي أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح ، فإذا وليتها رجلاً ووجد من قبله من يوثق بدينه وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما تجرى ، ولا تجرى عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة . . . ويكون من يولى قبيحاً عالماً مشاوراً لأهل الرأي مؤتمناً على الأموال ، إلى قد أراهم لا يجتاطون فيمن يولون الخراج ، إذا لزم الرجل منهم باب أحدم أياما ولاه رقب للسلمين وجاية خراجهم ، ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناصية ولا بصفاء ولا باستقامة طريقة ولا بشير ذلك . . . وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسواً لأهل عمله ولا محترماً لم ولا مستخفاً بهم ، ولكن يلبس لم جلباباً

من الذين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء ، من غير أن يظلموا أو يحصلوا ما لا يجب عليهم ، والذين للمسلم والمظلمة على الفاجر . والمدل على أهل النمة وإنصاف للظالم ، والشدة على الظالم والمفوع عن الناس . . . فان كل ما عمل به وإلى الخراج من الظلم والصف فانه يحمل على أنه قد أمر به وقد أمر بغيره ، وإن أحلت بواحد منهم العقوبة للوجه انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج ، واجترأوا على ظلمهم وعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم ، وإذا صح عندك من العامل والوالى تعدى بظلم أو عف وخيانة لك فى رعيته واحتجأن شىء من النى ، أو خبت طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن قلده شيئاً من أمر رعيته أو تشركه فى شىء من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تروّع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له .

وقال : « بلغنى عن ولاتك على البريد والأخبار فى النواحي تخليط كثير ومحابة فيما يحتاج إلى معرفته من أمور الولاية والرعية ، وأنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية واستروا أخبارهم وسوء معاملتهم للناس ، وربما كتبوا فى الولاية والعمال بما لم يفعلوا إذ لم يرضوهم وهذا مما ينبى أن تتفقده ، وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار . » وكيف ينبى أن لا يقبل خبر إلا من ثقة عدل ، ويمجرى لهم من الرزق من بيت اللال وليدر عليهم ، وتقدم اليهم فى أن لا يترأوا عنك خبراً عن رعيته ولا عن ولاتك ولا يزيدوا فيما يكتبون به عليك خبراً ، فمن لم يفعل منهم فنكل به ، ومتى لم يكن أصحاب البرد والأخبار فى النواحي ثقات عدولا فلا ينبى أن يقبل لهم خبر فى قاض ولا وال . إنما يحتاط بصاحب البريد على القاضى والوالى وغيرهما فإذا لم يكن عدلا فلا يحمل ولا يسع استعمال خبره ولا قبوله ^(١)

يمثل هذا اللسان يتلطف أبو يوسف وينصح لخليفته في اختيار عمال الخراج والأمناء على الاخبار لمراقبة العمال والولاة والقضاة . على أن الرشيد أخذ العمال^(١) والثناء والدهاقين وأصحاب الضياع والبتاعين للفلات وللقبلين^(٢) وكان عليهم أموال مجتمعة فطولبوا بصنوف من المذاب . وهذا ما دعا بعض الناس في الدولة العباسية الى أن يقولوا إن بنى أمية^(٣) كانت مصائبهم في أديانهم وأن جبايتهم وأموالهم سليمة لم يظلموا في العشر والخراج ، أما بنو العباس فمع سلامة أديانهم كانت أموالهم فاسدة وجبايتهم بالظلم والقتل . وأوضاع كل أمة تتقل وتتح في الليزان بحسب غناء القائمين على تطبيقها ، يزنون بالقسطاس للستيم أو يُخسرون إذا كالوا أو وزنوا ولى الرشيد احدهم بعض اعمال الخراج . فدخل على الرشيد يودعه ، وعنده يحيى وجعفر بن يحيى ، فقال الرشيد ليحيى : اوصياه ، فقال له يحيى : وفرّ واعمر . وقال له جعفر : أنصف وانتصف . فقال له الرشيد : إعدل وأحسن .

وانتهى إلى علم الرشيد أن عامل الأهواز قد اقتطع مالا كثيرا من مال البلد . ولما سأل الرشيد أجاب : وحلفت بأيمان البيعة أنى قد نصحت وشكرت الصنعة ووفرت وما أسرفت ولا خنت ، والله لأصدقنك عن أمرى : عمرت البلاد واستقصيت حقوقك من غير ظلم ، ووفرت أموالك وفلت ما يفعله الناصح لسيدته . وكنت إذا كان وقت بيع الفلات جمعت التجار ، فإذا تفررت العطايا أنقذت البيع وجعلت لى مع التجار فيه حصة ، فربما رجحت وربما وُضعت . الى أن اجتمع لى من ذلك ومن غيره في عدة سنين عشرة آلاف ألف درهم فأنجحت أزجا^(٤) كبيرا عقد بالجلس والآخر كأنه مجلس ، وجعلت بين يديه موضعا أقعد فيه وعيبت البدر شيئا بعد شيء في الأزج ثم سدته ، وهو بحاله ما أشك أن المنكبوب قد

(١) تاريخ البغوي (٧) المبلون ملتزمو الجباية من الولاة ، والقضاة التجار أو رؤسا الاقاليم ،
وانتالسا كان جمع نازي (٣) نزار المخاضرة التوخي (٤) بيت بينى طويلا

نجبت على ما فيه ، فخذها وحول وجهك إلى عبدك . فقال الرشيد : بارك الله لك في مالك ، فارجع إلى عملك ودار رعيتك .

ولما دخل عليه عامله بدمشق يرسف في قيده قال له الرشيد : ولبتك دمشق وهي جنة بها غدر تنكفاً أمواجها على رياض كالأزالي واردة منها كفايات للزّون إلى بيوت أموالى فما برح بك التمدى لأرفاقهم فيما أمرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لنير التوفير من جهة ولكن ولّيت أقواماً قل على أعناقهم الحق فتنفروا إلى ميدان التمدى ، ورأوا للراغبة بترك الهامة أوقع بإضرار الملك وأنوه بالشئمة على الولاية . فلا جرم أن أمير المؤمنين قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مساقي .

وكان الرشيد إذا أحسن من عامل له خيانة دبر له من صائب رأييه ولطف حيلته ما يدل على بعد نظره وحسن إدارته وجليل تدبيره ، وشدة غيبرته على مصلحة ملكه ، فيمسك أقصر الطرق إلى القضاء على الفتن للححوطة والفوائل المستجبة ، فيضرب على المنى . سيفه وسنانه ، كما يضمر المحسن بإنعامه وإحسانه . أراد مرة أن يعزل على بن عيسى عن خراسان — وخراسان كثيراً ما كانت تشغل بال الرشيد كما شغلت بال أسلافه — فدعا هرمة بن أعين مستخياً به فقال : إني لم أثارو فيك أحداً ، ولم أطلع على سرى فيك . وقد اضطربت على ثغور للشرق ، وأنكر أهل خراسان أمر على بن عيسى إذ خالف عهدي ونبذه وراء ظهره . وقد كتب يستمد ويستجيش ، وأنا كاتب إليه أخبره أنى أمده بك ، وأوجه إليه معك من الأموال والصلاح والقوة والعدة ما يطمئن إليه قلبه ، وتطلع إليه نفسه . وأاكتب معك كتاباً بخطى فلا تفتنه ، ولا تطلعن فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور ، فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامثله ولا تجاوزه إن شاء الله . وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى على بن عيسى بخطى ليتعرف ما يكون منك ومنه ، وهو من

عليه أمر على فلا تظهرنه عليه ، ولا تلمنه ما عزمت عليه ، وتأهب للمسير وأظهر
لخاصتك وعامتك أنى أوجهك مدداً لى بن عيسى وعوناً له . ثم كتب الى على
ابن عيسى كتاباً بخطه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن الزانية ، رفعت من
قدرك ، ونوهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقبك ، وجعلت أبناء ملوك العجم
حوالك وأتباعك ، فكان جزاؤى أن خالفت عهدى ، ونبتت وراءك ظهورك أسمى ،
حتى عشت فى الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته ، بسوء سيرتك ،
ورداءة طمعتك ، وظاهر خيانتك ، وقد وليت هرثة بن أعين مولاى نهر خراسان ،
وأمرته أن يشدد وطأته عليك ، وعلى وللك وكتابتك وعمالك ، ولا يترك وراءه
ظهوركم درهماً ولا حقاً سلم ولا معاهداً إلا أخذكم به ، حتى ترده إلى أهله . فان
أبيت ذلك وأباه وللك وعمالك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم
السياط ، ويحل بكم ما يحل بمن نكث وغيره ، ويدل وخالف ، وظلم وتعدى وغشم ،
إتقاما لله عز وجل بادئاً ، وخليفته ثانياً ، وللمسلمين وللمجاهدين ثالثاً ، فلا تعرض
نفسك لى لا سوى لها ، واخرج مما يلزمك طائماً أو مكرهاً . »

وكتب عهد هرثة بخطه ونصه « هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى
هرثة بن أعين حين ولاه نهر خراسان وأعماله وخراجه ، أمره بتقوى الله وطاعته ،
ورعاية أمراه ومراقبته ، وأن يحمل كتاب الله إماماً فى جميع ما هو بسبيله . فيحل
حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ، ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله ، وأولى
العلم بكتاب الله ، أو يردّه إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ، ويعزم له على رشده ،
وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشد عليهم
وطأته ، ويحل بهم سطوته ، ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين
وفى للمسلمين ، فإذا استنظف ما عندهم وقيلهم من ذلك ، نظر فى حقوق المسلمين
والمجاهدين وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يردوه إليهم ، فان ثبت قبيلهم حقوق لأمر

للمؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم عقبه ، حتى يبلغ بهم الحال التي إن تحطأها بأذى أدب تلفت أنفسهم وبطلت أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذي حق ، أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطأ ، وخشونة للطعم وللشرب وغلظ لللبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله . فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك ، فاني آثرت الله ودينى على هواى وارادتى ، فكنذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك . ودبر فى عمال السكور الذين ترجمهم فى صعودك ما لا يستوحش منه الى امر ربهم وظن رعبهم ، وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفته ومن ولاك الله أمره ان شاء الله . هذا عهدى وكتابى بخطى وأنا أشهد الله وملائكته وحمله عرشه وسكان سماواته وكفى بالله شهيداً . وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته .

أمثلة تكشف بها حقيقة إدارة الرشيد وبعد غوره فى تراتيبه . ولقد رفع اليه أن رجلا بدمشق من بقايا بنى أمية ^(١) عظيم الجاه واسع الدنيا كثير المال والأموال مطاعا فى البلدة له جماعة وأولاد وعماليك وموال ، يركبون الخيل ، ويحملون السلاح ، ويفزون الروم ، وانه سمح جواد كثير البذل والضيافة ، وانه لا يؤمن منه ، فعظم ذلك عليه ، فاستدعى منارة صاحب الخلفاء وأمره بالخروج الى دمشق وضم اليه مائة غلام وأجله لنهايه ستة وایابه ستة ويوما لقوده ، وأمره ان يتفقد دار الرجل وجميع ما فيها ووليه وإهله وحاشيته وغلطانه ، وما يقولون وقدر النعمة والحال والمحل . فجاءه به فى اليعاد للضروب وقص عليه ما سمعه ورآه . فصرف الرشيد ان الرجل محسود على النعمة مكذوب عليه ، فأدناه واعتذر عن استدعائه ، وقال له : سل ما تحتاج اليه من مصالح جاهك ومعاشك . فقال : عمال امير المؤمنين منصفون وقد

استغفنت ببدله عن مسائلته من ماله ، وأمورى منتظمة وأحوالى مستقيمة ، وكذلك أمور اهل البلد بالسدل الشامل فى ظل دولة أمير المؤمنين . فأعاده الى بلاده على خير حال ولم يترك لوشاة سبيلا اليه .

ولقد توسع الرشيد فى توسعة سلطة عماله ، ليستقيم أمر البلاد ، فقد شخص الفضل بن يحيى الى خراسان والياً عليها فبنى فيها للساجد والرباطات ، واتخذ بخراسان جنداً من المعجم سماهم العباسية ، وجل ولاءهم لم ، وذكروا أن عدتهم بلغت خمسة آلاف رجل وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسما يبنوا الكرنيبة وخلف الباقي بخراسان على أسمائهم ودفاترم . كتب والى إزمينية للرشيد الى وزيره إن قوماً صاروا الى سبيل النصح ، فدكروا ضياعاً بآرمينية قد عفت ودرست ، يرجع منها الى السلطان مال عظيم ، وأنى وقتت عن اللطالبة حتى أعرف رأيك فكتب اليه : « قرأت هذه الرقة للذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله فى أيامنا كاسدة ، وألسنة السعاة فى أيامنا كليلة خاسئة ، فإذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما فى ديوانك ، فإننا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لاهياء الأعلام الدائرة ، وجنبنى وتجنب بيت جرير يخاطب الفرزدق :

وكننت إذا حلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عاراً
وأجر امورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا ، واعلم أنها مدة تنتهى وأيام تنقضي ، فإتأ ذكر جميل ، وإما خرى طويل . »

وعما يبد فى توسيع السلطة أن قاضى الرشيد أبو يوسف كان أول من دعى فى الاسلام قاضى القضاة ولم يقع^(١) هذا الاسم على غيره كما وقع له فيه ، فإنه كان قاضى المشرق والمغرب ، فهو قاضى القضاة على التحقيق ، والقضاة يعينون باقتراحه ،

(١) الهجوم الزاهرة لابن قنرى برى

وكان القاضى فى العوامم لا يتناول أقل من ألف دينار فى السنة ، وأجرى على قاضى مصر^(١) مائة وثمانية وستين ديناراً فى كل شهر وهو أول قاض أُجرى عليه هذا ، وأجروا بعد ذلك على القاضى سبعة دنانير كل يوم ثم صار أبو الجيش يجرى على قاضيه كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وكانوا يجرّون على القضاة والعمال الأرزاق من بيت المال من جباية الأرض أو من خراجها والجزية .

والرشيد لا يرضى بالمال فى سبيل الدولة ، وللمال وحده لا يكنى الخليفة أمر الفتوق التى تحدث إن لم يكن لها من يوثق بأمانته فى تلافى شرها ، والرشيد على كثرة بذله للمأثور خلف من المال « ما لم يخلف »^(٢) أحد مثله مذ كانت الدنيا ، وذلك أنه خلف من الأثاث والعين والورق والجوهر والدواب سوى الضياع والعقار ما قيمته مائة ألف ألف وخمسة وعشرون ألف ألف دينار « قال ابن الأثير كان الرشيد يطلب العمل بآثار النصور إلا فى بذل المال فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك .

ادارة الأميين والأممونه

لم يعرف التاريخ شيئاً من التدبير الذى جرى عليه الأميين بعد الرشيد ، لأنه كان يعيث وقلماء يجد ، شغل نفسه والأمة معظم أيامه بالفتن ، لنزع ولاية العهد من أخيه للأمون وتوسيدها إلى ابنه الرضيع ، وكان من أثر هذا التطاحن بين الأخوين أن خرب قسم عظيم من مدينة دار السلام ، دعى غيرها من الأرباض والولايات ، وسالت سيول السماء ، وفرق الأميين ما فى خزائن الدولة من الأموال والأعلاق والذخائر ، حتى دالت الخلافة وضاعت بعد الرشيد ، ولم يرزق الأميين وزراء كوزراء أخيه : طاهر بن الحسين وهرثة بن أعين والحسن بن سهل والنضل بن سهل ثم أحمد

(١) أخبار الولاة والقضاة للكندى (٢) لمناقب الملوك لشمس

ابن يوسف وعمرو بن مسعدة وأضرابهم ، بل اصطنع من نبذهم أبوه الرشيد ، وكان أقصاهم سوء سيرتهم ، فرجح للأموت برجاله وعقله ، وخسر الأمين برجاله وضعف تديره .

وبينا كان للأمون في مرو ينظر في أمور الدولة كان الأمين يوجهه إلى جميع البلدان في طلب اللهين وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق وناقص في ابتياع فوه الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر في خصيائه وجلسائه ومحدثيه . . . وأمر ببناء مجالس لمتزهااته ومواضع خلوته ولهوه . . . وأمر بصل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس وأنفق في عملها مالا عظيما .

ولما حصر الأمين وضعفه^(١) الأمر قال : ويحكم أما أحد يستراح اليه ! فأنوه رجل من العرب فلما صار اليه قال له : أشرك علينا في أمرنا . قال له : يا أمير المؤمنين قد بطل الرأي اليوم وذهب ، ولكن استعمل الأراجيف فإنها من آلة الحرب . فكان يضع له الأخبار فإذا مشى الناس تبينوا بطلانها . فالأمين كان يف إلى ذلك ، وأخوه للأمون بسد إلى القواد والمظاء والعلماء الأعلام يستشيرهم ويأتمهم . وغلط للأمون لأول أمره ثلاث غلطات ادارية : منها أنه لم يأت الى عاصمة ملكه عقيب مقتل أخيه قضى في الطريق من مرو الى بغداد سنتين بسد أن أقام بمرو تسع سنين ، وكان عليه أن يبادر لجمع القلوب وكسر شوكة للتلاعيب من القواد . وبايع للأمون بولاية عهده إلى علي بن موسى الرضا وهو في خراسان فأخرج الخلافة من آل العباس ، حتى أجمعوا على خلافه وبايسوا بالخلافة ابراهيم بن المهدي في بغداد وغلطوا طاعته . ومنها أنه سمع لوشاية وزيره الفضل بن سهل في هزيمة بن

أعين النذى كان بحسن تديره العامل الأول فى القضاء على جيوش أخيه الأمين وإبصال الخلافة للأمين . وكانت أنت هرثة كتب للأمين أن على الشام والحجاز فأبى وقصد الى الأمين فى خراسان (١) « إدلالا منه عليه لما كان يعرف من نصيحته له ولآبائه وأراد أن يعرف للأمين ما يدبر عليه الفضل بن سهل وما يكتم عنه من الأخبار وألا يدعه حتى يردده الى بغداد دار خلافة آباءه وملكهم ، ليتوسط سلطانه ويشرف على أطرافه ، فلم الفضل ما يريد فقال للأمين : إن هرثة قد أنزل عليك البلاد والعباد وظاهر عليك عدوك . » ولما أدخل هرثة على الأمين وقد اشرب قلبه ما اشرب من ناحيته ذكر له ما بلنه عنه مما افتراه الفضل ، وذهب هرثة يتكلم ويعتذر ويدفع عن نفسه ما قرف به ، فلم يقبل ذلك منه وأمر به فوجى ، على أنه وديس بطنه وسحب من بين يديه ثم قتل .

وكاد للأمين يملط غلطة رابعة بتخليه عن طاهر بن الحسين : « النذى أبى (٢) فى طاعته ما أبى واقترح ما افتتح وقاد اليه الخلافة مزمومة حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله وصير فى زاوية من الأرض بالركة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشعب عليه جنده » وتنوسى حتى لا يستعان به فى شىء فى الحروب واستعين بمن هو دونه أضماقا . لكن عقل الأمين تدارك هذه الغلطات ، وما إن جاء بغداد حتى قبض على قياد للرك قبضة الرجل الحازم ، وظهرت مواهبه ونبوغه فى السياسة والإدارة فى زمن غلبت الفتنة على قلوب الناس فاستعذبوها ، ولا مال له يرضيهم به . وقال يتخوف هائجا بهيج وبيوت المال فارغة : إن الناس فى هذه المدينة على طبقات ثلاث : ظالم ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا واحسانا ، وأما للمظلوم فليس يتوقع أن ينتصف إلا بنا ، ومن كان لا ظالما ولا مظلوما ، فينته يسه ، وما كان إلا كما قال .

وقيل إن للأمون بكى لما رأى طاهر بن الحسين . فلما سئل عن سبب بكانه قال إني ذكرت محمداً أخى « الأمين » وما ناله من الفلة فخنقني العبرة ، فاسترحت إلى الافاضة ولن يغوث طاهر آ منى ما يكره ، فبلغ ذلك طاهراً فركب إلى احمد بن أبي خالد فقال له : إن الثناء منى ليس برخيص ، وإن اللعروف عندى ليس بضائع ، فعيبنى عن عينه . فسعى له بتولية خراسان ، وكان قبل ولايته نذبه الحسن ابن سهل للخروج إلى محاربة نصر بن شيبث فقال : حاربت خليفة وسقت الخلافة إلى خليفة وأؤمر بمثل هذا ، وإنما يجب أن توجه لهذا قائداً من قوادى . ثم وسد للأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو ابن طاهر بن الحسين الرقة وحرب نصر بن شيبث وولاه البلاد التي في طريقه ليكون حكمه نافذاً مهيباً مهياً له أسباب الظفر من كل وجه . وذلك لثلاث تمارض السلطات ، ويجمع القائد في العادة بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية ، وهذا من دقيق سياسة العباسيين . ولما وسدت إلى عبد الله بن طاهر قيادة الجيش لقتال الخارجي ابن شيبث كتب إليه أبوه طاهر بن الحسين كتاباً تنازعه^(١) الناس وكتبوه وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ للأمون فدعا به وقرى . عليه فقال : ما أنقى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة واصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به ، وتقدم وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .

وما ورد في هذا الكتاب في الإدارة : ولا تهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبداة والظنون السيئة بهم مأثم ، واجل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم ، يملك^(٢) ذلك على اصطناعهم ورياضتهم . . . ولا يمنعك حسن

(١) تاريخ الطبرى (٢) رواية ابن الأثير يترك ذلك عن اصطناعهم

الظن بأصحابك والرافة برعيتك ، أن تستعمل للسألة والبحث عن أمورك ، ولتكن للبائسة لأمر الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يقيسها ويصلحها ، والنظر في حوائجهم وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك ، وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تهانون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تربطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم على أمرك في ذلك بالنسبة للرفعة ، وجانب البدع والشبهات ، يعلم لك دينك ، وتستقيم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً فف به ، وإذا وعدت الخير فأتجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها . وانمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وأبض أهله ، وأقص أهل النيمة ، فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وأجلها^(١) قريب الكذب ، والجراة على الكذب ، لأن الكذب رأس اللاتم ، والزور والنيمة خاتمها ، لأن النيمة لا يعلم صاحبها وقائلها ، ولا يعلم له صاحب ولا يستقيم لمطيها أمر . . . واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنها رأيك ، واظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنم بالعدل سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى ، واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الوفاء والحلم ، وإياك والحدة والطيرة والفرور فيما أنت ببيله . . . ولتكن ذخارتك وكنوزك التي تذخر وتكثز البر والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية ، وعمارة بلادهم والتنفذ لأمرهم ، والحفظ لسماتهم ، والإغاثة للمهوفهم . واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تضر ، وإذا كانت في إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، وصلحت به العامة ، وتزيفت به الولاة ، وطالب به الزمان ، واعتقد فيه البر واللمنة ، فليكن كنز خزانك تحريق الأموال في عمارة الاسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير

(١) رواية الأمير : فساد أمورك في عاجلها وأجلها .

لِلْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكَ حَقُوقَهُمْ ، وَأَوْفِ رِعِيَّتَكَ مِنْ ذَلِكَ حَصَصَهُمْ ، وَتَعَمَّدَ مَا يَصْلَحُ
أُمُورَهُمْ وَمَعَايِشَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِذَا فَضَلْتَ ذَلِكَ قَوَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْكَ ، وَاسْتَوْجِبْتَ لِلزَّيْدِ
مِنْ اللَّهِ ، وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جِيَايَةِ خَرَاஜِكَ ، وَجَمَعَ أَمْوَالَ رِعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ ،
وَكَانَ الْجَمِيعُ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ لَطَاعَتِكَ وَأَطِيبَ نَفْسًا
لِكُلِّ مَا أُرِدْتَ ..

وَعَادَ فَوْضَعَهُ لَهُ قَوَاعِدَ فِي حِكْمَةِ الْأَخْلَاقِ لَا تَصْلَحُ بِنَبْرِهَا الْوَلَايَةُ فَقَالَ :
« وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْبًا ، وَلَا تَعَالَيْنَ حَاسِدًا ، وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا ، وَلَا تَصْلَنْ كَفُورًا ، وَلَا
تَدَاهِنَنَّ عَدُوًّا ، وَلَا تَصْدُقَنَّ غَافِلًا ، وَلَا تَأْتِغَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تَوَالَيْنَ فَاسِقًا ، وَلَا تَبْتَغِينَ
عَادِيًّا ، وَلَا تَحْمِلَنَّ مَرَاتِيًّا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا ، وَلَا تَرْدَنَّ سَائِلًا فَقِيرًا ، وَلَا تَجْبِينَ
بَاطِلًا ، وَلَا تَلَاظِنَنَّ مَضْحَكًا ، وَلَا تَخْلُقَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تَرْهَقَنَّ هُجْرًا ، وَلَا تَقْطُرَنَّ
غَضَبًا ، وَلَا تَأْتِينَ بِذَخٍّ ، وَلَا تَمْشِينَ مَرَحًا ، وَلَا تَرْكَبِينَ سَفَهًا ، وَلَا تَقْطُرَنَّ فِي طَلَبِ
الْآخِرَةِ ، وَلَا تَدْفَعِ الْآيَامَ عَتَابًا ، وَلَا تَقْضِ عَنْ الظَّالِمِ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ خَافَةً ، وَلَا
تَطْلُبَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا .

قَالَ : وَأَكْثَرَ مَشَاوِرَةِ الْعُقَهَاءِ ، وَاسْتَعْمَلَ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ ، وَخَذَ عَنْ أَهْلِ التَّجَارِبِ
وَذَوَى الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تَدْخُلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ النِّمَةِ وَالنَّعْلِ ، وَلَا
تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا ، فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَنْفَعَتِهِمْ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ فُسَادًا لِمَا
اسْتَقْبَلَتْ فِيهِ أَمْرَ رِعِيَّتِكَ مِنَ الشَّحِّ . وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ كَثِيرَ
الْأَخْذِ قَلِيلَ الْعَطِيَةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمَّ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنَّ رِعِيَّتَكَ
إِنَّمَا تَقْدِرُ عَلَى مَحَبَّتِكَ بِالْكَفِّ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجَوْرِ عَنْهُمْ . . . وَتَقْدِرُ أُمُورَ الْجُنْدِ
فِي دَوَاوِينِهِمْ وَمَكَاتِبِهِمْ ، وَأَدْرِ عَلَى عَالِمِهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ ،
يَذْهَبُ اللَّهُ بِذَلِكَ فَاقَهُمْ ، فَيَقْوَى بِكَ أَمْرُهُمْ ، وَتَزِيدُ بِهِ قُلُوبُهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ
خُلُوصًا وَانْشِرَاحًا . . .

ثم ذكر له القضاء وإقامة العدل فيه • لتصلح الرعيصة ، وتأمين السبل ،
وينتصف للظالم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن للميتة ، ويؤدى حق الطاعة .
الى أن قال— بعد أن عرفه ما يفضل لحق السماء واعطاء الحقوق — وانظر هذا الخراج
الذى استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة ومنعة ،
ولعدوه وعدوم كبتاً وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاديه ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين
أصحابه بالحق والعدل والتسوية والصوم فيه ، ولا ترفن منه شيئاً عن شريف لشرفه
ولا عن غنى لثناه ، ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك ، ولا
تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلفن أمراً فيه شطط ، واحمل الناس كلهم
على مر الحق ، فان ذلك أجمع لألفتهم ، وألزم لرضا العامة . واعلم انك جعلت
بولاييتك خزانة وحافظاً وراعياً . وإنما سمي أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيهم
وقيهم ، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقـدـرتهم ، وتنفعه في قولهم أمرهم
وصلاحهم وتقويم أودهم . فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى الرأى والتقدير
والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم في الرزق فان ذلك
من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند اليك . ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا
يصرفنك عنه صارف ، فانك متى آثرته وقت فيه بالواجب استدعيت به زيادة
النعمة من ربك ، وحسن الأحدثنة في عملك ، وأحرزت به الحجة من رعيتك ،
وأعنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت المارة بناحياتك ، وظهر
الخصب في كورك ، فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على
ارتباط جندك ، وارضاء العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود
السياسة ، مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل
وقوة وآلة وعدة ، فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئاً تحمد ، متعباً أمرك
إن شاء الله .

« واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، معاًين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع ، فأمنه وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته ... »

« وافرح من عمل يومك ولا تؤخره لعدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لنسدر أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت . واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فيشغلك ذلك حتى تعرض عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت نفسك ، وبذلك أحكمت أمور سلطانك . وانظر أحرار الناس وذوى الشرف^(١) منهم ممن تستيقن صفاء طوبيتهم ، وشهدت مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤوتهم ، وأصلح حالهم حتى لا يجدوا خللتهم مآ ، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة اليك ، والمحقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فسل عنه أحق مائة ، وוכל بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتتظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتامام وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال ... »

« وأجر للأضرء^(٢) من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم ، والمحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً وتؤويهم ، وقواماً يرقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسقمهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى

(١) هذه رواية الطبري وفي رواية ابن الساعي ذوى السن (٢) رواية ابن الساعي « الاخراب » بدل الاضرء.

سرف في بيت المال . واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم ، لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم ، دون رفع حوائجهم إلى ولايتهم ، طمعاً في نيل الزيادة ، وفضل الرفق منهم ، وربما يجرم للتصفح لأموال الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه منها ، ما يناله به مؤونة ومشقة .

« وأكثر الأذن للناس عليك وأبرز للناس وجهك ، وسكن لم حواسك ، واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرك ، ولن لهم في السألة والمنطق ، واعطف عليهم بمجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس ، والتامس الصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان ، فإن المطية على ذلك تجارة مربحة . . . » « وأعرف ما تجمع عمالك من الأموال وينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها . وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاه ذلك اليك في سر ، واعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك . »

« وانظر عمالك الذين يحضرتك وكتابك فوقت لكل منهم في كل يوم وقتاً يدخل به عليك بكتبه ومؤامراته ، وما عنده من حوائج عمالك وأمور كورك ورعيته ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرر النظر فيه والتدبر له ، فما كان موافقاً للعزم والحق فأمنه ، واستغفر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فأصرفه إلى التثبيت فيه والمأأة عنه . ولا تمنن على رعيته ولا على غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعمون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضمن للمعروف إلا على ذلك . . . »

أرأيتم هذا الكلام الآخذ بجميع الفوائد الذي كتب به طاهر بن الحسين الى ابنه قبل خسين ومائة وألف سنة في هذا الموضوع الجليل الذي فيه قوام الملأله

والشعوب ؟ أنتظنون أن هذه الأفكار يصدر اليوم أحسن منها عن أكبر عالم إدارى عارف بطبائع الناس وما يصلحهم ، وللمالك وما ينبغي لها ؟ وعرفنا من هذا الكتاب مكانة طاهر بن الحسين من قيام الدولة والدفاع عن حوزة الخلافة ، وأن للآمون الذى يكون من جملة قواده ورجال دولته هذا العظيم لا بد أن يكون فى عمله جدًّا عظيم . وقد تقدم معنا أن عبد الله بن طاهر نُدب لحرب نصر بن شيبث ، فلما استأمن هذا وصفت البلاد ، جاء الشام فصل أحسن الأعمال لراحة أهلها واستقرارها بلداً بلداً ، لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصماليك والزواquil ^(١) ، وهدم الحصون وحيطان المدن ، وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً ، ونظر فى مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج ، ثم قصد الى مصر فضرب على أيدي الخوارج فيها ، وربطها بالخلافة ربطاً محكمًا . وكان نحو ^(٢) الحنة عشر ألفاً من أهل قرطبة جلوا من الأندلس بعد وقعة الرض فى سنة ٢٠٢ فأتوها إلى الاسكندرية فلكوها مدينة ، فلما ورد عبد الله بن طاهر على مصر صالحهم على التخلي عنها على مال بذله لهم ، وخيرهم فى النزول حيث شاءوا من جزائر البحر فاختراروا جزيرة اقریطش من البحر الرومى .

وكان من تربية طاهر بن الحسين أن جاء ابنه كما قال له احمد بن يوسف الكاتب موقفاً فى الشدة واليان فى مواضعهما ، ولا يعلم سائس جند ورجية عدل بينهم عدله ، ولا عفا بعد القدرة عن آسفه وأضمنه عفوه . قال : ولقل ما رأينا ابن شرف لم يلقى يده متكللاً على ما قدمت له أبوته . قال يونس بن عبد الأعلى : أقبل الينا (فى مصر) ففى حدث من المشرق ، يعنى ابن طاهر ، والدنيا عندنا مفتونة . قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب ، والناس فى بلاء ، فأصلح الدنيا وأمن البرى . وأخاف السقيم واستوقفت له الرجى بالطاعة . ولقد قال الآمون لبعض

(١) الزواquil العروس (٢) الحنة الجبل لابن الأبار

جلسائه : من أنبل ما تعلمون نبلا وأعظم عفة ؟ فجأوا بما فتح الله عليهم ، وبمضمهر مدحه وقرظه . فقال : ذلك والله أبو العباس عبد الله بن طاهر دخل مصر وهي كالمرس الكاملة ، فيها خراجها وبها أموالها جمة ، ثم خرج عنها فلو شاء الله أن يخرج منها بشرة آلاف ألف دينار لفعل ، ولقد كان لي عليه عين ترعاه ، فكاتب إلى^(١) إنه عرضت عليه أموال لو عرضت على^(٢) أو بعضها لشرهت إليها نفسي ، فما علمته خرج من ذلك البلد إلا وهو بالصفة التي قدمها فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس . فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى في الاسلام ، فالحمد لله الذي جعله غرس يدي وخريج نعمتي .

هكذا كان عدل المال وشرف أنفسهم، وهكذا كان علمهم وبعد نظرهم في عصر المؤمنين، فلا يستغرب بعد ذلك ما ذكر من قصة^(٣) تلك المرأة القبطية التي نادت للمؤمن لما رى بقرتها طاء الغل^(٤) من أرض مصر وسألته أن يقبل قرأها ، ليجعل لها الشرف ولعقبها بذلك ، وأن لا يشمت بها الأعداء ، وبكت بكاء كثيراً ، فنزل عليها بيمينه ورجاله وكانت ضياقتها من فاخر الطعام ولذيذه . وفي الصباح بشت إلى المؤمنين بشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، في كل طبق كيس من ذهب . فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت : لا والله لا أقبل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله . فقال : هذا والله أعجب ورجما عجز بيت ما لتان عن مثل ذلك ! فقالت : يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحقر بنا . فقال : إن في بعض ما صنعت لكفاية ولا تحب التثميل عليك ، فردى مالك بآرك الله فيك ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا — وأشارت إلى الذهب — من هذا — وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض — ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندي من هذا شيء .

(١) خط المقرئ (٢) طاء الغل يقال لها اليوم طنابل (بضم الطاء وتشديد النون) وهي مركز اجا من مديرية النصورة

كثير فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأغافها من بعض خراج أرضها .
وفي الحق إنه لم يعرف عصر كعصر للأموت وعصر أبيه وأخيه الأمين في
استفاضة الأموال في كل طبقة من طبقات الأمة . فقد أنفق الحسن بن سهل على
عرس ابنته يوران على للأمون أربعة آلاف ألف دينار ، وماتت الخيزران أم المهدي
والرشيد (١٧٣) وكانت غلتها ألف ألف وستين ألف ألف درهم ، ومات محمد بن
سليمان وقبض الرشيد أمواله بالبصرة وغيرها ، فكان مبلغها نيفاً وخسين ألف ألف
درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ، وكان محمد بن سليمان يفل كل يوم مائة
ألف درهم . وأتفق جعفر بن يحيى على داره التي ابتناها في دار السلام نحواً من
عشرين ألف ألف درهم . وغنى إبراهيم بن المهدي محمداً الأمين صوتاً فأعطاه
ثلاثمائة ألف درهم . فقال إبراهيم : يا سيدي قد أمرت لي إلى هذه النهاية بمشرين
ألف ألف درهم فقال : وهل هي إلا خراج بعض الكور !

ووقع للأمون غير مرة أن كان يخف إلى الأقطار التي تشب فيها فتنة جديدة
لا يستمد على رجاله على كثرة الصالحين منهم للعمل . ولما انتفضت أسفل الأرض
كلها بمصر عربها وقبطنها ، وأخرجوا العمال وخالفوا الطاعة ، وكان ذلك لسوء
سيرة العمال فيهم ، هبط للأمون مصر لمشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ،
وسخط على عامله عيسى بن منصور وأمر بحل لوائه وأمره بلباس البياض وقال :
لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فمك وفعل عمالك ، حتمت الناس مالا يطيقون
وكستموني الخبر ، حتى تفانم الأمر واضطربت البلاد . وقال : ما فتق على قط
فتق في مملكتي إلا وجدت سببه جور العمال . وقال لمن رضع إليه خبراً في عامل :
إني امرؤ أداري عمالي مداراة الخائف ، وبالله ما أجد إلى أن أحملهم على المحبة
البيضاء سيلاً ، فأعمل على حسب ذلك ولن لهم تسل منهم .

وخص للأمون بالأغصاء عن المساوي ، والتغابي عن التفاهات ، وحمل الناس

على محل الخير، وجهد أن يسوق إليهم كل خير، وهذا مع كثرة عنايته بأخذ أخبار عماله ورعيته، وقيل أنه كان للمأمون ألف عجز وسبعالة يتفقد بها أحوال الناس ومن يحبه ويفضه ومن يفسد حرم للسلمين، وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتبه كلها، وكان يدور ليلاً ونهاراً مستتراً، ومع كل هذا كان للمأمون أبداً إلى جانب الساحة والنفوس، وتتجافى نفسه العظيمة عن كل ما تشتم منه راحة الطمع والاسفاف إلى أموال العمال، وكادت للصادرات والنكبات تبطل في أيامه ولا ينكب إلا من حاول نقض بنيان الدولة. ولقد رفع إليه أن عمرو بن مسعدة أحد وزراء دولته خلف ثمانين ألف ألف درهم، أو نحو ثمانية ملايين دينار، فوقع على الرقعة: « هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيه. » وكأنه استفزع القتل الذي يصيب كل عدو للدولة فبسط جناح الرحمة وقلل من إهلاك النفوس ما أمكن. وأقام نفسه مقام رجل يعرف الطبائع البشرية وينصف خصومه وأعداءه. ويمحس إليهم ولا يسيء، كتب صاحب البريد همدان^(١) إلى المأمون بخراسان يطلبه أن كاتب البريد للمزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطأ على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما، فوقع للمأمون: إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية، فإن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء. كمن قبله وأجازته، فأنف الساعي عنك، فلو كان في سماعته صادقاً لقد كان في صدقه لئها، إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أمي.

وقال للمأمون لولده في معنى الوشاة: يا بني نزها أقدارك وطهروا أصحابكم عن دنس الوشاة وتمويه سماعتهم، فكل جان يده في فيه، وليس يشئ إليكم إلا أحد الرجلين: ثقة وطنين. أما الثقة فقد قيل إنه لا يبلغ ولا يسيئ بالوشاية قدره، وأما الظنين فأهل أن يتهم صدقه، ويكذب ظنه، ويرد باطله، وما سعى رجل برجل

الى قط إلا انحط^(١) من قدره عندى ما لا يتلافاه أبداً ، فلا تعطوا الوشاة أمانهم
فيمن يشون بهم . ولئن لم يترك للأمون مجالاً للوشاة يخربون بيوت من يشون بهم ،
ويزيلون نعمتهم ، أو يوردونهم موارد الملركة ، فما كان يخفى عليه خبر من
الأخبار الخاصة والعامة في القاصية والدانية ، حتى إنه لما ضاق صدره من تشدد
بعض العلماء في حوار خلق القرآن ، كتب إلى عامله بمائهم رجلاً رجلاً ، وقال إنه
أعلم بما في منازلهم منهم . وخيّر في هذه الرسالة عن عيب واحد واحد من الفقهاء
وأصحاب الحديث ، وعن حالتهم وأموالهم التي خفيت أو أكثرها عن القريب والبعيد .
ولقد كان من أهم قوانين إدارته التوسعة على عماله حتى لا يسرقوا الرعية
والسلطان ويضيعوا حقوقهم ؛ رفع منزلة الفضل بن سهل وعقد له على الشرق طولا
وعرضاً وجعل عاملته ثلاثة آلاف ألف درهم . وما كان للأمون بالخليفة الذي يتغلى
عن خاصة عماله بأذى سبب ، بل يفض الطرف عن مساوئهم ويتركهم في برزخ
بين الرغبة والرغبة ، ولذلك استراح واستراح الناس معه ، وعلى قدر ما كان يراعى
الخاصة يراعى العامة ، فقد قال في وصيته للخليفة بعده : ولا تغفل أمر الرعية والعوام
فإن لللك بهم وبتعهدك لهم . الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ، ولا ينتهين اليك
أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من
أقربائهم لضغائهم ، ولا تحمل عليهم في شيء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق
بينهم ، وقربهم وتأن بهم .

وكان للأمون يحرص كل الحرص على الانتفاع برجاله ، ويطلق لهم حريتهم
في العمل ، ومن كان يستمع لمشورتهم احمد بن أبي دواد ، وهذا كان أول من
افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤوه . ولما أسند^(٢) للأمون
وصيته عند الموت إلى أخيه للعصم قال فيها : وأبو عبد الله احمد بن أبي دواد لا يفارقك

(١) أخلاق الملوك للجاحظ (٢) وفيت الأعيان لابن خلكان

البشركة في للشورة في كل أمر فانه موضع ذلك ، ولا تتخفن من بىدى وزيراً .
ومن جملة ما أوصى به للأمون أخاه للمتصم في مرضه : خذ بنيرة أخيك في التران
والاسلام ، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل للريد لله ، الخائف من عقابه
وعذابه ، ولا تفر بالله ومهلكه ، وكأن قد نزل بك الموت ، ومن ذلك عرفنا أن
سياسة للأمون ملكه كانت علماً وعملاً ، وهكذا يريد أن يكون عماله . وعظه
رجل فأصغى اليه منصتاً فلما فرغ قال : قد سمعت موعظتك فأسال الله أن ينفعنا
بها وربما علمنا ، غير أنا أخرج إلى للماونة بالفعال منا إلى للماونة بالقال ، فقد
كثر القاتلون وقل الفاعلون .

وكان في للأمون شيء من الجاذبية القطرية يستميل بها القلوب ويجمعها على
حبه ، ذلك أنه كان يعرف أمزجة أمته فيشغلها في اللفيد ، ولا لغو ولا لهو في
حياته ، فكان بإدارته مثال الجد في الخوالب من بنى العباس ، يفكر في أمر رعيته
أكثر من تفكيره في أمور نفسه . كتب إلى عامله على دمشق في التقدم الى عماله
في حسن السيرة وتخفيف اللؤونة وكف الأذى عن أهل محله ، وأن يتقدم الى عماله
في ذلك أشد التقدمة ، وأن يكتب الى عمال الخراج بمثل ذلك ، وكتب بهذا
الى جميع عماله في أجناد الشام . واستجلب للأمون مساحة أرض الشام مساح العراق
والأهواز والرى . وكان يمدل الخراج إذا شكاه منه أهله . وكان العلاء بن أيوب لما
ولى فارس من قبل للأمون يكتب عهد المال فيقرؤه من يحضره من أهل ذلك
العمل ، ويقول أتم عيوني عليه فاستوفوه منه ، ومن تظلم الى منه فليانصافه ونفقه
جائياً وراجماً . ويأمر المال أن يقرءوا عهده على أهل عمله في كل جمعة ويقول لهم :
هل استوفيتم ؟

أصاب أهل مكة سيل جارف مات تحته خلق كثير ، فكتب الى الحرمين
الى للأمون يذكر له الحال ، فوجه اليه للأمون بالأموال الكثيرة وكتب الى والى :

« أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله إلى أمير المؤمنين ، فيكلم بقلب رخته ،
 وأنجدهم بسبب نعمته ، وهو متبع ما أسلف إليهم ، بما يخلفه عليهم عاجلا وآجلا ،
 إن أذن الله في تثبيت عزمه على صحة نيته . » قالوا : فصار كتابه هذا آنس لأهل
 مكة من الأموال التي أنفدها . وكان له في كل بلد حوادث من الإحسان فلما
 يتسأى إليها أحد من الخلفاء . ولقد ذكر المؤرخون أن للأمون لما كان في دمشق
 أضاق إضاقة شديدة ، ثم وافاه اللال ثلاثون الف الف درهم . فقال ليحيى بن
 اكثم : أخرج بنا لننظر إلى هذا اللال . فخرج وخرج الناس ، وكان قد زين
 الحل وزخرف ، فنظر للأمون منه إلى شيء حسن كثير ، فاستظم الناس ذلك
 واستبشروا به . فقال للأمون : ان انصرفنا إلى منازلنا بهذا اللال وانصرف الناس
 خائبين لؤم . فأمر كتابه أن يوقع لهذا بألف ألف ولناك بمثلها ولآخر بأكثر منها
 حتى فرق أربعة وعشرين الف الف درهم (ثلاث مرات) ورجله في الركاب ، ثم
 حول الباقي على عرض الجيش برسم مصالح الجند .

وذكروا أن للأمون عقد لأخيه أبي اسحق على مقر للغرب ، ولابنه العباس على
 الشام والجزيرة ، ولعبد الله بن طاهر على الجند ومحاربة بابك . وفرق فيهم ما لم يفرق
 مثله أحد مذ كانت الدنيا : أمر لكل واحد منهم بمخمائة ألف دينار ، وما كان
 للأمون يرضى بما إذا كان فيه صلاح الدولة والرعية . ومخمائة ألف دينار يأخذها
 العامل ينفقها في أتباعه ورجاله ومروءته . وكانت نفقة للأمون كل يوم ستة آلاف
 دينار يصرف أكثرها على الرعية ولا يناله منها إلا جزء طفيف . كتب عمرو بن
 مسعدة إلى الأمون كتابا يستعطفه على الجند ونصه : « كتابي إلى أمير المؤمنين
 ومن قبلى من أجناده وقواده في الطاعة والافتقاد على أحسن ما تكون عليه طاعة
 جند تأخرت أرزاقهم ، واختلت أحوالهم » . فقال للأمون والله لأقضي حق هذا
 الكلام . وأمر باعطائهم ثمانية أشهر . وكتب بعض ولادة الأجناد إلى الأمون :

إن الجند شغبوا ونهبوا . فكتب اليه : لو عدلت لم يشغبوا ، ولو وفيت لم ينهبوا . وعزله عنهم ، وأدر عليهم ارزاقهم .

ويتضمن تعداد أفضال للآمون على الأفراد ، وحرصه على اختيار رجاله وعنايته بأرائهم وتجاربهم ، وغرامه بالعمو والاحسان . قال احمد بن أبي خالد وزير للآمون لثامة بن أشرس : كل واحد في هذه الدار ، أى في دار الخليفة ، له معنى غيرك ، فإنه لا معنى لك في دار أمير المؤمنين . فقال له للآمون : إن له معنى في الدار ، والحاجة اليه بينة . قال : وما الذى يصلح له ؟ . قال : أشاوره في مثلك هل تصلح لمن مملك أو لاصلاح . وثامة هو من الجماعة الذين كانوا ينشون دار الخلافة^(١) وهى دار العامة ، ومنهم محمد بن الجهم والقاسم بن سيار ، وكان هؤلاء الرجال أشبه بالمستشارين بل أشبه بدعاة الدولة ، وعنوان الخلافة . هذا إلى ما هناك من شعراء وأدباء وعلماء وفقهاء يختلفون في الاحياء إلى الخليفة فيشاركهم في حديثهم ، ويتنافسهم في صناعتهم ، ويفضل عليهم من هباته ، فيخرجون وألسنتهم تنطق بحمده ، وتدعو بدوام ملكه ، ويذكرون للعامة والخاصة ما هو عليه من بعد النظر في سياسة الملك . قال الجاحظ : كان ابراهيم بن السندى مولى أمير المؤمنين عالماً بالدولة شديد الحب لابناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ويدرسهم مناقبهم ، وكان فخم اللسان فخم الألفاظ ، لو قلت لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف سيف وسان طرير لكان ذلك قولاً ومذهباً .

أرانا قد خرجنا من وصف ادارة الآمون إلى وصف سيرته ، ونحن إلى ذلك مسوقون على الرغم منا ، وأتى لنا أن نصدر حكماً صحيحاً على حكومة مطلقة قبل أن

(١) منتخب لترك وطامة جند الخلافة الجاحظ

تعرف أخلاق رأسها خليفة أو كان ملكاً أو أميراً . والرأس هو الكل في مثل هذه الدول ، إذا صلح صلح الجسد كله .

الدولة على عهد المعتصم وأمهورة

إذا ذكر للمعتصم فأول ما يتبادر الى ذهن قارىء التاريخ الاسلامى أنه الخليفة الذى أشرك الترك في الخلافة العباسية وأبعد العرب عنها ، فنقض أساس دولته يده . ولئن كان للنصور بدأ بشراء للماليك واستخدامهم وتابعه من خلفوه على ذلك ، فان العباسيين ما دخلوا فيها دخل فيه للمعتصم من وضعه من العرب^(١) واخراجهم من الديوان ، وإسقاط أسمائهم ، ومنهم المطاء من العاصمة والولايات . فصار جند العباسيين من العمج وللوالى .

اجتمع للمعتصم من الأتراك أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية ، وألبهم بالزى على سائر جنده ، واصطنع قوماً من اليمن وقيس ومضر وسام للفرابة . وأعد رجال خراسان من الفراغة والأشروسنية وغيرهم من الترك . فأصبح جند الخلافة^(٢) على عهده خمسة أقسام : خراسانى وتركى ومولى وعربى وبنوى^(٣) . وكثر المهرج واللرج فى فيالقهم ببغداد حتى اضطر أن يبنى لهم مدينة سامرة (سر من رأى) تخفيفاً عن أهل دار السلام ، لأنهم كثروا على الناس وضاعت باعتدالهم الصدور .

فمن ثم كانت جيوش للمعتصم كثيرة مستعدة للقتال عند أقل إشارة ، وكان السعد خليفة فى غزواته مع الروم . قيل إنه لما فتح^(٤) عمورية كانت عدة عساكره خمسمائة ألف فارس ، وعلى مقدمته خمسمائة من الخيول البلق ، وكانت

(١) خطط المقربرى (٢) مناب الترك وعامة جند الخلافة الجاحظ (٣) الأبناء قوم من العمج سكنوا اليمن وقلبة اليهم أبناوى وبنوى حركة (٤) التيسير والاجبار للامدى (مخطوط)

لحاميات في الثغور أبداً على أتم نظام ، وارتفاع الثغور الشامية ^(١) نحو ثلاثة آلاف دينار تنفق ^(٢) في مصالحها من للراقب والحرس والقوانين والركاضة ^(٣) وللوكيل بالبروب والمحاض والحصون وغير ذلك من الأمور والأحوال ، وما يحتاج إلى شحتها من الجنود والصعاليك ^(٤) . وتنفق الدولة على مغازى الصوائف والشوائف في البر والبحر في السنة على التتريب مائتي ألف دينار ، وعلى للبالغة ثلاثمائة ألف دينار . بيد أن للمتصم لم يكن بالنفقة على شيء . أسمع منه بالنفقة على الحرب ، وزبناً كان للمتصم بعض العذر في قته بالأترك في جيشه ، وهم من القديم عرفوا بالحرب وأشهرها بالطاعة لقوادهم ، ولكن هذه النقطة الإدارية كان وبالها بعد على الدولة لأن الأترك تسفلوا إلى الوزارات والقيادات ، واستأثروا بالولايات والعمالات ، فأصبح لهم بعداً السلطان الحقيقي على البلاد ، وللخلفاء صبغة غير عملية من الحكم .

أراد للمتصم أن يتشبه بأخيه للآمون فار على أحكامه ونظامه ، ومن أين له أن يشبه بملحه وحلحه . فقد ذكر واصفوه بأنه كان قليل البضاعة من الأدب ، وإذا غضب لا يبالي من قتل ولا ماضل . وقالوا إنه كان يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محودة من عمران الأرض التي يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسمار ، ويكثر الكسب ، ويتسع للعاش . ويقول لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه . وأعطى أهل الناس التي ألف درهم لكبرى نهر لم اندفن في صدر الاسلام .

لم يتتبع للمتصم ولا ابنه الواقف شيئاً جديداً في الإدارة لم يعرفه للآمون

(١) الثغور الشامية هي طرسوس وأذنة والمصيصة والاسكندرية وأولاس وعين زربة والكنيسة السودا والمادونية وسيلس . ومن ثغور الجزيرة مرعش وأطلاكية وبتراس (٢) الخراج لتدانة (٣) القوانين للركاضة . الركاضة البريديون . (٤) الصعاليك الجند غير المنظم

والرشيد ، بل عاشا وعاشت الخلافة العباسية بعد ذلك بالأساس الذى وضعه للنصور للدولة . ولم يكن لها بعد منتصف القرن الثالث تلك الروعة التى كانت لها فى عهد الخلفاء الأول . وقل " بعد للأمن الخلفاء النادرون بذكاهم وتجاربهم ، فأصبحت الخلافة بعد عظمائها بفتور ، وأعمالهم بقلة الرواء والاتساق . ومن أهم الدواعى الى هذا الانحطاط فساد الادارة واختلال أحوال القضاء ، فنشأ ذلك من سراهة نفوس المال والوزراء وإضاعة الحقوق . ومن يصادر أو يموت عن عشرات أو مئات الألوف من الدنانير من هذه الطبقة كيف يصح لك أن تحكم عليه بالبراءة من مال السحت والرشا والسرقات . مساوى . ما فئت فى أمة إلا ضاع حق سلطانها وحق رعيته .

وكانت أهم عقوبة تقع على الظالم من المال مصادرة الخليفة أو وزيره أو عامله الأكبر ، وأصبح المال فى الدولة العباسية صورة عجيبة من استنزاف الأموال ، وهم موثقون بان مصيرهم بما جموه إلى للمصادرة والقتل . وقل فيهم من كان يكتفى بما قرره له الخليفة أو العامل الأعظم من الجرايات والمشاهرات ، وقد تكون على حد الكفاية وأكثر من الكفاية بالنسبة لتلك الأعصر ، وما حدث فيها من وفرة الثروة وعوائد القترف والسرف . وللوزراء ومن يلونهم طرق إبليس في السلب . والأرجح ان أهم موارد الوزراء والولاة كان من نهب جباية الدولة أو بيت مالها ، ومن الهدايا التى يضطرون صغار عمالهم الى تقديمها فى كل فرصة ، ومن رشايتنا ولونها عن يحاولون ان يستخدموا فى أعمال الدولة ، الى غير ذلك من وجوه اتهاب الأموال وإغصات الناس . وكانت هذه الطبقة من الوزراء والكبراء تصوم وتعلمي وتمتد وتصدق وتغار على الاسلام والدولة ، ثم تجوز الاحتيا لآخذ الأموال لأف الأبهة تقضى للتوسع فى الاتفاق !

قال عامل مصر لأحد من زاره من وزراء المييسيين فى القبطاط ، فرأى جسر

يحتسب المال عنه على السلطان ستين ألف دينار في كل سنة ، وهو لا يكلف عشرة دنائير : ان جاريه ثلاثة آلاف في الشهر ولا يمكنه وهو عامل مصر أن يكون بغير كتاب ولا عمل ولا كراع ولا جمال ولا اعطاء ولا افضال ، وله حرم وأولاد وأقارب وأهل يحتاج لهم الى مؤونة ، ولا يتخلو أن يرد عليه زوار يكتب من الرؤساء فتتقاضى المروءة أن يبرهم ويصلهم ، الى غير ذلك مما يصافح به ، ومنها هدايا سنوية الى الخليفة والسيدة وأتباعه والقهرمانه وكتائبهم وأسبابهم . وبهذا رأينا أن العامل كان مضطراً بحسب مصطلح ذلك الزمان الى أن يسد العجز في موازنته الخاصة من طرق غير مشروعة ، وقلّ ألف الجيد الطمعة . وكلما تقدم الزمن وزادت الخلافة العباسية عتقاً بليت الأخلاق في الناس وتبعه تقلقل الادارة ، لفسولة رأى القائمين بالدولة وتشعب أغراضهم .

ولقد كان الخلفاء على الأكثر يتخيرون للولايات والوزارات أكتب الناس وأعلمهم ، وللقضاء أفضام وأفتاهم . وحظوة الرجل عند قومه قد تكون من بواعث توسيد كبار الأعمال اليه خصوصاً الوزارات والولايات والقيادات . وأتى زمن بعد للعصم والوزير أعجم طمطم لا يفهم ولا يفهم ، وأصبح أنصار الدولة والنفيراء عليها يتأفقون من لا يحسنون العربية ، وإن كان منطقياً على صفات أخرى صالحة في تدبير للآل ؛ وذلك لكثرة من دخل في الأعمال من غير العرب . وكان معظم المال يحاولون أن يمجروا الرعية على للعاملات القديمة ويحلوهم على الرسوم السليمة . ولكن تطلب أنفس الولاة والمال الى الميث بحق الناس ، ليحنوا من ذلك ما تلتظ له شفافهم من اللانم ، كان الباعث على استئراء الفساد في معظم طبقات المجتمع .

ثم أصبح بعض العظماء ^(١) ينفرون من الوزارة لأن خاتمة حياتهم كانت التقتيل ، ولأن مصير أموالهم وأموال ذويهم كان في الغالب الى اللصادرة والاعتصاب .

ولقد عمت للمصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية، وأصبحت بتوالى الأيام للمصدر الرئيسى لتعصيل اللال؛ فالعامل يصادر الرعية، والوزير يصادر العمال، والخليفة يصادر الوزراء، ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم. حتى أنشؤا للمصادرة ديوانا خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة؛ فكانت للال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالتجارة. غضب للمتعصم على وزيره الفضل بن مروان وأخذ منه عشرة آلاف ألف دينار ثم نفاه. ثروة ضخمة لو فكر الفضل أن يخلع طاعة الخليفة وينشئ بها ملكا له لما أعجزه ذلك. وغضب الواثق على كتاب الدواوين وسجنهم وأخذ منهم ألف دينار، وفيهم بعض الوزراء ومن كانوا فى منزلتهم. وقل أن كان الوزير ينجو من نكبة إذا طالت أيامه، وأيقن الخليفة أنه اغتنى وعبث بأموال الدولة، أو حفزته الحاجة إلى المال فتفقده فى خزائنه فلم يجده. ولم يمهّد لوزير أن وزيراً واحدة بلا صرف لثلاثة خلفاء متتبعين إلا محمد بن عبد الملك الزيات، وانتضى أمره بحرقه فى التنوير ومصادرة أمواله. وكان من العلم والأدب فى الثروة العليا. وكان سلفه فى وزارة المتعصم أحمد بن عامر الذى وصفه للمتعصم ووصف نفسه بقوله:

« خليفة أُمى ووزير عاى »^(١)

قال الوزير ابن الفرات: تأملت ما صار إلى السلطان من مالى فوجدته عشرة آلاف الف دينار، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري فكان مثل ذلك. فكانه لم يخسر شيئاً لأنهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة، وإذا صودر أحدهم على مال لم يكن فى وسعه أدائه كله معجلاً أجلاه بالباقي وساعده على تحصيله وجمعه. وتعددت أسباب للمصادرة وجهاتها حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة لها. وكانت وزارة ابن الفرات ثلاث سنين وثمانية أشهر وأثنى عشر يوماً^(٢) - وولى الوزارة ثلاث مرات - وطولب بأمواله وذخائره

(١) وفيت الأعيان لابن خلكان (٢) حلة تلوح الطبرى لعريب

فاجتمع منها مع ودائع كانت له سبعة آلاف ألف دينار ، فيما حكى عن الصولى ، وكان مشاهداً ومشرفاً على أخبارهم . قال : وما سمعنا بوزير جلس فى الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياع والأثاث ما يحيط بمشرة آلاف ألف غير ابن الفرات . رد الوائى على بعض بنى أمية أموالهم ، وأكرم العلويين وأحسن اليهم ، وما أحسن أحد إلى آل أبى طالب من خلفاء بنى العباس ما أحسن اليهم الوائى . ما مات وفيهم فقير^(١) وكان فى حلمه وحسن خلقه يشبه عمه للأمنون ؛ يحب العدل ويعطف على أهل بيته ويتمتع بعينته . حشم^(٢) الأمراء عن الظلم ، وكان يجلس لحساب الدواوين بنفسه ، وترك جباية أعشار سفن البحر ، وكان مالا عظيماً . وقيل انه سد باب اللهو والفناء ، أما هو فكان يسمع للفنيات ولا يتبذل ولا يسرف . واستند على الناس كأبيه وعمه فى مسألة خلق القرآن حتى قيل انه أمر فى سنة ٢٣١ ، وهى سنة الفداء بين المسلمين والروم ، أن يمتحن^(٣) أسارى المسلمين ، فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا يرى فى الآخرة فودى به وأعطى ديناراً . ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدي الروم . وعقد الوائى لبنيه الثلاثة ، وقسم الدنيا بينهم ، وكتب بذلك كتاباً كافلاً جده الرشيد مع أولاده ، فأعطى ابنه الأكبر للتصريف من عرشد مصر إلى إفريقية للقرى كله إلى حيث بلغ سلطانه ، وأضاف إليه جند قنشرين والعوامم والنخور الشامية والجزيرة وديار بكر وريصة والموصل والفرات وهيت وعانة والخابور ودجلة والحرمين واليمن واليمامة وحضرموت والبحرين والسند وكرمان وكور الاهواز وماسبذان ومهرجان وشهرزور وقم وقاشان وقزوین والجبال . وأعطى ابنه للعتز خراسان وطبرستان وما وراء النهر والشرق كله . وأعطى ابنه للزید إرمينية وأذربيجان وجند دمشق والأردن وفلسطين . وكان لولى العهد فى هذه الممالك الصلاة والمعاون ، أى الشحنة والشرطة ، والقضاء والظالم والخراج والضياع والفتنة والصدقات وغير ذلك من

(١) تاريخ بغداد لابن الخطيب (٢) دول الاسلام للذهبي (٣) تاريخ الطبري

حقوق أعمالها وما في عمل كل واحد منها من البريد والطرز وخزن بيوت الأموال ودور الضرب . يستغلون على القطر الكبير حرباً وخراجاً ، ويفوضون الأمور كلها للعامل يأذن إليه في الحل والمقد بغير استثمار ويحملون عليه سواداً . أى ان القطر الواحد بل المصر الواحد يحكم برأى عامله وجماعة ممن يختارهم لمشورته ومعاونته ، فينظر في الأمور بحسب فهمه وما يوحى إليه المحيط والمادة والعرف ، ويطبق الأحكام الشرعية على الكبير والصغير والملى والدمى ، وينصب العامل الأكبر في الولاية العامل من ذوى الرأى والتدبير والخبرة بالعلم والعلم بالسياسة ، ويشاور الفقهاء وأرباب التجارب ، وينفق من المال ما تصلح به الولاية وما يوسع به على القراء والقراء وذوى الحاجات ، وما تقتضيه من عطاء الجند وقوية الثغور وشحن للصالح ثم يبعث الباقي من الأموال الى الخليفة . وللخليفة الخطبة والسكة ، فإذا كان العامل يحسن عمله ، ويعرف مدى التبعة للملكة عليه ، يستسبح الخراج ان كان ذا قوة أو أنس من جانب الحضرة ضعفاً . ولا يرجع في العادة الى استشارة العاصمة الا في عويص للسائل التى يمكن تأجيلها ، وتكون من حقوق الخليفة داخلية في أمهات المسائل الكبرى في الدولة . وقد يجتهد ويرتكب غلطا فتصرفه العاصمة ان أحسنت به أو توجه في العقوبة ، كما فعل للنصور لما بلغه ضرب عامله على المدينة عالمها مالك بن أنس فشق ذلك على الخليفة وأهان عامله وصرفه . ولكن كانت كتف مالك قد زالت عن مكانها بالضرب للرج . فالعامل في الحقيقة هو للملك الفعلى ولا يسع العاصمة الا أن تقره على ما يقرر ويدبر في أكثر الحالات . وقد ظهرت مضار هذه الطريقة عند ما كانت العاصمة تمجز عن ضبط كل شئ . من أمور الولايات لضعف الخلافة ووانه القائم على سديها . وإذا كان هناك قضاة وولاة وناظرون ومفتشون وكتاب وحساب فان التنفيذ يختلف قوة وضعفاً بحسب كفاية العامل وسلطان الخليفة والوزير .

جاء للتوكل وضغطُ أمراء الترك وقوادهم يزيدُ شدة على الخلفاء فقلع على

عبيد الله بن يحيى وأمر أن لا يعرض أحد من أصحاب الدواوين على الخليفة شيئاً ، وأن يدفعوا أعمالهم إلى وزيره ليعرضها ، وأجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم ، لما كان في نفسه من الأثراك واستبدادهم بالأمر . فكان عهده عهد جذب ودفع بين أصحاب الخلافة ومن رخصهم للمتعصم على رقاب الناس من الترك ، وعلق للتوكل يداوى الأمراض البادية في جسم الدولة بانفاق المال القدي جمعه للأمن والمتعصم والوفاق على نحو ما فعل الأمين ؛ ففرق ما جمعه السفاح واللتصور والمهدي والرشيدي من الأموال . فقال الناس إن أيام للتوكل كانت في حسناتها ونفارتها ورفاهية العيش بها ورخص أسعارها وحمد الخاص والمأم لها ورضام عنها أيام سراء لا ضراء . ثم كان هذا الخليفة منافقاً لا يحسن تدبير خرجته ، وله مع هذا عناية خاصة بديوان زمام النفقات . أنفق ما أنفق مما ادخره أجداده في بيوت أمواله ، فكان هذا منه تدبيراً مؤقتاً غير ناجح ، وما استطاع أن يداوى ما تجلى من تسلط الأثراك على الدولة في عامة أقطارها وأعمالها .

رأى للتوكل شدة ضغط الترك على الخلافة في دار السلام فأحب الانتقال إلى دمشق ليجعلها دار ملكه وتقل دواوين الدولة إليها . ولما أمن غائلة من توجس منهم خيفة عاد إلى المراق وادعى أنه استوبأ مدينة دمشق . وكانت له أفكار شاذة ، منها أنه كان يفيض على بن أبي طالب وأهل بيته فني قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل ومنع الناس من إتيانه . ولا تأويل إلى هذا السبب إلا خوفه الشيعة وأن يتخذوا من زيارة الحسين وسيلة إلى دعاية سياسية ترزعزع أركان الملك العباسي . واشتد للتوكل على أهل القنعة وأخدمه بلبس ألبة تحالف لباس السليمن على رؤوسهم وأوساطهم ، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسورة ، ترفيقاً بين منازلهم ومنازل السليمن . ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على السليمن . وأمر أن يقتصرروا في مراكبهم

على ركوب البغال والحير دون الخيل والبراذين الى غير ذلك . وأمر باجلا .
النصارى عن حمص لأنهم كانوا يسيرون الثوار من الجانيين ، والثورة لا تكاد تنطفي .
كل حين من حمص حتى سميت الكوفة الصغرى ؛ لكثرة قيام أهلها على العمال ،
كما خصت تونس بالتشغب والقيام على الأمراء والخلاف للولاة .

ومع كل ما بذل للتوكل قوى الأتراك عليه وقتلوه ، قيل بالاتفاق مع ابنه الذى
خلفه ، وأخذ المتقلبة من الترك يستضعفون الخلفاء ، فأصبح « الخليفة فى يدهم كالأسير
إن شاءوا أبوه وإن شاءوا خلموه وإن شاءوا قتلوه من غير ديانة ولا نظر للمسلمين »
وحاء المنتصر يقاوم العلويين كأيهم للتوكل ويكتب الى عامل مصر (٢٤٧) أن لا
يُقبلَ علويًا ضيعة ، ولا يركب فرسًا ، ولا يسافر من القسطنطين الى طرف من أطرافها ،
وأن ينعوا من اتحاد البيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين العلوى وبين أحد
خصومة قبل قول خصمه فيه ولم يطلب بينة . ذلك لأن العلويين ما ناموا ساعة
عن المطالبة بالملك ، فتل هذا الأمر يضيق عليهم دائرة حركتهم ، وإن كان فى بعض
ما يرمى اليه غير عادل .

ادارة المعنز والمهترى والمعمر

تولى للمعز الخلافة فأمر باحضار جماعة ممن صفت أذهانهم ، ودرت طباعهم ،
ولطف ظنهم ، وصحت نخائزهم ، وجادت غرائزهم ، وكلمت عقولهم بالمشورة . وحاول
أن يتخلص من الأتراك وكانوا تأصلوا فى جسم الدولة وروحها وكانوا كثروا وأوى
كثرة فى العاصمة والولايات ، وقدرت أرزاقهم وأرزاق المقاربة والشاكرية فى سنة
٢٥٢ فكان مبلغ ما يحتاجون اليه فى السنة مائتى الف الف دينار ، وذلك خراج
الملسكة لستين فاذا تأخر عطاؤهم فهناك اللؤامرات وللشاغبات وخوف البدوات
والنزوات والوثوب بالدولة .

ووسنت إمارة مصر لأحمد بن طولون (٢٥٤) من الأتراك، واستبد يجمع أعمال مصر لما وسد إليه أمر الأموال. وكان الأمير في مصر من قبل ليس له إلا الجند والشرطة وللعامل النظر في الأموال، وكلاهما يراقب صاحبه، وهما متساويان في المكانة وربما تقدم العامل على الأمير. والأقباط منذ كان الاسلام يقولون النظر في الأموال؛ فتتظر اليهم الأمة نظرها الى الصل والتعبان، وبراهم صاحب الأمر مختلفين. وكان مما أعان ابن طولون على استقلاله بملك مصر ثم استيلائه على الشام وما إليها أن الخليفة أمره باعداد جيش لقتال أحد الخوارج في الشام. وبعد استئصال الفتنة لم يفض الجيش فكان له قوة نافذة في استقلاله. وكانت جمهرة الجيش من المملوك والبيالة يشترهم كما يشترى الرقيق. وبلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك وأربعين ألفاً من البيد الزنج ومن العرب وغيرهم. أما ابنه خوارويه فقبل إن عدة جيشه بلغت أربع مائة ألف فارس.

ولئن حسنت حال مصر على عهد ابن طولون ودرّ خراجها واستفاض عمرانها— لحسن ادارته وسياسته حتى فضله على بعض الخلفاء، على كثرة ماسفك من البماء— فان استيلاءه على الأمر فيها عدّ خروجاً على الخلافة، وان كان يحطّب لها بادی. بدء. ولم يثأث الخلاص من دولته إلا لما قوى العباسيون سنة ٣٩٢ قتلوا آل بيتهم برمتهم، وخلفت الدولة الطولونية الدولة الإخشيدية^(١) وهي دولة أعجبية أيضاً.

(١) كان يطلق هذا الاسم (الإخشيد) على ملوك فرغانة وهو لفظ فارسي معناه ملك الملوك كما يطلق على ملوك الفرس الباسانية لقب شاهنشاه « ملك الملوك » وكسرى، وعلى ملك الروم باسيلوهو قيصر، وعلى ملوك الاسكندرية بطليموس، والذين تبع، والترك والجزر والقرغز خاقان، والترك القزvine سنو، والصين بيور، والمند بلرا، وقنوج دابي، والحيشه التجاشي، والقنوة كاييل، وجزائر البحر الشرق مهراج، ورجال طبرستان اصفهيد، ودنيانود مصفغان، وغرجستان شار، وسرخس زانويه، ونسا وأيوود بهمنه، وكش نيدون، وأشروسنة أفشين، وقشاش تدن، ومرو ماهويه، ونيسابور كنيار، وسمرقند طرخون، والسرير الحجاج، ودهستان صول، وجرجان اناخيد، والصفالية غار، وملوك السريانيك نمرود، والقطيع فرعون، وبلعيان شيداميان، ومصر العزيز، وكابل كاييل شاه، والقزمت ترمذ شاه، وخوارزم خوارزم شاه، وشروان شروان شاه، وبخارا بخارا خداه، وكوزكان كوزكانان خداه— ذكر ذلك البيروني في الآثار الباقية.

وتولى المهدي « والدنيا كلها مفتونة » فنحاول إعادة الخلافة إلى « روحها » وأمر :
 باخراج القتيان والغنيين والمغنيات من سامرا ونفاهم إلى بزاز ، وأمر بقتل السباع
 وطرد الكلاب وابطال اللامى ورد للظالم « وجلس ليرفضها فرغمت اليه قصص في
 الكور فال عنها فقال وزيره سليمان بن وهب شيئا في تاريخ الخراج منذ عهد
 عمر إلى عهد للنصور فأجاب للمهدي : معاذ الله أن أئزم الناس ظلما تقدم العمل به
 أو تأخر أسقطوه عن الناس . فقال أحدهم ان أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من
 أموال السلطان في السنة اثنا عشر الف الف درهم . فقال للمهدي على أن أقرر
 حقا وأزيل ظلما وان أجحف يبيت للال .

وكان للمهدي آخر الخلفاء الذين كانوا يتولون بأنفسهم القضاء والمظالم ، وربما
 كانوا يحملون القضاء والمظالم لقضائهم كما فعل عمر مع قاضيه أبي ادريس الخولاني
 وكما فعل المأمون مع يحيى بن اكنم وللمعتمد مع احمد بن أبي دود ، وربما كانت
 تحمل قيادة الجيوش للقضاة ، وكان يحيى بن اكنم يخرج أيام للمأمون بالضاقة إلى
 أرض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضى عبد الرحمن الناصر من بنى أمية بالأندلس .
 وكانت تولى هذه الوظائف انما تكون للخلفاء أو من يحملون ذلك له من وزير
 مفوض أو سلطان متغلب .

ولما هم الجند بقتل المهدي خطبهم فقال : أما دين أما حياتكم يكون هذا
 الخلاف على الخلفاء والاقدام والجرأة على الله سواء عليكم من قصد الاجاء عليكم ،
 ومن كان إذا بلغه مثل هذا عنكم دعا بارطال الشراب فشر بها سرورا بمكروهكم
 وحيا بيواركم . ثم ذكر لهم انه لم يصل اليه من دنياهم شيء . وانه ليس في منازل
 اخوته وولده فرش او مصائف أو خلم او جوارى ولا لهم ضياع ولا غلات . وكان
 حقيقة مقلا من اللباس والفرش واللطم وامر باخراج آنية الذهب والفضة من

الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودرهم وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فحيت^(١).

وجىء بالعمد قسم للملكة بين ابنه وأخيه للوفق فغلب أخوه عليه وشغل هو بلذاته، وكثر دخول الزعاف في القبض على الأعمال والفتن منتشرة؛ ومن أهمها فتنة صاحب الزنج، وللوفق يقود المساكر، ويرابط ويرتب الوزراء والأمراء. وقبل أن للعد احتاج إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها فقال:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلَّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه

وطالت أيام للعمد ولم يؤثر عنها ابتداء جديد في الإدارة والسياسة. وكان ديوان للوفق مائة ألف مرتزق، وكانت الدولة السامانية التي قامت في هذه الأيام في الشرق وتمتع باستقلال داخلي واسع، كما يقولون اليوم، من أحسن الدول سيرة وملوكها من بنى سامان أمتع ملوك الأسلام جانباً في عصرهم «لأنه»^(٢) ليس في الاسلام جيش إلا وهم شذاذ القبائل والبلدان والأطراف، إذا تفرقوا في هزيرة وتمزقوا في حادثة، لم يلتق منهم جمع بعده، غير جيش هؤلاء الملوك، فان جيوشهم الأتراك للملوكون، ومن الأحرار من يعرف داره ومكانه، إذا فشل منهم قوم أو ماتوا فني وفور عددهم ما يعاد من بين ظهرانيهم مثلهم، وان تفرقوا في حادثة تراجعوا كلهم إلى مكان واحد، فلا يقدح فيهم ما يقدح في سائر عساكر الأطراف، ولا سبيل لهم إلى التفرق في المساكر والتنقل في الممالك كما يكون عليه رسوم صمالك المساكر وشعنة البلدان».

وكانت طريقهم في إقامة الأحكام ببلاد خراسان^(٣) أن تضرب المقارع بين أيدي أجلة الأمراء. ويشهد كل أحد في كل شيء، غير أن في كل بلد عدة من

(١) سراج الذهب السعوي (٢) مساك المياك للإمطري (٣) المساك والمياك لابن حوقل

للزكين فان لمن الخضم على الشاهد سئل عنه للزكى ولا يتحنك فيه إلا قيه أو رئيس . ويختارون أبدأ بيخارى ألقه من بها وأعفهم ، يرضونه ويصدرون عن رأيه ويقضون حوائجه ، ويولون الأعمال بقوله . وفى نياپور رسوم حسنة منها مجلس للظالم فى كل يوم أحد وأرباء بمحضرة صاحب الجيش أو وزيره ، فكل من رفع قصة قدم اليه فأنصفه وحوله القاضى والرئيس والعلماء والأشراف ومجلس الحكم كل اثنين وخميس بمسجد رجاء لا ترى فى الاسلام مثله . وكانوا فى فارس^(١) يفضلون أهل البيوتات القديمة فى أعمال الدواوين يتوارثونها فيما بينهم ، وليس فى دواوين الاسلام ديوان أصعب عملاً وأكثر أنواعاً من ديوان فارس لاختلاف ربوعها على للتقليدین لها .

هذا مثال من حالة الدولة السامانية التى نشأت فى عهد للعتضد الطويل . وذكر المؤرخون انه على قلة معرفته بسياسة للالك عمرت^(٢) مملكته ، وكثرت الأموال وضبطت الثغور ، وانه كان قوى السياسة شديداً على أهل الفساد ، وكان ولى والدنيا خراب والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً فسكنت الفتن ، وصلحت البلدان وارتفعت الحروب ، ورخصت الأسعار ، وهذا الهيج ، وسالمه كل مخالف ، ودانت له الأمور ، وافتتح له الشرق والغرب ، واديل له من أكثر الخالفين . وكان سريع^(٣) النهضة عند الحادثة ، قليل الفتور ، يتفرد بالأمور ، ويمضى تدبيره بغير توقف ، ولى الأمر بضبط وحركة وتجربة ، وكف من كان يتوثب ويتشعب من للوالى .

وأمر المعتضد بافتتاح الخراج فى النبروز للمعتضى وهو فى حزيران من شهر روم ، وذلك للرفق بالناس ، وكتب الى الأقطار برد الفاضل من سهام للوارث على ذوى الأرحام ، وإبطال ديوان للوارث وكان من قبل يلحق كثيراً من الناس إعنات فى مواردتهم ، ويتناول على سبيل الظلم من أموالهم ، ويتقلد جبايتها أناس

(١) مسالك المالك للامطرى (٢) تاريخ ابن القطر (٣) التنبية والاشراف للسعودى

يمحرون مجرى عمال الخراج ، شئ . لم يكن في خلافة من الخلافات الى أن مضى صيدون من خلافة للمتد ، فجرى العمل بذلك على سبيل تأول ، فأزال المعتضد ذلك وأمر أن يرد على ذوى الأرحام ما أوجب الله ورسوله وعمر بن الخطاب وهلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، وأن ترد تركة من مات من أهل النعمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته . وأن يصرف جميع عمال اللوارث في النواحي ويبطل أمرهم ، ويرد النظر في أعمال اللوارث الى المحكام ، وكانوا يرئادون القضاة من أهل البلاد نفسها .

وللمعتضد مذهب جميل في سياسة عماله ؛ بلنه أن عامله على فارس أظهر أهبة في ولايته وأنفق ماوقست له به هية في نفوس الرعية ، فسأل عن رزقه فقيل له ألفان وخمسمائة دينار في الشهر ، فقال اجعلوها ثلاثة آلاف ليستعين بها على مروءته ^(١) . وكتب اليه في عامل عجز في ضمانه وهو مسجون بأنه كان في أيام ولايته يفرق عشرين كرا حنطة في كل شهر على حاشيته والفقراء والساكين من أهل معرفته ، وأنه فرق ذلك في هذا الشهر على عادته . فقال : سرتنى قيامه بمروءته ومعروفه . وأغناه من أداء مبلغ كان يطالب به ، وردده الى عمله وأحمد ما كان منه .

سارت الخلافة في طريق سوى على عهد المعتضد لسلطوته ومهابته وعفته وإمساكه ، فكان مع حرصه على إبقاء سلطانه يخافه عماله ويكتون عن المظالم ، واستعمل بعضهم الشدة في حفظ الأمن . بلغ عامله بدمشق ^(٢) أن رجلاً أعرابياً في أذرعات تنف خصلتين من شعر أحد فرسان النبوة ، فطلب الوالى معلماً يعلم الصبيان وقال له : تخرج الى اليرموك وأعطيك طيوراً تكون معك فإذا دخلت القرية قتل لهم : إني معلم جئت أطلب للماش وأعلم صبيانكم ، فإذا تمكنت من القرية فارصد لى الاعرابى الذى تنف سبال الفارس وخذ خبره واسمه ، فإذا رأيته قد وافى أرسل الطيور

(١) نضوار الماخرة لتوغى (٢) تلرخ دمشق لابن عساكر

بجبرك ! ثم قبض على الاعرابي وقطع رأسه وصلبه وضرب الجندى مائة عصاة وأسقط اسمه من الديوان ، لأنه استخذى للاعرابي حتى فعل بسبائه ما فعل .

كان من جميل سيرة المعتضد مع عماله وخوفه البطش بهم إذا جنوا ما يعاقبون عليه أنه إذا نكب رجلا من جلة العمال ورؤسائهم وكل به من يحفظه من قبله وشدد الوصية في صيائه ، ويُظهر أن هذا التوكيل للمطالبة وزيادتها والتشدد فيها لا ليحفظ نفسه ، لئلا يطعم العامل . وكان يقول : هؤلاء أكابر من العمال الذين قامت هيبتهم في نفوس الرعية وعرفوا أقطار البلاد ، هم أركان الدولة وأعضاء الوزارة والمرشعون لما فإن لم تحفظ نفوسهم فسد الأمر . وهذا الغاية في الوقوف على نفسية العمال وحفظهم في أنفسهم . ومع هذه للساحة واللين لم يرتفع السواد سواد العراق لأحد بعد عمر بن الخطاب بمثل ما ارتفع له أيام المعتضد^(١) .

وجمع المعتضد تسعة آلاف الف دينار فاضلة عن جميع النفقات وأراد أن يسبكا قرة واحدة إذا أتمها عشرة آلاف الف ويطرحها على باب العامة ليبليغ أحباب الأطراف أن له عشرة آلاف الف دينار وهو مستغن عنها « بعد النفقات الراتبية والحادثه ، وإطلاق الجارئ للأولياء في سائر النواحي وجميع للترزقة بها وبالخضرة . » رد المعتضد بيعد نظره مصر إلى حظيرة الخلافة بعد أن كاد يذهب بها احمد ابن طولون ، وكتب إلى ابنه خمارويه بولايته عليها هو وولده ثلاثين سنة . وذلك من الغرات إلى برقة ، وجعل اليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل في كل عام من اللال مائتي ألف دينار عما مضى وثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل . ولعل ماساقه إلى هذا التسامح مع الطولونيين ما تناصرت الأخبار عليه من ان الدولة البييدية ظهرت اعلامها في الغرب فأحب ان يضع الطولونيين حاجزاً بينه وبينهم ، ومن جميل حيلته انه طلب إلى ابن طولون ان يزوجه^(٢) ابنة ابنه

(١) تاريخ الوزراء السابق (٢) خطط الشام للوف

خارويه واسمها قطر الندى وقال : ما قصدت بهذا الزواج إلا اقنار ابن طولون لأنه يضطر ان يجهزها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل . وكان الأمر كما قال فانها جهزت بما استفترغ خزائن مصر والشام . وهذا هو الزواج السياسي للثمر والترتيب الادارى الحكيم .

الدولة على عهد المكتنى والمقتدر وكهدهم في الوزراء

اكتنى للمكتنى بهنج منهج والده المعتضد في الادارة ، وكان وزيره العباس بن الحسن يقول لنوابه بالأعمال : انا اوقع لكم واتم اصلوا ما فيه للصلحة . وقد يأخذ الوزير سبعة آلاف دينار في الشهر راتباً ، ومن الوزراء من فادوا بخمسمائة الف دينار ليصلوا إلى الوزارة . ومنهم من اعطوا للنجمين مائة الف دينار ليعتالوا على الخليفة ويغيروا خاطره على احد وزرائه ثم يتوصلون إلى منصب الوزارة . وبهذا أدركنا ان الخلفاء اعطوا والوزراء كذلك .

بيد أن قواعد الدولة لم تنزل دفعة واحدة لأن المعتضد ثبت قواعدها ، ومن يجي بعده معها ارتكب من الأغلاط لا يقضى على عامة التراتيب للوضوعة للخلافة منذ سنين ، فصح ما قيل من ان بنى العباس^(١) قوم منصورون تمتل دولتهم مرة وتصح مراراً لأن اصلها ثابت وبنياتها راسخ . وخلف للمكتنى في بيوت الأموال من العين ثمانية آلاف الف دينار ، ومن الورق خمسة وعشرين الف الف دينار . وفي رواية انه خلف مائة الف الف دينار عيناً وعقاراً وأواني بمثلها .

واستخلف للمقتدر طفلاً ووالدته وخالته وأم ولد للمعتضد تدير الملك ، حتى ان هذه السيدة جلست بالرصافة للظالم تنظر في الكتب يوماً في كل جمعة ، فأنكر الناس ذلك واستبشروه وكثر عيهم عليه والطمع فيه . ولم يكن في جلوسها أول يوم

(١) تجارب الامم لابن مسكويه

طائل . وفي اليوم الثاني حضرت القاضي فحسن امرها وخرجت التوقيعات عن سدادها فانتفع بذلك للظلمون وسكن الناس إلى ما كانوا نافرين من قعودها ونظرها . فالتفتد في سنيه الأولى خصوصاً كان يتدبر بآراء النساء والحاشية ، والسيدة وقهر ماتها ومن يجرى مجراهن من نساء القصر ، يتعكن في كل امر ويتدخلن في العزل والنصب . وأمروا صاحب الشرطة ببغداد ان يجلس في كل ربع من الأرباع فقيماً يسمع من الناس غلاماتهم ويعتني في مسائلهم حتى لا يجرى على أحد ظلم . وأمروه ان لا يكلف الناس ثمن الكاغد الذي تكتب فيه القصص وان يقوم به ، والا يأخذ الذين يشخصون مع الناس أكثر من داتين في اجسامهم .

ورد للقتدر رسوم الخلافة^(١) الى ما كانت عليه من التوسع في الطعام والشراب وإجراء الوظائف . وكان في داره أحد عشر ألف خادم خصي من الروم والسودان . وزاد في أرزاق بني هاشم وأعاد الرسوم في تقريق الأضاحي على الفقراء والعمال وأصحاب الدواوين والقضاة والجلساء ، وأسرف في الأموال فحق من الذهب ثمانين ألف ألف دينار^(٢) وفرق في خمس وعشرين سنة ما جمعه للتصير والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي . وحار الناس في امر دولة للقتدر^(٣) وطول أيامها على وهنى أصلها وضعف ابتنائها ، ولم ير الناس ولم يسموا بمثل سيرته وأيامه وطول خلافته . على انه كان جيد العقل ، صحيح الرأي ، ولكنه كان مؤثراً للشهوات . قال التنوخي^(٤) : ولقد سمعت ابا الحسن علي بن عيسى الوزير يقول ، وقد جرى ذكر للقتدر بحضرته في خلوة : ما هو الا أن يترك هذا الرجل التنبذ حمة أيام متتابعة حتى يصبح ذهنه فاخاطب منه رجلاً ما خاطبت افضل منه ولا ابصر بالرأى واعرف بالأمور وأسد في التدبير . ولو قلت انه إذا ترك التنبذ هذه للدة يكون في اصالة

(١) صلة تاريخ الطبري لمرب (٢) لطائف المعارف لثعالي (٣) تاريخ الطبري (٤) شوار

الرأى وصحة العقل كالمعتضد والمأمون وسث اشبهها من الخلفاء ما حسبت أن أقم بعيداً ، وما يفسده غير متابعة الشراب ولا يجبله سواها اه .

قيل انه كان بين ابن زبر القاضي وبين علي بن عيسى الوزير عداوة وعجز ابن زبر عن رضاه فألقى رقعة في ورق للظالم ، وفيها أن رجلا من خراسان رأى في ثلاث ليال متوالية العباس بن عبد المطلب في وسط دار السلام يبنى داراً ، فكلما فرغ من موضع تقدم رجل لهدمه . فقال له : يا عم رسول الله من هذا الذي بليت به ؟ فقال . هذا علي بن عيسى كلما بنيت لولدى بناء هدمه . فقرأت الرقعة على المقتدر فقال : ان هذه الرؤيا صحيحة يصرف علي بن عيسى وقبض عليه . فاجاء آخر النهار حتى وافى ابن زبر ومعه عهده بقضاء مصر ودمشق . فان صحت هذه القصة كان تصديق المقتدر حيلة القاضي من أغرب ما أثر من ضعف العقول .

وعلى بن عيسى هذا أكبر وزراء ذاك العهد ومن الأسر العريقة في خدمة الدولة منذ أيام المعتضد^(١) كان من الثقة والصيانة والصناعة على جانب ، عامل المصادر من الوزراء والعمال بالرفق ، وكتب إلى كل واحد من العمال بما جرت العادة به من تشریف أمير المؤمنين إياه بالخلع ، ورد أمر الدواوين والملكة اليه ، وأقرهم على مواضعهم ، وأمرهم بالجد والاجتهاد في العارة ، وكتب اليهم بانصاف الرعية والمدل عليها ، ورفع صفيح المؤن وكبيرها عنها . كما كان يطالب بتوفير حقوق السلطان وتصحيحها وصيانة الأموال وحياطها . ونظر الى من تعود اقتطاع الأموال السلطانية وإقامة مروءات فيه فيها ، وقصر في العارة واعتمد غيره . وعمر الثغور والبيمارستانات وأدر الأرزاق لمن ينظر فيها ، وأزاح علل للرضى والقوام ، وعمر للساجد الجامعة وكتب الى جميع البلدان بذلك ، ووقع الى العمال وكتب اليهم في أمر للظالم وأمر بأن يستوفى الخراج بنير محابة للأقوياء ، ولا حيف على الضعفاء . وساس

(١) تلحظ الام لابن مكيه

الناس أحسن سياسة ، ورسم العمال الرسوم الجيلة ، وأنصف الرعية وأزال السنن الجاثرة ، ودبر أمر الوزارة والنواوين وسائر أمور المملكة بكفاية تامة وعفاف وتصون ، حتى أسقط الزيادات في اقطاعات الجند والعمال وغيرهم ، لما رأى ثقافات السلطان زائدة على دخله زيادة مفرطة تنحوج الى هدم بيوت الأموال وصرفها في ثقافات يستغنى عنها . وكانت يجرى على خمسة وأربعين ألف انسان جرايات تكفيهم وختم السلطان سبعين سنة لم يزل فيها نعمة عن أحد . قال الصولي : ولا علم انه وزر لبنى العباس وزير يشبه في زهده وعفته ؛ بلنه ان أسارى المسلمين في الروم ساءت حالهم وان الروم يحاولون تنصيرهم فضع ذلك . ولما كان يعرف أن الخليفة لا يريد قتال الروم عمد إلى طرق سلمية فندب بطريق انطاكية وجاثليق القدس أن يكتبنا إلى الروم كتابا يقنعان هذه للماملة ويتوعدان ، فاضطرت دولة الروم أن تحسن معاملة للمسلمين . وما عابوا على طي بن عيسى الوزير الا أنه كان ينظر كثيراً في جزئيات الأمور فرجما شغلته عن الكليات ^(١) .

منع طي بن عيسى من إكراه التناء وللزارعين « على ^(٢) تضمين غلات بيدارهم بالحزر والتقدير ، وإلزامهم حق الاعشار في ضياعهم على التربييع ، واستخراج الخراج منهم على أوفر عبء » قبل إدراك غلاتهم وثمارهم ، وإكراه وجوهم على ابتياع الفلات السلطانية بأسعار مسرفة بمحفظة « ولما غلب السجزية على فارس جلا قوم من أرباب الخراج عنها لسوء المعاملة ففرض خراجهم على الباقين وكل بذلك قانون فارس القديم ، ولم تزل هذه التكلفة تستوفى على زيادة تارة وتقصان . وجاءه قوم من أجلاء فارس وقالوا نمنع غلاتنا وتمتاق في الكناديج ^(٣) حتى تهلك وتصير هكذا « وطرحوا من أكلهم حنطة محرقة » وطلب بتكلفة ما وجب

(١) الثغرى لابن القطان (٢) تاريخ الوزراء لسان (٣) واحد ما كندوج وهي الخزانة الصغيرة تحمل فيها الجيوب وهي مربعة

علينا فتدعوننا الضرورة الى بيع نفوسنا وشعور نساتنا وأدائها حتى تطلق الغلة وهى على هذه الصورة « ثم رموا من أكلهم تيناً يابساً وخوخاً مقدوداً ولوزاً وفستقاً وبندقاً وغبيراً، وعناباً » وقالوا وهذا كله خراج لقوم آخرين والبلد فتح عنوة، فاما تساويننا فى المدل أو الجور . فأنهى على بن عيسى ذلك إلى المتندر بالله وجمع القضاة والفقهاء ومشايخ الكتاب والعمال وجلة القواد فى دار الوزارة وقد جعلها ديواناً، وتناظر الفريقان من أرباب الشجر وأرباب التكة فقال أرباب الشجر: هذه أملاك قد أنفقنا عليها أموالنا حتى أثبتت الفروس فيها وحصل لنا بعض الاستغلال منها، ومتى ألزمت الخراج بطلت قيمتها . وقد كان للهدى أزال للطلابة ورسم الخراج عنها . وقال الطالبون بالتكة ما شكوا به حالم فيها واستمرار الظلم عليهم بها . ورجع إلى الفقهاء فى ذلك فأفتوا بوجوب الخراج وبطلان التكة .

هذا تمثيل للادارة على ذاك العهد بصورة من أعمال الوزراء . وبأمثال على ابن عيسى وابن الفرات كانت القوة تدخل على ملك بنى العباس إذا عراه الضف ويجبرون نقص الخلفاء . ويمثل الوزير الخاقانى والوزير الخصبى ترجع القهقرى . فان كان على بن عيسى بعيد النظر فى أمور الدولة جده عارف بما يصلحها، عفا عن أموال الرعية ساهراً على مصلحتهم الحقيقية فان ابن الفرات كان نافذاً فى عمل الخراج وتدير البلاد وجباية للال وافتتاح الأطراف . وكلاهما من لفاء الكتاب ومن العارفين بأدب الملك . وكان للدولة رسوم فى تخريج رجال الادارة ومما ذكروه ان باذرويا كان يتقلدها جلة المال . قال ابن الفرات : سمعت أبا العباس أخى يقول من استقل بياذرويا استقل بديوان الخراج، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة . وذلك لأن معاملتها مختلفة وقصبتها الحضرة ، والمعاملة فيها مع الوزراء والأمراء والقواد والكتاب والاشراف ووجوه الناس ، فإذا ضبط اختلاف المعاملات واستوفى على هذه الطبقات صلح للأمر الكبار .

وبعد أن كان الخلفاء على اعتماد تام لإدارة الملك أصبحوا يستمدون على وزرائهم فإن كانوا علماء أخياراً جرت الأمور على سداد، وإن كانوا جهالاً أضراراً زاد البلاء والشقاء، وطمع أصحاب الأطراف والنواب وخرجوا عن الطاعة، وزالت عن الجند والرعية هيبة الخلفاء، وخلت من الأموال خزائهم. والواقع إذا استثنينا عهد للمتضد لا نشاهد في خلفاء بني العباس بعد عهد للآمون من كان ذا عبقرية في الإدارة، وقد لا تنتظم الأحوال حتى بوجود الوزراء المحسكين لأن للرأس تأثيره، والخليفة مرجع الأعمال وجميع السلطات فإن كان على اتزان تختفي العيوب في إدارة سلطنته المستبدة الطويلة المريضة، وإلا فالأفلاك ياد ولللك في تزلزل. وهناك خليفة يدبره أخوه، وآخر تدبره أمه وجوارها، وغيره تدبره قهرمانته، وثالث يدبره وزيره. وقل في بني العباس أن جاء خليفة كالآمون وللمتضد من يصدر عن رأى ضيق ويعنى بملكه عناية حقيقية.

وكان الخلفاء في الجملة مشتغلين بأنفسهم ودفع أعدائهم عنهم، وكثير منهم من يقتل بأيدي الجند. وقل فيهم الرجل الرشيد بعد القاهرة، وكانت الأمور تجري بقوة التسلسل، وبنو بويه ثم بنو سلجوق وغيرهم هم أصحاب الدولة بالفعل والخليفة لا عمل له في الحقيقة، بل هو أشبه بخيال يخفى وراءه صاحب السلطان إذا أراد أمراً لا يرضاه العامة إلا إذا صدر عن الخليفة.

نعم صار الخليفة تابعاً للملك أو للتغلب ولم يبق شيء يقال له إدارة؛ لأن الخليفة لا يحكم حتى على بيته فأصبحت الإدارة للوك والأطراف وإدارة القوس والترك، والثاني في السلطان شأنهم لا تكاد تسمع للخلفاء اسماً. وكان من عادة أكثر خلفاء العباسيين أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم. جرت بذلك سنتهم إلى آخر أيام الستمصر فلما ولي الستمصر آخر خلفائهم بغداد أطلق أولاده الثلاثة ولم يحبسهم. وكان من عادة حبس أولاد الخلفاء ضعفهم بل بلاهتهم إذا أسندت

اليهم الخلافة، وربما انصرف أكثرهم في دوز احتباسهم إلى اللهو والشراب فإذا جاءوها عجزوا عن إدارة الملك لأنهم عاجزون عن سياسة أنفسهم .

ولقد كان الرسم في عهد الخلفاء الأول من بني العباس أن يراقب الوالد ابنه والابن أباه والأخ أخاه على طريقة مستورة عن الأنظار ، وتوسد إلى أبناء الخلفاء قيادة الجيوش وإدارة الولايات ويشتركون في السلطان إلى حد معين ، وتؤخذ آراؤهم في النوازل ويدخلون في مجالس للشورة فيكون لهم بذلك شيء من الوقوف ينفعهم يوم تولى الأمر وينزفون انهم شركاء . في هذا الملك لم رأى يستد به ويجب عليهم الاهتمام لمصلحه .

وفي عصر الانحطاط حجب أبناء الخلفاء فأصبح أكثرهم إلى الجهل والبلاهة يدرسون إدارة الملك في الكتب وربما لا يرخص لهم ان يدرسوا في كل كتاب ويسمعون من مر بهم وأساتينهم ما يريدون أن يسمعون ، ولكنهم لا يملكون بالعمل شيئاً كثيراً يصح ان يكون مادة لحياتهم وحياة الخلافة إذا أنت نوبتهم لتولى هذا المنصب الجليل .

فهرس

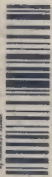
الادارة الاسلامية فى عز العرب

صفحة

٣ للقدمة
٥ الادارة الاسلامية — نظر فى الموضوع
٧ ادارة الرسول
٢٣ ادارة الخلفاء الراشدين
٦٥ ادارة الأمويين — الادارة على عهد معاوية بن أبى سفيان
٨١ ادارة يزيد ومعاوية الصغير ومروان وابنه عبد الملك
٩٢ ادارة الوليد وسليمان
٩٥ ادارة عمر بن عبد العزيز
١١٤ ادارة يزيد بن عبد الملك وهشام ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد
١٢٠ ادارة العباسيين — بداير السفاح والنصور
١٣٥ ادارة للهدى والمهادى والرشيء
١٤٨ ادارة الأمن والمأمون
١٦٥ الادارة على عهد المتصم وأخلافه
١٧٣ ادارة للمعز والمهتدى وللمتمد
١٨٠ الادارة على عهد للسكتى وللقندر وكلام فى الوزراء

۲۰۰۰ / ۳۴ / ۱۳۸۵

Bibliotheca Alexandrina



0204383